الأخلاق

بين

الطبع والتطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الايداع ١٣٤٦٦ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى

977-331-213-6

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

الأخلاق

بين الطّبع والتّطبّع

تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ.

إمَّا بَعْدُ، فإنَّ مكارم الأخلاق تعشقُهَا القلوبُ، وتهفو إليها النُّفوسُ، فهي صفةٌ مِنْ صفات الأنبياء، والصِّدِّيقين، والصَّالحين، .. . بها تُنَالُ الدَّرجات، وتُرْفَعُ المقامات، وقد بعث اللهُ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ ليتمِّمَ مكارم الأخلاق وصالحها، فكان يدعو النَّاس بلسان مقاله، ويدعوهم ـ أيضًا ـ بأخلاقه، وكريم فعاله.

قال الشَّاعرُ:

خُلُقٌ كَأنَّ الشَّمْسَ تَحْسُدُهُ على ... كَرَمِ الطِّبَاعِ، وزينةِ الأوصافِ
ضَمِنَتْ لَهُ الدُّنيا الثَّناءَ، فكُلَّما ... ذكروهُ جَادَ النَّاسُ بالإتْحَافِ[1]

فمن رُزِقَ الأخلاقَ ترأَّس وساد، وأحبَّه العباد، وفُتِحَتْ لَهُ القلوبُ؛ لأنَّه صاحِبُ أخلاقٍ.

قال شاعرُ النِّيلِ حافظُ بنُ إبراهيمَ:

فإذا رُزِقْتَ خَلِيقَةً[2] محمودةً ... فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأرزاقِ
فالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مَالٌ، وذا ... عِلمٌ، وذاكَ مَكَارِمُ الأخْلاقِ

---

(١) الإتحاف: الإهداء.

(٢) الخَلِيقَة: الخُلق، والجمع خلائق.

وَالْمَالُ إِنْ لَمْ تَدَّخِرْهُ مُحَصَّنًا ... بِالْعِلْمِ، كَانَ نِهَايَةَ الإِمْلاَقِ[(١)]
وَالعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ[(٢)] ... تُعْلِيهِ، كَانَ مَطِيَّةَ الإِخْفَاقِ
لا تَحْسَبَنَّ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ... مَا لَمْ يُتَوَّجْ رَبُّهُ[(٣)] بِخَلاقِ[(٤)]

ولما لمكارم الأخلاق من مكانة عظيمة، ومنزلة عالية منَ الدِّين - بَلْ هي الدِّينُ كُلُّهُ -؛ فقد حاولتُ في هذه الصَّفحات الآتية أنْ أُسلِّط الضَّوء على مكارم الأخلاق في ضوء الكتاب والسُّنَّة، مسترشدًا بفَهْم سلفنا الصَّالح، ومَنْ تبعهم بإحسان، مذكِّرًا نفسي أوَّلاً، وإخواني المسلمين ثانيًا بهذه العبادة المباركة في الدُّنيا والآخرة.

ولستُ أدلُّ بهذا الكتاب، فهو من الكتاب والسُّنَّة مُقْتَبَس، وفيه لمن رام الأخلاقَ نِعْمَ المُلْتَمَس، ولن أتحدَّث عنه، فهو أولى بالحديث عن نفسه. وأسأل الله أن يُحَسِّن أخلاقنا، ويوفِّقَنا لمكارم الأخلاق في أقوالنا، وأفعالنا، ونيَّاتنا، إنَّه نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النَّصير.

وصلَّى الله وبارك على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

كَتَبَهُ
أبو عَبْدِ اللهِ فيصلُ بْنُ عبده قائد الحاشديُّ

(١) الإملاق: الفقر، يُقَال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، إذا افتقر.
(٢) الشَّمائل: الأخلاق، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، إذا افتقر.
(٣) رَبُّهُ: صاحبُهُ.
(٤) «جواهر الأدب» لأحمدَ الهاشميِّ (ص٤٩٥).

تعريف الأخلاق

الأخلاق: السَّجايا والطِّباع، قال ابْنُ الأثيرِ:

«الخُلُقُ - بضمِّ اللاَّم وسكونها -: الدِّيْنُ، والطَّبْعُ، والسَّجيَّةُ، وحقيقتُهُ: أنَّه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافه»[1].

وقال ابْنُ منظور:

«وفي التَّنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤). والجمع أخلاقٌ، لا تُكَسَّرُ[2] على غير ذلك، والخُلُقُ: السَّجيَّةُ»[3].

وقال - أيضاً -:

«الخُلُقُ - بضمِّ اللاَّم وسكونها -: هو الدِّيْنُ، والطَّبْعُ، والسَّجيَّةُ»[4].

وقال القسطلاني:

«اعلم أنَّ الأخلاقَ جمعُ خُلُقٍ بضمِّ الخاء واللاَّم، ويجوز إسكانها (خُلْق).

---

(١) «النِّهاية» لابن الأثير (٢/ ٧٠).

(٢) لا تُكَسَّرُ: أي لا تُجمعُ جَمْعَ تكسيرٍ.

(٣) «لسان العرب» (١٠/ ٨٦-٨٧).

(٤) المرجع السابق.

قال الرَّاغب:

الخَلْقُ ـ بالفتح وبالضَّمِّ ـ في الأصل بمعنىً واحدٍ كالشَّرْب والشُّرْب، ولكنْ خُصَّ الخَلْقُ الذي بالفتح بالهيئات والصُّور المُدْركَةِ بالبصر، وخُصَّ الذي بالضَّمِّ بالقوى والسَّجايا المُدْرَكة بالبصيرة»[1].

وقال الجاحظ:

«الخلقُ: هو حال النَّفس، بها يفعل الإنسانُ أفعاله بلا رويَّةٍ، ولا اختيارٍ، والخلقُ قد يكون في بعض النَّاس غريزةً وطَبْعًا، وفي بعضهم لا يكون إلاَّ بالرِّياضة والاجتهاد»[2].

---

(١) «شرح المواهب اللدنيَّة» (٤/٢٤٣).

(٢) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص١٢).

الأخلاق بين الطبع والتطبع

اختلف العلماء في حقيقة الأخلاق، فذهب بعضهم إلى أنَّها طبائعُ، جُبِلَ الإنسانُ على التَّحلِّي بها، وذهب آخرون إلى أنَّها اكتسابٌ، يكتسبها الإنسان بالممارسة، والدربة، والمرونة.

والصَّواب أنَّ منها ما هو طَبْعٌ، يتفضَّلُ اللهُ عزَّ وجلَّ على بعض خلقه، فيجبلهم عليها، ويطبعهم بها من غير كسبٍ منهم، ولا جُهْدٍ، ومَنْ لم يُؤْتِه فهو مكلَّفٌ بمجاهدة نفسه وحملها على مكارم الأخلاق، فإنَّ النَّفسَ قابلةٌ لذلك.

قال أبو ذؤيب الهُذَليُّ:

والنَّفْسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى القليل تَقْنَعُ

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأخلاق الفاضلة تكون طَبْعًا، وتكون تطبُّعًا - قول النبي ﷺ ! - لأشجِّ عَبْدِ القَيْسِ: **«إنَّ فيك لخُلُقَيْنِ، يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، والأَنَاةُ». قال: يا رسول الله، أهما خُلُقَانِ تَخَلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَني اللهُ عليهما؟، قال: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عليهما». قال: الحَمْدُ للهِ الذي جَبَلَني على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ ورسولُه»**[1]

قال الشيخ محمَّدُ بْنُ صالحِ العثيمين - يرحمه اللهُ - في شرحه لهذا الحديث:

«فهذا دليلٌ على أنَّ الأخلاقَ الحميدةَ تكون طَبْعًا، وتكون تطبُّعًا، ولكن الطَّبع - بلاشكٍّ - أحسنُ مِنَ التَّطبُّع؛ لأنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ إذا كان طبيعياً صار سجيَّةً للإنسان،

---

(١) رواه أبو داودَ (٥٢٢٥)، وأحمدُ (٤/٢٠٦)، وأخرج شَطْرَهُ الأوَّل مسلمٌ (١٧)، والتِّرمذيُّ (١١ : ٢) عن ابن عبَّاسٍ.

وطبيعةً له، لا يحتاج في ممارسته إلى تكلُّفٍ، ولا يحتاج في استدعائه إلى عناءٍ ومشقَّةٍ، ولكن هذا فَضْلُ اللهِ، يؤتيه مَنْ يشاء، ومَنْ حُرِمَ هذا ـ أيْ مَنْ حُرِمَ الخُلُقَ عن سبيل الطَّبْع ـ فإنَّه يمكنه أنّ يناله عن سبيل التَّطبُّع، وذلك بالمرونة والممارسة»[١].

وقال ـ أيضا ـ:

«وهنا مسألةٌ: وهي أيُّهما أفضلُ، رجلٌ جُبِلَ على خُلُقٍ حميدٍ، ورجلٌ يجاهدُ نفسه على التَّخلُّق به، فأيُّهما أعلى منزلةً من الآخر؟».

ونقول جوابًا على هذه المسألة: إنَّه لا شكَّ أنَّ الرَّجلَ الذي جُبِلَ على الخُلُقِ الحَسَنِ أكملُ من حيثُ تخلُّقه بذلك، أو من حيثُ وجود هذا الخُلُقِ الحَسَنِ فيه؛ لأنَّه لا يحتاج إلى عناءٍ، ولا إلى مشقَّةٍ في استدعائه، ولا يفوته في بعض الأماكن والمواطن، إذْ أنَّ حُسنَ الخُلُق فيه سجيَّةٌ وطبْعٌ، ففي أيِّ وقت تلقاهُ تجده حَسَنَ الخُلُقِ، وفي أيِّ مكانٍ تلقاهُ تجده حَسَنَ الخُلُقِ، وعلى أيِّ حالٍ تلقاه تجده حَسَنَ الخُلُقِ، فهو في هذه النَّاحية أكملُ بلا شكٍّ.

«وأما الآخر الذي يجاهد نفسه، ويُرَوِّضُها على حسن الخُلُق ـ فلا شكَّ أنَّه يُؤْجَرُ على ذلك من جهة مجاهدة نفسه، وهو أفضلُ من هذه الجهة، ولكنَّهُ من حيثُ كمال الخُلُق أنقصُ بكثيرٍ من الرَّجل الأوَّل.

فإذا رُزِقَ الإنسانُ الخُلُقين جميعًا طبْعًا وتطبُّعًا، كان ذلك أكملَ»[٢].

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين، إعداد وترتيب خالد أبو صالح (ص١٣).
(٢) المرجع السَّابق (ص١٤).

أهمية الأخلاق

١ - أنَّها امتثالٌ لأمر الله سبحانه وتعالى.

٢ - أنَّها طاعةٌ لرسولُ الله ﷺ.

٣ - أنَّها سببٌ لمحبَّةِ اللهِ سبحانه وتعالى.

٤ - أنَّها سببٌ لمحبَّةِ رسول الله ﷺ.

٥ - أنَّها أعظمُ سبباً لدخولِ الجنَّةِ بَعْدَ تقوى اللهِ تعالى.

٦ - أنَّ كمال الدِّين - بَعْدَ التَّوحيدِ - في حُسْنِ الخُلُقِ.

٧ - أنَّها أثقلُ شيءٍ في الميزان.

٨ - أنَّها عبادةٌ عظيمةٌ.

٩ - حصولُ الخيريَّةِ.

١٠ - أنَّها مِنْ خَيْرِ أعمالِ العبادِ.

١١ - أنَّها سببٌ لتعميرِ الدِّيارِ وزيادةِ الأعمارِ.

١٢ - أنَّها مِنْ أعمالِ أهلِ الجنَّةِ.

١٣ - أنَّها سببٌ في تأييدِ اللهِ ونَصْرِهِ.

أهمية الأخلاق

١ ـ أنَّها امتثالٌ لأمر الله سبحانه وتعالى:

قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩).

قال عبدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه: «**أمر اللهُ نبيَّهُ ﷺ أَنْ يأخذَ العفْوَ مِنْ أخلاقِ النَّاسِ**»[(١)].

٢ ـ أنَّها طاعةٌ لرسولُ الله ﷺ:

عن أبي ذرٍّ ومُعَاذٍ رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[(٢)].

٣ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّةِ اللهِ سبحانه وتعالى:

عن أسامةَ بن شريكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[(٣)].

٤ ـ أنَّها سببٌ لمحبَّةِ رسولِ الله ﷺ:

عن جابر بن عبدِ اللهِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنْ أحبِّكُمْ إليَّ، وأَقْرَبِكُمْ منِّي مجلسًا يَوْمَ القيامةِ ـ أَحَاسِنَكُمْ أخلاقًا**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٦٦٣)، و (٤٦٤٤).

(٢) رواه أحمدُ (٥/ ١٣٥-١٥٨)، والتِّرمذيُّ (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٧).

(٣) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (٤٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٩٩-٤٠١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٩)، و«الصَّحيحة» (٤٣٣).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٢٠١)، و«صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٢/ ٢١٥).

٥ ـ أنَّها أعظمُ سببٍ لدخولِ الجنَّةِ بَعْدَ تقوى اللهِ تعالى:

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: **سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عَنْ أكثرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ؟، قال: «تقوى اللهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ»** (١).

٦ ـ أنَّ كمالَ الدِّينِ ـ بَعْدَ التَّوحيدِ ـ في حُسْنِ الخُلُقِ:

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«أكملُ المؤمنين إيمانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»** (٢).

ويقول ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ: **«الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَنْ زاد عليك في الخُلُقِ، زاد عليك في الدِّينِ»** (٣).

٧ ـ أنَّها أثقلُ شيءٍ في الميزان:

عن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ شَيْءٍ أثقلُ في ميزانِ العبدِ المؤمنِ يَوْمَ القيامةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»** (٤).

٨ ـ أنَّها عبادةٌ عظيمةٌ:

عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ العبدَ لَيَبْلُغُ بحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائمِ القائمِ»** (٥).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤)، وابن ماجَهْ (٤٢٤٦)، وأحمدُ (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٤٤٢)، وحسَّن إسناده الشَّيخ سليم الهلاليُّ في كتابه «مكارم الأخلاق» (ص ٥٠).

(٢) رواه أبو داودَ (٤٦٨٢)، والتِّرمذيُّ (١١٦٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٣٠، ١٢٣٢)، و«الصَّحيحة» (٢٨٤).

(٣) «مدارج السَّالكين» (٢/ ٢٩٤).

(٤) رواه أبو داودَ (٤٧٩٩)، والتِّرمذيُّ (٢٠٠٢)، و (٣٠٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٧٢١)، و«الصَّحيحة» (٨٧٦).

(٥) رواه أبو داودَ (٤٧٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٢٠)، و«الصَّحيحة» (٧٩٥).

٩ ـ حصولُ الخيريَّةِ:

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ خِيارِكُمْ أحاسِنَكُمْ أخلاقًا»(١).

١٠ ـ أنَّها مِنْ خَيْرِ أعمالِ العبادِ:

عن أسامةَ بن شريكٍ رضي الله عنه قال: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ، فقيل له: يا رسُولَ اللهِ، ما خيرُ ما أُعْطِيَ الإنسانُ؟، قال: «خُلُقٌ حَسَنٌ»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، ألا أدُلُّكَ على خَصلَتَيْنِ، هما أخفُّ على الظَّهْرِ، وأثقلُ في الميزانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟». قال: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «عليك بحُسْنِ الخُلُقِ، وطُوْلِ الصَّمْتِ؛ فوالذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ، ما عمل الخلائقُ بِمِثْلِهِمَا»(٣).

١١ ـ أنَّها سببٌ لتعميرِ الدِّيارِ، وزيادةِ الأعمارِ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «صِلَةُ الرَّحمِ، وحُسْنُ الخُلُقِ، وحُسْنُ الجِوارِ ـ يُعَمِّرْنَ الدِّيارَ، ويَزِدْنَ في الأعمارِ»(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٥٩)، و (٣٧٥٩)، و (٦٠٢٩)، و (٦٠٣٥)، ومسلمٌ (٢٣٢١).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (حديث ٢٩١)، وأحمدُ في «المسند» (٤/ ٢٧٨)، وابن ماجَهْ (٣٤٣٦)، من حديث أسامة بن شريك مرفوعًا، وهو صحيح الإسناد.

(٣) رواه البزار في «كشف الأستار» (٤/ ٢٢٠) عن أنسٍ، وأبو الشَّيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدَّرْداءِ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٠٤٨)، وهو في «الصَّحيحة» (١٩٣٨).

(٤) رواه أحمدُ (٦/ ١٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٧٦٧)، و«الصَّحيحة» (٥١٩).

١٢ ـ أنَّها مِنْ أعمالِ أهلِ الجنَّة:

عن أبي أمَامَةَ الباهليِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيمٌ**[١] **ببيتٍ في رَبَضِ**[٢] **الجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ**[٣]**، وإنْ كان مُحقاً، وببيتٍ في وَسَطِ الجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكذبَ، وإنْ كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**»[٤].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ **عن أكثرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ، فقال: «تقوى اللهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ»، وسُئِلَ عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فقال: «الفَمُ، والفَرْجُ»**[٥].

١٣ ـ أنَّها سببٌ في تأييدِ اللهِ ونَصْرِهِ:

وصفتْ خديجةُ بنتُ خُوَيْلدٍ ﷺ رسول الله ﷺ عندما أخبرها بنزول الوَحْي، ويقول: «**لقد خَشِيْتُ على نفسي**»**فقالت: «كلاَّ، أبشرْ فوالله، لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً** ـ ثُمَّ ذكرتْ سببَ ذلك بقولها ـ: **واللهِ، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُوْمَ، وتقري الضَّيفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحقِّ**»[٦].

---

(١) «زعيمٌ»: ضامنٌ.

(٢) «رَبَض الجنَّة»: أدناها. «ورَبَضُ المدينة»: ما حَوْلَهَا، وجمعُ رَبَضٍ: أرْبَاضٌ.

(٣) «المِرَاء»: أصله مِنْ مريت النَّاقةَ، إذا استخرجت ما في ضَرْعِـها، وهو المنازعة في القول والعمل بقصد الباطل، فإذا كان بقصد الحقِّ فهو جدَالٌ.

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨٠٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٤٦٤)، و«الصَّحيحة» (٢٧٣).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه البخاريُّ (٣)، و(٤٩٥٣)، و(٦٩٨٢)، ومسلمٌ (١٦٠).

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ:

«قال العلماءُ ﷺ: معنى كلام خديجةَ ﷺ أنَّك لا يُصيبك مكروهُ، لما جعل اللهُ فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشَّمائل، وذكرتْ ضُرُوبًا[١] مِنْ ذلك، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ مكارمَ الأخلاقِ، وخصالَ الخيرِ سببُ السَّلامةِ مِنْ مصارعِ السُّوْءِ»[٢].

إنَّ البَـرِيَّةَ يَوْمَ مَـبْـعَثِ أَحْـمَـدَ ▫▪▫ نَظَرَ الإلهُ لَهَـا، فَـبَـدَّلَ حَـالَهَـا

بَلْ كَـرَّمَ الإنسـانَ حِـيْنَ اخْـتَـارَ مِنْ ▫▪▫ خَـيْـرِ البَـرِيَّةِ نَجْـمَـهَـا وهِلاَلَهَـا

ووصف ابن الدَّغِنَة أبا بكرٍ الصِّدِّيق بمثل ما وصفتْ به خديجةُ ﷺ رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق.

عن عائشة ﷺ قالت: «**خرج أبو بكر مُهَاجِرًا نَحْوَ أرضِ الحَبَشَةِ، حتَّى بلغ بَرْكَ الغِمَادِ، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ ـ وهو سيِّدُ القَارَةِ ـ فقال: «أين تريد يا أبا بكر؟»**».

فقال أبو بكرٍ: «**أخرجني قومي، فَأُريدُ أَنْ أَسِيحَ في الأرض، وأَعْبُدَ ربِّي**».

قال ابنُ الدَّغِنَة: «**إنَّك تَكْسِبُ المَعْدُوْمَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتقري الضَّيفَ، وتُعْيْنُ على نوائبِ الحقِّ، فأنا لك جارٌ[٣]، ارجعْ واعْبُدْ ربَّك ببلدِك» فَرَجَعَ**[٤].

قال الحافظ ابن حجرٍ ـ يرحمه الله ـ:

«وفي موافقةِ وصف ابن الدَّغِنَة لأبي بكرٍ بمثل ما وصفتْ به خديجةُ النَّبيَّ ﷺ ما يدلُّ على عظيم فضل أبي بكرٍ، واتِّصافه بالصِّفات البالغة في أنواع الكمال»[٥].

---

(١) «ضُرُوبًا»: أنواعًا، والمفرد ضَرْبٌ.

(٢) شرح النَّوويِّ على مسلم (٢/٢٠٢).

(٣) «جَـارٌ»: أي مُجِيرٌ، أمنعُ مَنْ يؤذيك.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٩٠٥).

(٥) «الفتح» (٧/ ٢٤٠).

وقال ـ أيضًا ـ:

«ومن أعظم مناقبه ـ أيْ أبي بكر رضي الله عنه ـ أنَّ ابنَ الدَّغِنَة سيِّدَ القَارَة وصفه بنظير ما وَصفتْ به خديجةُ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا بُعثَ، فتوارد على نعتٍ واحد من غير أنْ يتواطآ على ذلك، وهذا غايةٌ في مَدْحِه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُنْذُ نشأ كانتْ أكمل الصِّفات»[١].

أبو بَكْرٍ والشَّدْوُ الجميلُ بكَ ابْتُكِر ۞ وذِكْرَاكَ طافتْ علَى البَدْوِ والحَضَرْ

هُمَامٌ[٢] كأنَّ الشَّمسَ أَصْغَتْ لفَضْلِهِ ۞ وحَنَّتْ لهُ الجَوْزَاءُ[٣] وشَيَّعَهُ القَمَرْ

تَفَرَّدَ بالعليا عَنْ كُلِّ فاضلٍ ۞ مناقبُهُ زَانَتْ رَبيعةَ[٤] أو مُضَرْ[٥]

---

(١) «الإصابة» (٤/ ١٠٤).

(٢) «الهُمام»: السَّيِّدُ الشُّجاعُ، أو المَلِكُ العظيمُ الهِمَّةِ.

(٣) «الجَوْزَاءُ»: برجٌ في السَّماء.

(٤) «ربيعة»: قبيلةٌ عربيةٌ، كانت مع قبيلة مُضَرَ من أقوى القبائل في الجاهليَّة، رَحَلَتْ مِنَ اليمن إلى شمال الجزيرة العربيَّة، ثُمَّ إلى شمال بلاد الفُرَات.

(٥) «مُضَر»: قبيلةٌ عربيةٌ، كانت ديارهم فيما بين النَّهرين على الفُرَات، كان رسول الله ﷺ منها مِنْ بَني النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ.

أسباب اكتساب مكارم الأخلاق

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ العلم.

٣ ـ العقيدة الصحيحة.

٤ ـ النَّظر في كتاب الله تعالى.

٥ ـ التَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ.

٦ ـ الدُّعاء.

٧ ـ العمل الصَّالح.

٨ ـ الرُّفْقَةُ الصَّالحة.

٩ ـ المحاسبة.

١٠ ـ المجاهدة.

١١ ـ الاستفادةُ مِنَ الآخرين.

١٢ ـ عُلُوُّ الهِمَّةِ.

١٣ ـ النَّظرُ في عواقبِ سُوْءِ الخُلُقِ.

أسباب اكتساب مكارم الأخلاق

الإخْلاص

إنَّ لإخلاص العمل تأثيرًا عظيمًا في مكارم الأخْلاق؛ فهو يمدُّ قلب صاحبه بقوَّة، تجعله ينهض للمكارم ابتغاءَ وجه الله، غير منتظر من أحدٍ جزاءً ولا شُكُورًا، يشرح صدره للحِلْم، والعَفْو، ومعالي الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلبًا لرضاه، والفوز بنعيم الآخرة.

وَمَنْ تَكُنِ العَلْيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ ... فَكُلُّ الذَّي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحَبَّبُ[1]

فهو إنْ أعطى فعطاؤه لله، وإنْ منع فمنعُهُ لله، وإنْ أحبَّ فحبُّهُ لله، وإنْ أبغض فبغضُهُ لله، وإنْ صبر فصبرهُ لله، وإنْ غضب فغضبُهُ لله، وهكذا في شأنه كُلِّه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وعن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أحبَّ لله، وأبغض لله، ومَنَعَ لله ـ فقد استكمل الإيمانَ»[2].

---

(١) «جواهر الأدب» (ص٥٢٨).

(٢) رواه أبو داودَ (٤٦٨١)، بإسناد حَسَنٍ، وله شاهدٌ عند التِّرمذيِّ (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٤٠)، من حديث مُعَاذ الجُهَنيِّ بزيادة «وأنْكَحَ لله»، وقد صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٩٦٥)، و«الصَّحيحة» (٣٨٠).

قال الإمام أبو طاهر السِّلَفيُّ:

واعْلَمْ بأنَّ الأجرَ ليس بحاصلٍ ... إلاَّ إذا كانتْ لَهُ صِفَتانِ

لابُدَّ مِنْ إخلاصِهِ ونقائِهِ ... وخُلُوِّهِ مِنْ سائرِ الأدْرَانِ[1]

وكذا متابعةُ الرَّسولِ فحكمُهَا ... نصٌّ بحُكْمِ نبيِّنا العَدْنَانِ

(١) «الأدْران»: جمع دَرَنٍ، وهو الوَسَخ.

العِلْم

العـلم أصـلٌ عظيمٌ من أصـول الأخـلاق، فهو يُثمـر التَّدَيُّنَ الصَّحيح، فكم مِنْ آية في كتاب الله تقـرؤها، فترقّق قلبك لله، والإحسـان، والرَّحمة، والحنـان!، وكم من حديثٍ تتـخلَّق به مع النَّاس، يجلب لك محـبَّةَ الله، ثُمَّ محـبَّةَ النَّاس، فتـعيش سعيدًا!.

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«كُلُّ ما كان في القرآن مِنْ مَدْحٍ للعبـد فهو من ثمرة العلم، وكُلُّ ما كان من ذمٍّ للعبد فهو من ثمرةِ الجهلِ».

وقال ـ أيضًا ـ:

«ولو لم يكن في العلم إلاَّ القُـرْبُ من ربِّ العالمين، والالتحـاقُ بعالَم الملائكة، وصحبةُ المَلأ الأعلى ـ لكفى به شرفًا وفَضْلاً، فكيف وعزُّ الدُّنيا والآخرةِ مَنُوطٌ[1] به، مشروطٌ بحصوله؟!»[2].

لیس الأصَمُّ ولا الأعْمَى سِوَى رَجُلٍ ... لم يَهْدِهِ الهاديان: السَّمْعُ والبَصَرُ
فاجْعَلْ صديقَكَ عِلْمًا تستقيمُ بِهِ ... فإنَّهُ النُّورُ، لا يَنْأى بِهِ خَطَرُ

---

(١) «مَنُوطٌ»: مُعَلَّقٌ.
(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٠٨).

والعلم المقصود هنا هو علم الكتاب والسُّنَّة بفَهْم سلف الأُمَّة، فأجلُّ العلوم ـ كما قال ابن حَزْمٍ ـ يرحمه اللهُ ـ: «ما قَرَّبَكَ مِنْ خالِقِكَ سبحانه وتعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه»[(١)].

وقال ـ أيضاً ـ في بيانِ ما للعلم مِنْ أهميَّةٍ في الأخلاق:

«منفعة العِلم في استعمال الفضائل عظيمةٌ، وهو أنَّه يُعَلِّمُ حُسْنَ الفضال، فيأتيها ـ ولو في الندرة ـ ويُعَلِّمُ قُبْحَ الرَّذائلِ، فيجتنبها ـ ولو في الندرة ـ، ويُسمِعُ الثَّناءَ الحَسَنَ، فيرغب في مِثْله، والثَّناءَ الرَّديَّ، فينفر منه، فعلى هذه المُقَدِّمات يجب أن يكون للعلم حِصَّةٌ في كُلِّ فضيلةٍ، وللجهل حِصَّةٌ من كُلِّ رذيلة.

وهذه منزلةٌ خُصَّ بها النبيُّون ـ عليهم السلام ـ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى علَّمهم الخيرَ كُلَّهُ، دون أنْ يتعلَّموه من النَّاس.

وقد رأيتُ في غِمَارِ العامَّة[(٢)]. مَنْ يجري في الاعتدال، وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدَّمُهُ فيه حكيمٌ عالمٌ رائضٌ لنفسِهِ، ولكنَّهُ قليلٌ جداً، ورأيتُ مِمَّن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ووصايا الحكماء، وهؤلاء يتقدَّمُهُ في خُبْثِ السِّيرة، وفساد العلانية والسَّريرة ـ شرارُ الخَلْقِ، وهذا كثيرٌ جداً، فعلمتُ أنَّها مواهبُ، وحِرْمانٌ من الله تعالى»[(٣)].

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨٩).

(٢) «غِمَار»: الكثير من الماء، وهو جمع غَمْرَة، و«غِمَارالعامَّة»: جماعتهم ولفيفهم.

(٣) «الأخلاق والسِّير» (ص٩٣).

وأخيراً قال إبراهيمُ الألبيري - يحثُّ وَلَدَهُ على طلب العلم -:

جَعَلْتَ المالَ فوقَ العِلْمِ جَهْلاً ▪ لَعَمْرُكَ في القَضِيَّةِ ما عَدَلْتَا

وبَيْنَهُمَا - بنصِّ الوَحْيِ - بَوْنٌ[1] ▪ سَتَعْلَمُهُ إذا طه قَرَأْتَا[2]

لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ[3] مالٍ ▪ لأَنْتَ لِواءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

لَئِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الحَشَايا[4] ▪ لأَنْتَ عَلَى الكَوْكَبِ قَدْ جَلَسْتَا

وإذا رَكِبَ الجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ[5] ▪ لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

ومَهْمَا افْتَضَّ أبكارَ الغَوانِي[6] ▪ فكم بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا

وليس يَضُرُّكَ الإقتارُ[7] شَيْئاً ▪ إذا ما أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا[8]

---

(١) «بَوْنٌ»: فَرْق وتَفَاوتٌ في الفَضْل.

(٢) يريد قولَه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١٤).

(٣) «اللِّوَاءُ»: العَلَمُ والرَّايةُ، وجمعهُ أَلْوِيَةٌ.

(٤) «الحشايا»: جمع مفردها حشية، وهي الفراش المحشو.

(٥) «الجِيَاد»: جمع جَوَاد، وهو الفرس. و«الجِيَادُ المُسَوَّمات»: أي المُعَلَّمَات، يُقال: سَوَّمَ الفَرَسَ، إذا أعلمه بسَوْمَة، والسَّومة: السِّمة والعلامة.

(٦) «الغواني»: جمع غانيةٍ، وهي المرأة الجميلة، سُمِّيَتْ غانيةً لاستغنائها بحسنها وجمالها عَنِ الحُلِيِّ ونحوه.

(٧) «الإقتارُ»: الفقرُ وضيقُ المعيشة.

(٨) «عشرون قصيدةً في الزُّهْد»، جمع محمَّد سيِّد أحمد (ص٤٨).

العَقِيدَة الصَّحِيحَة

العقيدة الصحيحة هي أصل الأخلاق ومصدرها، فإذا ثبتت واستقرَّت، أثمرت الأخلاقَ الطَّيِّبة.

فالاعتقاد الصَّحيح يحمل على محاسن الأخلاق، والاعتقاد الفاسد يحمل على مساوئ الأخلاق، فإذا اعتقد الشَّخص أنَّ هناك جنَّةً ونارًا، عمل لما يكون سببًا لدخوله الجنَّة، وترك ما يكون سببًا لدخوله النَّار، ألا ترى أنَّ الصَّحابة ﷺ، ـ كانوا قبل البعثة كسائر كثيرٍ من العرب ممَّن يتَّصفون بالشِّدَّة، والقسوة، والغِلْظة، ولمَّا دخلوا في الإسلام، وخالطتْ بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهُم ـ رقَّتْ طباعُهُم وحَسُنَتْ أخلاقُهُم، بل إنَّهم أصبحوا مثالاً في مكارم الأخلاق.

جَـزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِيْنِ الرَّسـولِ فـمـا ▪▪▪ أحْلَى مآثِرَهُمْ في سَالِفِ الحِقَبِ![1]

لولا لطائفُ صُنْعِ اللهِ مـا نَبَـتَتْ ▪▪▪ تِلْكَ المَكَارِمُ في لحْمٍ، ولا عَصَبِ

فالعقيدة الصَّحيحة هي الأساس التي انطلق منها الرُّسُل ـ صلوات الله عليهم ـ لإصلاح سلوك النَّاس، وتقويم أخلاقهم، فالتُّغير لا بُدَّ أن يكون ـ أوَّلاً وقبل كُلِّ شيءٍ ـ تغييرًا عقيديًا، مبنيًا على الاعتقاد الصَّحيح في الله سبحانه وتعالى، وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وآثارها في الكون والحياة.

---

(١) «الحِقبُ»: جمع حِقْبَةٍ، وهي مُدَّةٌ مبهمة طويلةٌ من الزَّمن.

تَأمَّلْ في بَنَاتِ الأرضِ، وانْظُرْ ... إلى آثارِ ما صَنَعَ المَليكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ[١] شَاخِصَاتٌ ... بأحْداقٍ[٢] هي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بأنَّ اللهَ لَيسَ لَهُ شَريكُ

فالإصلاح مَبْدَؤُه من القلب، وكذلك الفساد، ثُمَّ يتَّسع ليشمل إرادات الإنسان وأفعاله. عن النُّعمانِ بْنَ بَشيرٍ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: ألاَ وهي القَلْبُ»[٣].

قال الغزاليُّ ـ يرحمه اللهُ ـ:

«آداب الظَّواهر عُنوان آداب البَوَاطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رَشْحُ المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السَّرائر[٤]. وهي التي تشرق على الظَّواهر، فَتُزَيِّنُها وتُجَلِّيْها، وتُبَدِّل المحاسن بمكارمها ومساويها، ومَنْ لم يخشعْ قلبُهُ، لم تخشعْ جوارحه، ومَنْ لم يكن صَدْرُهُ مشكاةً[٥]. الأنوار الإلهيَّة، لم يُفِضْ على ظاهره جمال الآداب النَّبويَّة»[٦].

(١) «اللُّجَيْنُ»: الفضَّة.
(٢) «أحداق»: جمع حَدَقَة، وهي سواد العين.
(٣) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩).
(٤) «السَّرائر»: القلوب، مفردها: سريرةٌ.
(٥) «المشكاة»: فجوةٌ في الجدار، لا تصلُ فتحته إلى الطَّرَف الثَّاني منه، شبَّهَ الصَّدْرَ بها.
(٦) «الإحياء» (٢/٣٥٧).

ودعني ـ أخي ـ أضرب لك مثالاً، وهو الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، فهو ركنٌ من أركان الإيمان، وهو يُورِّث كُلَّ خُلُقٍ حـميد، ويبعث الـطُّمأنينة، والرَّاحة النَّفسـيَّة بما يجري عليه من أقـدار الله، فلا يقلق بفوات محبـوب، أو حصول مكروه؛ لأنَّ ذلك بقدر الله الذي له ملك السَّموات والأرض، وهو كائنٌ لا محالة.

يقول الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (سورة الحديد: ٢٢-٢٣).

فمن ثمرات الإيمان بالقدر الصَّبر والثَّبات.

عن صُهَيْبٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاَّ للمؤمن، إنْ أصابَتْهُ سرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ، فكان خيرًا لَهُ»[1].

وشأن البَشَر الصُّعود والنُّزول.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ مَثَلُ السُّنْبُلَة، تميلُ أحيانًا، وتقوم أحيانًا»[2].

ومن ثمرات الإيمان بالقـدر ـ أيضًا ـ أن يقول المرء الحقَّ، لا يخـاف في الله لومة لائمٍ، وينكر المنكر، ويُقرَّ المعروف، فيحبُّـه اللهُ، ثُمَّ يحبُّه النَّاس؛ لأنَّه استقرَّ في قلبه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (سورة التوبة: ٥١).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) رواه أبو يَعْلَى، والضِّياء، وصـحَّحـه الألبانيُّ في «صـحيح الجـامع» (٢/ ٥٨٤٥)، و«الصَّحيـحة» (٢٢٨٨).

قال رسول الله ﷺ: «**لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هيبةُ النَّاسِ أنْ يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَهُ**، ـ أو شَهِدَهُ، أو سَمِعَهُ ـ»[١].

وإذا علم المرء أنَّ الأرزاق مقدُرةٌ[٢]، فلا يحمله استبطاءُ رزقه أنْ يطلبه بمعصية الله، بل لا يطلبه إلاَّ من حلال، فلا يظلم، ولا يسرق، ولا يغشُّ، ولا يخون، ولا يخلف الوعد، ولا يسوم على سَوْم أخيه، ولا يبيع على بيع أخيه.

عن أبي أُمامةَ الباهليِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي أنَّ نفسًا لن تموتَ حتَّى تستكمِلَ أجلَها، وتَسْتَوْعِبَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ، وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّ أحَدَكُمْ استبطاءُ الرِّزقِ أنْ يَطْلُبَهُ بمعصيةِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُنَالُ ما عِنْدَهُ إلا بطاعتِه**»[٣].

وما أجمل ما قاله الإمامُ إسماعيل المقري ـ من علماء الشَّافعيَّة ـ في قصيدةٍ لَهُ وعظيَّةٍ بليغةٍ، فقال ـ وأجادَ ـ:

تقولُ مَعَ العِصْيَانِ: ربِّي غافرٌ ◘ صَدَقْتَ، ولكنْ غافرٌ بالمَشيئةِ

وربُّكَ رزَّاقٌ كما هو غافرٌ ◘ فَلِمَ لَمْ تُصَدِّقْ فيهما بالسَّويَّةِ؟!

فإنَّكَ تَرْجُو العَفْوَ مِنْ غَيْرِ توبةٍ ◘ ولستَ براجي الرِّزقِ إلاَّ بحيلةِ!

عَلَى أنَّهُ بالرِّزقِ كفَّلَ نفسَهُ ◘ لكُلٍّ، ولم يكفُلْ لكُلٍّ بجنَّةِ[٤]

---

(١) «السِّلسلة الصَّحيحة» للألبانيِّ (١٦٨).

(٢) أخرج مسلمٌ (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأمِّ حبيبةَ: «**لقدْ سألتِ اللهَ لآجالٍ مَضْرُوبةٍ، وأيَّامٍ مَعْدُودةٍ، وأرزاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أو يُؤَخِّرَ شيئًا عَنْ حِلِّهِ**»، ومعنى حِلِّه: أي نزوله.

(٣) رواه أبو نُعَيم في «الحلية»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٠٨٥).

(٤) «إيثار الحقِّ عَلَى الخَلْقِ» للإمام ابن الوزير ـ يرحمه الله ـ (ص٢٥٨).

وإذا عَلِمَ أنَّ خزائنَ كُلِّ شيءٍ بيديه[١]، تواضع لله، ولم يستكبر على الخَلْقِ، ولم يُنْزِلْ حاجته بهم، ولم يُذِلَّ نفسه، ولم يَحْسُدِ النَّاسَ على ما رزقهم الله.

إذا المَرْءُ لَمْ يَقْنَعْ بِعَيْشِهِ، فَإِنَّهُ ... وإِنْ كانَ ذا مالٍ ـ مِنَ الفَقْرِ مُوقَرُ
إذا كانَ فَضْلُ النَّاسِ يُغْنيكَ بَيْنَهُمْ ... فَأَنْتَ بِفَضْلِ اللهِ أَغْنَى وأَيْسَرُ

وإذا علم أنَّ الذُّنوب مقدَّرةٌ على العباد[٢]، وكذلك الابتلاء ـ لم يُعَيِّرِ الذّين أخطئُوا خطَأً غير مُتعمَّدٍ، ولن يَشْمَتَ بِمَنِ ابتلاه اللهُ.

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... نَوَائِبَهُ[٣]، أناخ بآخَرِينَا
فقلْ للشَّامتين[٤] بنا: أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامتون كما لَقِينا

وإذا أيقنت المرأة أنَّ لها ما قُدِّر لها، حسنتْ أخلاقها، ولم تسأل زوجها طلاق ضُرَّتها[٥].

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر: ٢١).
- وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة المنافقون: ٧).

(٢) أخرج البخاريُّ (٣٤٠٩) و (٤٧٣٦) و (٤٧٣٨) و (٦٦١٤) و (٧٥١٥)، ومسلمٌ (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنت أبونا، أنت خَيَّبْتَنَا، وأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجنَّةِ. فقال له آدمُ: أنت موسى، اصطفاك اللهُ بكلامِهِ، وخَطَّ لك بيدِهِ، أَتَلُومُني عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ الله قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَني بأربعينَ سَنَةً؟!». فقال النبي ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى».

(٣) «نوائب الدَّهر»: نوازله ومصائبه، والمفرد نائبة.

(٤) «الشَّماتة»: الفَرَحُ ببليَّة العدوِّ وحزنه.

(٥) أخرج البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (١٢٤٠) و (٢٧٢٣) و (٥١٥٢) و (٦٦٠١)، ومسلمٌ (١٤١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لامرأةٍ تسألُ طلاقَ أُخْتِهَا؛ لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا، فإنَّما لها ما قُدِّرَ لها».

هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلَا قَاصِرٍ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

وإذا واعد المرءُ رجلاً، وجلس بانتظاره، فحال بينه وبين الوفاء حائلٌ خارج إرادته، وجاء يشكو عُذْرَهُ إلى أخيه، فمن كان مؤمنًا بالقدر فسيرضى، ويسلم أنَّه ما فاته شيءٌ كتبه الله له، فحينئذٍ سَيُقِلُّ عتابَهُ ولَوْمَهُ، وتَثْرِيبَهُ عَلَى أخيه، وسيطيِّب خاطره، ويطمئنُ قلبه على ما قد فات، وهكذا في سائر أبواب الإيمان[1].

وإنما ذكرنا هنا مثالاً واحدًا ليتَّضح البيان.

بَيْنَا تَرَى الإنسانَ فيها مُخْبِرًا ... أَلْفَيْتَهُ خَبَرًا مِنَ الأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وأنت تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَارِ والأَكْدَارِ
ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ مِنَ الماءِ جَذْوَةَ[2] نَارِ

---

(١) انظر: «فقه الأخلاق والمعاملات بين المؤمنين» للشيخ مصطفى العَدَويِّ (٤/ ١٢).
(٢) «الجذوة»: القبسة من الشَّيء.

النَّظر في كِتاب الله تعَالى

كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ جمعَ مكارم الأخلاق خَيْرَ جمعٍ، ونظمها خَيْرَ نَظْمٍ، ما فرَّط اللهُ فيه من شيءٍ.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسراء: ٩).
وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصلت: ٤١-٤٢).

فمن أرادَ مكارم الأخلاق، فليعتمدْ على كتابِ الله، وسُنَّة رسول الله ﷺ، ويحاول جاهداً أنْ يتخلَّق بأخلاق القرآن، فقد كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن، كما وصفتْهُ بذلك زَوْجُهُ عائشة بنت الصِّدِّيق ﵂.

عن سَعْد بن هشام قال: قلتُ: «يا أُمَّ المؤمنينَ، أَنبئيني عَنْ خُلُقِ رسولِ الله ﷺ».
قالتْ: «أَلَسْتَ تقرأُ القرآن؟». قلتُ: «بلى». قالتْ: «فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ».
قال: «لقدْ هَمَمْتُ أَنْ أقومَ، ولا أسألُ أحداً عَنْ شيءٍ حتَّى أموتَ»[1].

قال الإمام ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ:

«مَنْ جَهِلَ معرفةَ الفضائل، فليعتمدْ على ما أمر اللهُ تعالى، ورسولُهُ ﷺ؛ فإنَّهُ يحتوي على جميع الفضائل»[2].

---

(١) رواه مسلمٌ (٧٤٦).
(٢) «الأخلاق والسِّير (ص١٧٦).

وقال الإمام السَّلفيُّ صديق حسن خان ـ يرحمه الله ـ بعد ذكر جُمْلَةٍ من الكتب التي سار فيها أصحابها لاكتساب مكارم الأخلاق ـ:

«وقَدْ قَضَتِ الشَّريعةُ المصطفويَّةُ حَقَّ علم الأخلاق، فلم تَدَعْ لأحدٍ مقالاً يقوله، وكلامًا يتكلَّمُ به، فالكتابُ والسنَّةُ يكفيان ـ لِمَنْ يُرِيْدُ إدْرَاكَ هذا العلم، والتَّحلِّي به عَنْ تلك الكتب المشار إليها، فإنَّ الصَّباحَ يُغْني عن المصباح»[1].

سَمِعْتُكَ ـ يا قرآنُ ـ واللَّيلُ واجمٌ[2] ... سَرَيْتَ[3] تَهزُّ الكَوْنَ، سُبْحَانَ مَنْ أسْرَى!

فَتَحْنَا بك الدُّنيا، فأشْرَقَ نُورُهَا ... فَسَلْ دَوْلَةَ الأخْبَارِ يَرْمُوكَ أو بَدْرَا

(١) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (١/ ٣٧).

(٢) «واجمٌ»: هادئٌ صامتٌ.

(٣) «سَرَيْتَ»: منَ السُّرَى، وهو السَّيْرُ لَيْلاً.

التَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ

النَّبيُّ ﷺ هو الأسوة الحسنة، الذي أمرنا اللهُ بالتَّأسِّي به في أقواله، وأفعاله، وأحواله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

فهذه الآية تؤكِّدُ اتِّباع النَّبيِّ ﷺ والاقتداء به، واعتبار ذلك الأصل الذي يجب للإنسان أنْ ينطلق منه لتصحيح أخلاقه، وتقويم سلوكه.

وقد امتنَّ اللهُ على عبده وخليله ﷺ بمكارم الأخلاق، وجمع فيه أشتاتَ الفضائل بتمامها، وأبعده عَنْ كُلِّ نقصٍ، ثُمَّ أثنَى عليه، ونَوَّه بذكر ما يتحلَّى به من مكارم الأخلاق.

قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤).

ووصفَتْهُ زوجُهُ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها بأصول مكارم الأخلاق عندما أخبرها بنزول الوحي عليه، ويقول: «**لَقَدْ خَشِيْتُ على نفسي**»، فقالتْ: «**كلاَّ، أَبْشِرْ فوالله، لا يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا؛ إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْري الضَّعيفَ، وتُعِيْنُ على نَوائبِ الحقِّ**»[1].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

ووصفَتْهُ زوجُهُ عائشةُ بنتُ الصِّدِّيق ﵄ بأنَّه كان خُلُقُهُ القرآنَ.

عن سَعْد بن هشام قال: قلتُ: «يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ». قالتْ: «أَلَسْتَ تقرأُ القرآن؟». قلتُ: «بلى». قالتْ: «فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآن»[(١)].

فانظر إلى ما وَصَفْنَهُ به نساؤه أقرب النَّاس إليه ﷺ من أصول مكارم الأخلاق، وَصَفَتْهُ خديجةُ وذلك قبل نزول القرآن، وَوَصَفَتْهُ عائشةُ بأنَّه كان خُلُقُهُ القرآنَ، نَعَمْ كان خُلُقُهُ القرآن؛ لأنَّهُ يحتوي على جميع الفضائل التي سار بها رسول الله ﷺ خيرَ سيرةٍ، وقام بها خير قيامٍ.

يا مُدَّعي حُبَّ طَهَ، لا تُخَالِفُهُ ▫▪▫ الخلفُ يُحرمُ في دُنْيا المُحِبِّينا

أَرَاكَ تَأْخذُ شيئًا مِنْ شريعتِهِ ▫▪▫ وتتركُ البعضَ تدوينًا وتهوينا

خُذْهَا جميعًا تَجِدْ خيرًا تَفُوزُ بِهِ ▫▪▫ أو فاطْرَحْهَا، وخُذْ رِجْسَ الشَّياطينا

فعلينا بالتَّأسِّي برسول الله ﷺ، وطاعته، وإدامة النَّظر في سيرته[(٢)] ﷺ؛ لنقتطف منها مكارم الأخلاق، ففي ذلك عزُّ الدُّنيا، وشرفُ الآخرة.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) لَعَلَّ أحسن كتابٍ في السِّيرة النبوية ـ من وجهة نظري ـ هو «زاد المعاد في هَدْيِ خير العباد» للإمام ابن القيِّم الجوزيَّة، وقد طُبع مؤخرًا طبعةً رائعةً في ستَّة مجلَّدات بتحقيق المحدِّث شعيب الأرناؤوط، فلو باع المرء ما يقتنيه من ملبوسٍ، ومركوبٍ، وأثاثٍ، واشترى هذا الكتاب ـ لما كان ذلك كثيرًا!

قال ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ:

«مَنْ أراد خيرَ الدُّنيا والآخرة، وحكمةَ الدُّنيا، وعدلَ السِّيرة، والاحتواءَ على محاسنِ الأخلاق كلِّها، واستحقاقَ الفضائل بأسْرِهَا ـ فَلْيَقْتَدِ بمحمَّدٍ ﷺ، وَلْيَسْتَعْمِلْ أخلاقه وسِيَرَهُ ما أمكنه، أعاننا اللهُ على الاتِّساء به بمنِّه، آمين»[1].

إذا كان هذا الجيلُ أتباعَ نَهْجِهِ
وقَدْ حَكَمُوا السَّادات[2] في البَدْوِ والحَضَرْ

فَقُلْ: كيف كانَ المُصْطفى وهو رَمْزُهُمْ
مَعَ نُورِهِ لا تُذْكَرُ الشَّمْسُ والقَمَرْ؟!

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٩١).
(٢) «السَّادات»: جَمْع سيِّد.

الدُّعَاء

الدُّعاء سببٌ عظيمٌ لنيل مكارم الأخلاق، فمن أراد مكارم الأخلاق فعليه بالدُّعاء، فهو أشرف وأكرم شيءٍ عند الله سبحانه!

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«ليس شيءٌ أكرمَ على الله مِن الدُّعاء»**[(١)].

والمسلم دعوته مستجابةٌ، فقد أمر اللهُ تبارك وتعالى! بالدُّعاء، ووعد بالإجابة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ (سورة غافر: ٦٠).

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«ما مِنْ رَجلٍ يَدْعُو اللهَ بدَعْوةٍ، ليس فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحمٍ. إلاَّ أعطاهُ بها إحدى ثلاثِ خِصَالٍ: إمَّا أَنْ يُعَجِّلَ له دعوتَهُ، أو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخيرِ مِثْلَهَا، أو يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا»**. قالوا: **«يا رسولَ الله، إذًا نُكْثِر»**. قال: **«اللهُ أكثر»**[(٢)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمدُ (٢/ ٣٦٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٣٩٢).

(٢) رواه أحمدُ في «المسند»، وصحَّحه الحاكم والذَّهبيُّ، ووافقهما الألبانيُّ، انظر: «شرح العقيدة الطَّحاويَّة» بتحقيقه (٦٥٦)، وقد رواه التِّرمذيُّ (٣٦٠٤) من حديث أبي هريرة، إلاَّ أنَّه قال في الخَصْلَة الثَّالثة: «وإمَّا أَنْ يُكفِّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بقَدْرِ ما دَعَا»، وهو منكرٌ بهذا اللَّفظ، قاله الألبانيُّ، وقد خرَّجه في «الضَّعيفة» (٤٤٨٣)، وذكر تحته ما صحَّ منه كحديث أبي سعيدٍ هذا.

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يَزَالُ يُسْتَجابُ للعبدِ، ما لَمْ يَدْعُ بإثمٍ، أو قطيعةِ رَحِمٍ، ما لم يستعجِلْ». قيل: «يا رسولَ اللهِ، ما الاستعجالُ؟». قال: «يقولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وقَدْ دَعَوْتُ، فلم أَرَ يستجيبُ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عندَ ذلك، ويَدَعُ الدُّعاءَ»[(١)].

وعن سَلْمَانَ الفارسيِّ رضي الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحيي مِنْ عَبْدِهِ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ إليه أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا[(٢)]»[(٣)].

وَأَفْنِيَـةُ الملوكِ مُـحَـجَّـبَـاتٌ ... وبابُ اللهِ مَبْـذُولُ الفِنَاءِ

فما أَرْجُو سِوَاهُ لكَشْفِ ضُرِّي ... ولا أَفْـزَعُ إلى غَيْرِ الدُّعَاءِ

ولا أَدْعُو إلى اللأْوَاءِ[(٤)] كَهْفًا ... سِوَى مَنْ لا يَصُمُّ عَنِ الدُّعَاءِ

وقد كان النَّبيُّ ﷺ كـثير الضَّراعة إلى ربِّه أَنْ يرزقـه حُسْنَ الخُلُق، فكان يقول في دعاء الاستفتاح من صلاة اللَّيل: «اللَّهُمَّ، اهدني لأَحْسَنِ الأخلاقِ، لا يهدي لأَحْسَنِهَا إلاَّ أنت، واصْرِفْ عنِّي سيئَهَا، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَهَا إلاَّ أنت»[(٥)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٧٣٥)، وهو عند البخاريِّ بلفظ: «يُسْتَجابُ لأَحَدِكُمْ ما لم يَعْجَلْ، يقول: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي». والاستحسارُ: الإعياء والانقطاع عن الشَّيء، والمراد هنا أنَّه ينقطع عن الدُّعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٩). أي لا ينقطعون عنهـا. وفيه طلب دوام الدُّعاء، وعدم استبطاء الإجابة، وهذا لا ينافي الدُّعاء بتعجيل الطَّلَب، فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ في حديث الاستسقاء قوله: «عاجلاً غَيْرَ رَائِثٍ»، صحيحٌ رواه ابن ماجَهْ (١٢٦٩)، وقوله: «غير رائث»: أي غير آجل. والاستعجال المنهيُّ عنه هو المذكور في الحديث، وهو قوله: «دَعَوْتُ، فلم يُسْتَجَبْ لي».

(٢) «صِفْرًا»: فارغةً.

(٣) رواه أبو داودَ (١٤٨٨)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥٦)، وابن مـاجَهْ (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبـانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٥٧).

(٤) «اللأواء»: الشِّدة والمحنة.

(٥) رواه مسلمٌ (٧٧١).

وورد أنَّه ﷺ كان يدعو بهؤلاء: «**اللَّهُمَّ، جَنِّبني مُنكَرَاتِ الأخلاقِ، والأعمالِ، والأهواءِ، والأدْواءِ**»[(١)].

فأكثر - أخي الحبيب - في كُلِّ وقتٍ وحينٍ مِنَ الدُّعاء والضَّراعة إلى ربِّك أَنْ يَهْدِيَكَ لأَحْسَنِ الأخلاقِ، ولاسيَّما في اللَّيل؛ عَلَّك أَنْ تُصَادف ساعةَ الإجابة، والتَّي تتأكَّد في ثُلثِ اللَّيل الآخر وقت النُّزول الإلهيِّ إلى السَّماء الدُّنيا.

عن جابر ﷺ قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ في اللَّيل لَسَاعةً، لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مسلمٌ يسأل اللهَ خيراً مِنْ أَمْرِ الدُّنيا والآخرةِ، إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ، وذلك كُلَّ ليلةٍ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فيقولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ ومَنْ يسأَلُني فَأُعْطِيَهُ؟ ومَنْ يستغفرُني فَأَغفرَ لَهُ**»[(٣)].

قُلْتُ: باللَّيْلُ، هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ ... عَامِرٌ بالحديثِ والأَسْرَارِ؟

قالَ: لَمْ أَلْقَ في حياتي حديثاً ... كحديثِ الأحبابِ في الأَسْحَارِ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٣٢)، وابن حِبَّانَ في «الصَّحيح (٢٤٢٢) عن عمٍّ زياد بن عِلاقةَ قُطْبَةَ بن مالكٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٩٨).
(٢) رواه مسلمٌ (٧٥٧).
(٣) رواه البخاريُّ (١١٤٥)، (٦٣٢١) و(٧٤٩٤)، ومسلمٌ (٧٥٨).

العَمَل الصَّالِح

العمل الصَّالح هو الأساس الذي يقوم عليه علم الأخلاق، والسَّبب الأعظم لتيسير الأمور، والحصول عَلَى البركات في الأخلاق، والأعمال، والأعمار، فالمُتَدَيِّنُ تديُّنًا صحيحًا يجتهد في العمل بطاعة الله، ويجتنب معاصيه، ويتقرَّبُ إلى الله بالعبادات ومنها الأخلاق، بَلْ إنَّ الأخلاق أعظمها أجرًا، وأيسرها مؤنةً، وأحمدها عاقبةً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ (سورة مريم:٩٦). أي مَوَدَّةً في قلوب عباده على قول كثير من المفسِّرين.

قال عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعديُّ ـ يرحمه الله ـ في تفسير هذه الآية:

«هذا مِنْ نعمه على عباده، الذين جمعوا بينَ الإيمان والعمل الصَّالح، أَنْ وعدهم أنَّه يجعل لَهُمْ وُدًّا، أي: محبَّةً ووِدادًا في قلوب أوليائه، وأهل السَّماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وُدٌّ، تيسر لهم كثيرٌ من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات، والدَّعوات، والإرشاد، والقَبُول، والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصَّحيح: **«إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً، نادى جبريلَ: إنِّي أُحبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبريلُ، ثُمَّ يُنادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيحبُّه أهلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوْضَعُ له القَبُول في الأَرْضِ»** (١).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٩)، (٦٠٤٠) و (٧٤٨٥)، ومسلمٌ (٢٦٣٧) عن أبي هريرة.

وإنَّما جعل اللهُ لهم وُدًّا؛ لأنَّهم ودُّوه، فودَّدهم إلى أوليائه وأحبابه»[١].

كَـمـا الـطَّـاعـات تـبـدلُـكَ الـدَّراري ▫▪▫ وتـجـعـلُـكَ الـقـريـبَ، وإنْ بَـعُـدْتَـا
وتنشـرُ عَنْكَ في الدُّنيـا جـمـيـلاً ▫▪▫ وتَلْقَى البِرَّ فـيـهـا حـيـثُ شِـئْـتَـا
وتمشي في مَنَاكِـبِـهَـا[٢] عـزيزًا ▫▪▫ وتَجْني الحَمْدَ فيما قَدْ غَـرَسْـتَـا[٣]

فالإيمان بالله، والعمل الصَّالح يبعثان على مكارم الأخلاق، وهما النِّظام الدَّاخليُّ الذي يُقَوِّمُ أخلاقَ المرءِ ويُوَجِّهُهَا.

وإنِّي لَيُثْنِيْني عَنِ الجَهْلِ والخَنَا[٤] ▫▪▫ وعَنْ شَتْمِ ذي القُرْبى ـ خلائقُ أربعُ:
حَـيَـاءٌ، وإسـلامٌ، وتـقـوى، وطاعـةٌ ▫▪▫ لـربِّي، ومَـثـلي مَنْ يضـرُّ وينفعُ[٥]

وقد تجد المتديِّنَ تَدَيُّنًا صحيحًا ـ إذا كان على عقيدةٍ صحيحة ـ لا يصدر منه ما يثلم مروءته، ويَشِينُ أخلاقه في أغلب الأحيان، ألا ترى أنَّ المتديِّنَ إذا عمل ما يخرم مروءته اتَّجهت إليه الأنظار، واستغرب النَّاسُ أنْ يصدر ذلك منه، أمَّا غير المتديِّن فكما قيل: **«الشَّيء من مَعْدنه لا يُسْتَغْرَبُ»**.

ولله درُّ القائل:

لـيـس دُنْـيَـا إلاَّ بـديـنٍ، ولَـيْـ ▫▪▫ ـسَ الـدِّيـنُ إلاَّ بمكارمِ الأخـلاقِ[٦]

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحْمَن» (ص١٠٥).
(٢) **«مناكب الدُّنيا»**: أرجاؤها ونواصيها.
(٣) «عشرون قصيدة في الزُّهْد» جمع محمَّد سيِّد أحمد (ص٥٣)، و«الشِّعر» للألبيري.
(٤) **«الخَنَا»**: الفُحْش في النُّطق.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٠ - ٢٥١).
(٦) «جامع العلوم والحكم» لابن رجبٍ الحنبلي (ص٣٩٩).

وقال ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ: «لا مروأةَ لِمَنْ لا دينَ لهَ»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «ثِقْ بالمتديِّن، وإنْ كان على غيرِ دينِكَ، ولا تثقْ بالمستخفٍّ، وإنْ أظهر أنَّه عَلَى دينك»[٢].

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨).

(٢) المرجع السابق (ص١٠٠). وهنا فائدةٌ تناسب هذا المقام:

سئِلَ ابن عثيمين ـ يرحمه الله ـ: «يورد كثيرٌ من النَّاس أنَّ أهلَ الغرب أحسن أخلاقًا منَّا في تعاملهم، وبيعهم، وشرائهم، بينما تجد الغشَّ، والكذب، وإنفاق السِّلعة بالحَلِفِ الكاذب منتشرًا بين صفوفنا ـ نحن المسلمين ـ؟!».

فقال: «هم لا يفعلون ذلك، لأنَّهم كاملو الأخلاق؛ لكن لأنَّهم أصحاب مادَّة، ويرون من أكبر الدِّعاية لتنمية أموالهم أنْ يُحسنوا المعاملة من أجل أن يجذبوا الأعداد الكبيرة، وإلا فهُم كما وصفهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة: ٦). ولا أظنُّ أحدًا أصدق وصفًا من الله عزَّ وجلَّ للكافرين، فإنَّهم شَرُّ البَرِيَّة، وكيف يُرْجَى خيرٌ مقصودٌ لذاته من قوم وصفهم اللهُ بأنَّهم شرُّ البريَّة؟!، لا أعتقد أنْ ذلك يكون أبدًا، لكن ما يوجد فيهم من الصِّدق، والبيان، والنُّصح في بعض المعاملات ـ إنَّما هو مقصودٌ لغيره عندهم، وهو الحصول على المادَّة والكسب، وإلاَّ فمن رأى ظلمهم، وغشمهم، واستطالتهم عَلَى الخَلْق فيمواطن كثيرة ـ عرف مصداق قوله تعالي: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة: ٦). وأمَّا بالنسبة لما وقع مِنْ كثيرٍ من المسلمين، فإنَّ هؤلاء المسلمين نقصوا من إسلامهم وإيمانهم بقدر ما خالفوا الشَّريعة فيه من هذه المعاملات». إلى أنْ قال: «لابُدَّ أنْ نُبَيِّنَ للنَّاس أنَّ من كمال الدِّين كَمَال الخُلُقِ، كما صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهُمْ أخلاقًا»، وعَلَى هذا فكُلُّ مَنْ كان ناقصَ الخُلُقِ فهو ناقص الدِّين؛ فكمال الدِّين بكمال الخُلُق؛ ولذلك فإنَّ تأثير كامل الخلق على غيره من جلبه إلى الإسلام وإلى الدِّين ـ أكبرُ من تأثير ذي الدِّيانة السَّيِّيء الخُلُق، فإذا وُفِّقَ مَنْ كان قويًا في العبادة إلى كمال الخُلُق، كان ذلك أحسنَ وأكملَ». عن كتاب مكارم الأخلاق لابن عثيمين (ص٥٠-٥٢) باختصار.

وقصد ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ أنَّ هناك أممًا عندها قِيَمٌ موروثةٌ، تغذِّيها بقايا الخير من دينها، دلَّ على ذلك عَرَب الجاهليَّة، كانوا من أحسن الأمم أخلاقًا؛ لأنَّ عندهم بعض مكارم الأخلاق، وهي التي ورثوها من شريعة إبراهيم عليه السلام، وكانوا قد ضلُّوا بالكفر عن كثير منها، فبعث اللهُ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ؛ ليتمِّمَ محاسنها، ويُبيِّنَ ما ضلُّوا عنه، وما قضى به في شرعه، فكان في مستهل دعوته إلى التَّوحيد يأمر بمكارم الأخلاق.

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: **«إنَّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ مَكارِمَ ـ وفي رواية: صَالحَ ـ الأخلاقِ»**[1].

وقال أبو ذرٍّ لأخيه لمَّا بلغه مَبْعَثُ النَّبيِّ ﷺ: **«اركبْ إلى هذا الوادي، واسْمَعْ مِنْ قولِهِ»**، فَرَجَعَ، فقال: **«رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأخلاقِ»**[2].

وإذا بَحَثْتَ عَنِ التَّقِيِّ وَجَدْتَهُ ... رَجُلاً يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفِعَالِ
وإذا اتَّقَى اللهَ امْرُؤٌ وأَطاعَهُ ... فَيَداهُ بَيْنَ مَكارِمٍ ومَعالي
وعلى التقيِّ ـ إذا تَراسَخَ في التُّقَى ـ ... تاجانِ: تاجُ سَكِينَةٍ وجَمالِ
وإذا تَناسَبَتِ الرِّجالُ فَما أَرَى ... نَسَبًا كَصالحِ الأعْمالِ

---

(١) رواه أحمدُ في «المسند» (٢/٣١٨)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٦١٣٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٢٣٤٩)، والصَّحيحة (٤٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٢٢)، (٣٨٦١)، ومسلمٌ (٢٤٧٤).

الرُّفْقَةُ الصَّالحة

الرُّفقة الصَّالحة من أعظم الأسباب المعينة على محاسن الأخلاق. وذلك لأنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ يسرق من الطَّبع الخير والشَّرَّ، فمن كان جليسُهُ صالحًا، استفاد منه صلاحًا وأخلاقًا، ويؤيِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: **«إنَّما مَثَلُ الجليس الصَّالح، وجليس السُّوءِ كحامل المِسك، ونافخ الكِير[1]، فحامل المسك إمَّا أنْ يُحْذيَك[2]، وإمَّا أنْ تَبْتَاعَ منه[3]، وإمَّا أنْ تجدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحرقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تجدَ ريحًا خبيثةً»**[4].

وقوله ﷺ: **«الرَّجلُ على دين خَليلِه[5]؛ فَلْيَنْظرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ»**[6].

ومعنى الحديث أنَّ الإنسانَ في الدِّين والأخلاق على قدر من يُصَاحب، فلينظرْ مَنْ يُصَاحب، فإنْ صَاحبَ الصَّالحينَ صار منهم، وإنْ صَاحبَ سِوَاهم صار مثلَهم، كما قيل:

---

(١) «الكِير»: بكسر الكاف: زِقٌّ ينفخ فيه الحدَّادُ.

(٢) «يُحْذيك»: يُعْطيك.

(٣) «تبتاع منه»: تشتري منه.

(٤) رواه البخاريُّ (٢١٠١) و (٥٥٣٤)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعريِّ.

(٥) «الخليل»: هو الذي أحبَّك، وتحبُّه حبًّا جمًّا، حتَّى يتخلَّلَ حبُّه جميعَ البدن، كما قال بشَّار:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وبِهِ سُمِّيَ الخليلُ خَلِيلاً

(٦) رواه أبو داودَ (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، عن أبي هريرة، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٥٤٥)، و«الصحَّحيحة» (٩٢٧).

وقديمًا قيل: «**قُلْ لي: مَنْ تُصَاحِبُ؟، أُخْبِرْكَ مَنْ أنت**».

وفي ذلك يقول الشاعر:

أنت في النَّاس تُقَاسُ ... بالذي اخْتَرْتَ خَلِيْلا
فاصْحَبِ الأخْيَارَ تَعْلُو ... وتَنَلْ ذِكْرًا جَمِيْلا[1]

فتبيَّن ممَّا سبق أنَّ أثر الصَّدِّيق في صديقه خطيرٌ وكبيرٌ، ومِنْ ثَمَّ كان لزامًا على الإنسان أن ينتقي أصدقاءه، وأن يختبر معدنهم، حتى يأنس إلى أصالته، فلا يُصاحبُ إلاَّ قرناء الخير؛ لأنَّهم يعينونه على أداء الواجبات، وحفظ الحقوق، ويبعدونه عن السُّوء، واقتراف الآثام، وبالجملة فهم يقودونه إلي النَّجاح في الدُّنيا، والفلاح في الآخرى، فهو - وإنْ لم يعمل عملهم - واحدٌ منهم بمحبَّته وصداقته لهم.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رَجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**يا رسولَ الله، كيف تقولُ في رجلٍ أحبَّ قومًا، ولمْ يلحقْ بهم؟**». فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أحبَّ**»[2].

أمَّا قُرناء السُّوء فإنَّهم يكونون وبالاً عليه، وهل منَعَ أبا طالبٍ من التَّلفُّظ بكلمة التَّوحيد التي بها نجاته وفلاحه - إلاَّ الرُّفقةُ السَّيِّئةُ؟!.

إنَّ رُفَقاء السُّوء يضعُون رفيقهم - دائمًا - على شَفَا جُرُفٍ هارٍ، وسرعان ما ينهار به - والعياذ بالله - في نار جهنَّم، فيقرع حينها سنَّ النَّدم، ولاتَ سَاعةَ مَنْدَمٍ، وصدق الله القائل: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ**

(١) «نفح الطيب» للمقري (٨/ ٦٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٦١٦٨) و (٦١٦٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٠).

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩).

وهناك ستُّ صفاتٍ ذكرها أهـل العلم، ينبغي توافـرها فيمن تؤثر صحبته ومحبَّته:

أوَّلها - أنْ يكون مؤمنًا، فعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه أنَّه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تُصاحِبْ إلاَّ مؤمنًا، ولا يأكُلْ طَعَامَ؛ إلاَّ تقيٌّ»[1].

ثانيها - أنْ يكونَ من ذوي العقـول الرَّاجحة، فالعقـل رأس المال، ولا خيرَ في صحـبة الأحمق. لأنَّ الأحمقَ يُـوردُ نَفْسَهُ وغيـرَهُ مواطنَ الهلاك والفـساد، ويركبُ رأسَهُ، ولا ينصاعُ للرَّأي السَّديد، ويغضب لأتفه الأسباب، وشرُّ الأصدقاء مَنْ تكلَّفَ لك، وأحرجك إلى اعتذارٍ، وألجأك إلى مُدَاراةٍ.

قـال الشَّـاعـرُ:

لا تَيْـأسَنَّ مِنَ اللَّبِـيبِ وإنْ جَـفَـا[2] ▪▪▪ واقطعْ حِـبَالَكَ مِنْ حِـبالِ الأحْـمَقِ

فـعَـداوةٌ مِنْ عـاقلٍ مُـتَـجَـمِّلٍ ▪▪▪ أولى وأسْلَمُ مِنْ صَـداقـةِ أخْـرَقِ[3]

قال ابن القيِّم - يرحمه الله - في سياق كلامه عمَّن مخالطته كالدَّاء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه -:

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٨٣٢)، والتِّرمذيُّ (٢٣٩٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٣٤١).
(٢) «جفا»: هَجَرَ.
(٣) «جواهر الأدب» (ص٧٢٣).

«ومنهم مَنْ مخالطته حُمَّى الرُّوح، وهو الثقيلُ البغيضُ العقل الذي لا يحسن أن يتكلَّمَ فيفيدك، ولا يحسن أن يُنْصِتَ فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعُها في منزلتها، بل إنْ تكلَّم فكلامه كالعِصَا تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه، وفرحه به، فهو يُحَدِّثُ من فِيْه كلَّما تحدَّث، ويظنُّ أنَّه مسكٌ يطيب به المجلس، وإنْ سكَتَ فأثقلُ من نصف الرَّحى[١]. العظيمة التي لا يُطاقُ حملها، ولا جرُّها على الأرض»[٢].

ويذكر عن الشَّافعيِّ أنَّه قال: «ما جلَسَ إلى جانبي ثقيلٌ إلاَّ وجدتُ الجانبَ الذي هو فيه أَنْزَلَ من الجانبِ الآخرِ»[٣].

قال الشاعرُ:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ▫▪▫ إلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[٤]

ثالثهما ـ أنْ يكون حَسَنَ الخُلُقِ، طَيِّبَ السَّمْتِ[٥]، فلا خيرَ في صحبة من يغلبه الغضبُ، أو الكذبُ، أو البُخْلُ، أو الجُبْن، أو أطاع هَوَاه، ولم يتهذَّبْ بالأخلاق الفاضلة؛ لأنَّ أخلاقه سُرْعَان ما تنتقل إلى مَنْ يصاحبه، فالعَدْوى قانونها الذي يَسْري في الأخلاق كما يَسْرِي في الأجسام.

---

(١) «الرَّحى»: حجر الطَّاحون، جمعها أرحاء.

(٢)، (٣) «مدارج السَّالكين».

(٤) «جواهر الأدب» (ص٧٢٣).

(٥) «السَّمْت»: الهيئة والمظهر.

قال صالح بن عبد القدُّوس:

وَاحْذَرْ مُؤَاخَاةَ الدَّنيِّ؛ فإنَّهُ ▪▪▪ يُعْدِي كما يُعْدِي الصَّحيحَ الأَجْرَبُ

واخترْ صَديقَكَ، واصْطَفِيْهِ تَفاخُرًا ▪▪▪ إنَّ القَرينَ إلى المُقارِنِ يُنْسَبُ

ودَعِ الكَذُوبَ، ولا يَكُنْ لَكَ صاحبًا ▪▪▪ إنَّ الكَذوبَ لَبِئْسَ خِلاًّ يُصْحَبُ[(١)]

وقال الشَّافعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

صَافِ الكِرامَ، فخيرُ مَنْ صَافَيْتَهُ ▪▪▪ مَنْ كانَ ذا أَدَبٍ، وكانَ ظَرِيفَا

واحذرْ مُؤاخاةَ اللَّئيمِ؛ فإنَّهُ ▪▪▪ يُبْدي القَبيحَ، ويُنْكِرُ المَعْروفا[(٢)]

وقال ـ أيضًا ـ:

واجعلْ مِنْ قَرينِكَ مَنْ رَضِيْتَ فِعَالَهُ ▪▪▪ واحذرْ مُقارَنَةَ اللَّئيمِ الشَّائِنِ

كَمْ مَنْ قَرينٍ شَائِنٍ لِقَرينِهِ[(٣)] ▪▪▪ ومُهَجِّنٍ[(٤)] منْهُ لِكُلِّ مَحَاسِنِ[(٥)]

رابعها ـ ألاَّ يكونَ حريصًا على الدُّنيا؛ لأنَّ صُحْبَةَ الحريصِ على الدُّنيا تُوَرِّثُ الحِرْصَ؛ لأنَّ الطِّباع مجبولةٌ على التَّشبُّه والاقتداء، فالطَّبعُ ـ كما سبق ـ لِصٌّ يسرق من الطَّبع الخيرَ والشَّرَّ، وسَرِقتُهُ للشَّرِّ أكثرُ وأسرعُ من سرقته للخير، ألا ترى ـ مثلاً ـ أنَّ غيرَ المُدَخِّن سُرْعان ما تنتقل إليه عَدْوى التَّدخين من المصاب بها إذا جالسه، ويَنْدُرُ أن يقعَ العكسُ.

---

(١) «جواهر الأدب» (ص٦٦٩).

(٢) المرجع السابق (ص٧١٩).

(٣) «شائن»: اسم فاعل من شَانَ يَشِيْنُ، وشائن لقرينه: أي يحطُّ من قَدْر صاحبه.

(٤) «مُهَجِّن»: مُقَبِّح.

(٥) «جواهر الأدب» (ص٧٢٠).

فعلى المرء أن يترك مُجالسة طُلاَّب الدُّنيا، ويُجالس الزُّهَّاد والعلماء، فهؤلاء مخالطتهم ـ كما قال ابن القيِّم ـ كالغذاء.

قال حكيمٌ لابنه: «يا بُنَيَّ، جالسِ العلماءَ، وزاحِمْهُمْ بركُبَتِكَ؛ فإنَّ القلوبَ لَتَحْيَا بالحكمةِ، كما تحيا الأرض الميِّتةُ بوابلِ المطر».

خامسها ـ أنْ يكونَ عَدْلاً غيرَ فاسقٍ؛ لئلاَّ يَجُرَّك إلى فِسْقِه، فقد قيل: «وَدَّ صاحبُ الفِسْقِ والمعصيةِ لو فَسَقَ النَّاسُ جميعًا؛ لئَلاَّ يُصْبحَ نَشازًا بيْنَهُمْ».

ولأنَّ صُحْبَةَ الفاسق تُهَوِّنُ أمر المعصية على النَّفس، وتُبْطِلُ نُفْرَةَ القلب عنها، ومن لا يخاف الله لا تُؤْمَن غائِلَتُهُ[1]، ولا يُوثق بصداقته؛ لأنَّه يتغيَّرُ بتغيُّر الأغراض والأحوال.

سادسها ـ أنْ يكون غيرَ مبتدعٍ؛ يُلْقِي عليك الشُّبَهَ، فيتشرَّبها قلبُكَ، والقلوبُ ـ كما يقول العلماءُ ـ ضعيفةٌ، والشُّبَهُ خَطَّافَةٌ.

وهذه الصِّفة من أهمِّ الصِّفات في الصَّديق؛ فإنَّ في مخالطة المبتدع الهلكَ كُلَّهُ.

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ فيمن مخالطته الهلكُ كُلُّهُ: «ومخالطته بمنزلة السُّمِّ، فإن اتَّفقَ لآكله ترياقٌ، وإلاَّ فأحسن اللهُ إليه العزَاءَ، وما أكثر هذا الضَّرْبَ[2] في النَّاسِ ـ لا كَثَّرَهُمُ اللهُ! ـ وهم أهلُ البدع والضَّلالة، الصَّادُّون عن سُنَّة رسول الله ﷺ ويَبْغُونَها عِوَجًا، فيجعلون البدعةَ سُنَّةً، والسُّنَّة بدعةً، والمعروفَ مُنْكَرًا، والمنكرَ معْرُوفًا!.

---

(١) «الغائلة»: الشَّرُّ والدَّاهية، جمعها غَوَائل.
(٢) «الضَّرْب»: النَّوع، جمعه أضْرَابٌ، وضُرُوبٌ.

إنْ جَرَّدْتَ التَّوحيدَ بينهم، قالوا: تَنَقَّصْتَ جَنابَ الأولياء والصالحين، وإنْ جَرَّدتَ المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أَهْدَرْتَ الأئمَّـةَ المتبوعين، وإنْ وَصَفْتَ اللهَ بما وصف به نفسه، ، وبما وَصَفَهُ به رسولُهُ من غير غُلُـوٍّ ولا تقصيرٍ ـ قالوا: أنت مِنَ المُشَبِّهِيْنَ، وإنْ أمرتَ بما أمر اللهُ به ورسولُهُ من المعروف، ونَهَـيتَ عمَّا نهى اللهُ عنه ورسولُهُ من المنكر ـ قالوا: أنت من المُفتنين، وإنِ اتَّبعْتَ السُّنَّةَ، وتركْتَ مـا خالفهما، قالوا: أنت من أهل البدع المضلِّين، وإن انقطعتَ إلى الله تعالى، وخلَّيتَ بينهم وبَيْنَ جـيفةِ الدُّنيا ـ قالوا: أنت من الملَبِّسين، وإنْ تركتَ ما أنت عليه، واتَّبعتَ أهواءَهُم، فأنت عندَ اللهِ من الخاسرين، وعندَهم من المنافقين.

فالحَزْمُ كُلُّ الحَزْمِ التـماسُ مرضاة الله تعالى ورسوله بإغـضابهم، وألاَّ تشتغلَ بإعتابهم، ولا باسـتعتابهم، ولا تُبالِ بذمِّـهم، ولا بغضبهم؛ فإنَّه عَـيْنُ كَمَالِكَ، كما قال:

وإذا أَتَتْـكَ مَـــذَمَّـــتي مِنْ نـاقِصٍ ❊ فَـهي الشَّـهَــادةُ لي بأنِّي فــاضـلُ

وقـالَ آخَـرُ:

وقـــد زادني حُـبًّــا لـنفـسي أنَّني ❊ بـغيضٌ إلى كُلِّ امْرِيءٍ غَيْرِ طَائِلِ [(١)]

فعليك ـ أخي الحبيب ـ أن تراعي هذه الصِّفات السِّتَّ فـيمن تتَّخِذَهُ صديقًا، ولا تتساهل في واحدةٍ منها.

---

(١) «مدارج السَّالكين».

قال أبو سُلَيمانَ الدَّارانيُّ ـ يرحمه الله ـ.

«لا تَصْحَبْ إلاَّ أَحَدَ رجلين: رجل تَرْتَفِقُ به في أمـر دُنْيَاكَ، أو رجل تزيدُ معه، وتنتفعُ به في أمرِ آخرتِكَ، والاشتغالُ بغير هَذَيْنِ حُمقٌ كبيرٌ».

وقال ابن المُقَفَّع:

«على العاقل ألاَّ يُخَادن[١]، ولا يُصَاحب، ولا يُجَاور من النَّاس ما استطاع، إلاَّ ذا فَضْل في العلم، والدِّين، والأخلاق؛ فيأخذ عنه، أو موافقًا له على إصلاح ذلك؛ فيؤيِّد مـا عنده، وإنْ لم يكن عليه فَضْلٌ؛ فإنَّ الخصالَ الصَّـالحة من البرِّ[٢] لا تحيا، ولا تُنَمَّى إلا بالموافقين والمؤيِّدين، وليس لذي الفَضْل قريبٌ ولا حميمٌ أقرب إليه مِمَّن وافقه على صـالح الخصال، فزاده وثبَّته؛ ولذلك زَعَمَ بعضُ الأوَّلين أنَّ صُحْبَـةَ بليدٍ نشأ مع العلماء أحبُّ إليهم من صُحبَة لبيبٍ نشأ مع الجُهَّال»[٣].

وقال ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ:

«مَنْ طلب الفـضائل لم يُسَـاير إلاَّ أَهْلَهَا، ولم يُرافقْ في تلك الطَّـريق إلاَّ أكرمَ صـديق من أهل المواساة، والبـرِّ، والصِّـدق، وحُسْنِ العـشرة، والصَّـبر، والوفـاء، والأمـانة، والحلْم، وصـفاء الضَّـمـائر، وصحَّـة المودَّة. ومَنْ طلب الجـاه، والمال، واللَّذات، لم يُسَـايرْ إلاَّ أمثالَ الكلاب الـكَلِبَة[٤]، والثَّعـالب الخلبة[٥]، ولم يُرَافقْ في تلك الطَّريق إلاَّ كُلَّ عَدُوٍّ في المعتقد، خبيث الطَّبيعة»[٦].

---

(١) «يُخَادن»: يُصَادق.

(٢) «البرُّ»: الطَّاعة، والصَّـلاح، والصِّدق، وقد يُرَادُ به الأخلاق كمـا في الحديث: «**البـرُّ حُسْنُ الخُلُق**». رواه مسلمٌ (٢٥٥٣) عَنِ النَّواس بن سمعانَ الأنصاريِّ.

(٣) «الأدب الصَّغير، والأدبُ الكبير» (ص٢٠).

(٤) «الكلاب الكَلِبَة»: هي الَّتي أُصيبتْ بداء الكلب، وهو السُّعَار.

(٥) «الثعالب الخلبة»: هي المخادعة التي تسلك سلوك المكر والخديعة؛ لتظفر بحاجتها.

(٦) «الأخلاق والسِّير» (ص٩٢).

وما أجمل ما قاله أمين الدِّين:

عَلَيْكَ بأربابِ الصُّدورِ، فمن غَدا ... جليسًا لأرباب الصُّدورِ تَصَدَّرا

وإيَّاك أَنْ تَرْضَى بصُحْبَةِ ساقطٍ ... فتَنْحَطَّ قدرًا مِنْ عُلاك، وتُحْقَرا

ولعلَّ من أجمل الوصايا في اختيار الرَّفيق الصَّالح وصيَّة عَلْقَمَةَ لابنه، حيثُ قال فيها:

«يا بُنَيَّ، إذا عَرَضَتْ لَكَ إلى صُحْبَةِ الرِّجال حاجةٌ، فاصحبْ مَنْ إذا خَدَمْتَهُ صَانَكَ[1]، وإنْ صَحِبْتَهُ زانَكَ[2]، وإنْ قَعَدَتْ بك مُؤْنَةٌ[3] مَانَكَ، اصحبْ مَنْ إذا مَدَدْتَ يَدَكَ بخيرٍ مَدَّها، وإنْ رأى منك حسنةً عَدَّها، وإنْ رأى سيِّئةً سَدَّها، اصحبْ مَنْ إذا سَأَلْتَهُ أعطاك، وإنْ سكتَّ ابتداك، وإنْ نَزَلَتْ بك نازلةٌ[4] وَاسَاكَ، اصحبْ مَنْ إذا قُلْتَ صَدَّق قَوْلَكَ، وإنْ حاولْتَ أمرًا آزرَكَ، وإنْ تَنَازَعْتُما آثَرَكَ».

ثم قال:

إنَّ أخاكَ الحقَّ مَنْ كانَ معكْ ... ومَنْ يَضُرُّ نفسَهُ لِيَنْفَعَكْ

ومَنْ إذا رَيْبُ الزَّمانِ[5] صَدَعَكْ[6] ... شَتَّتَ فيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

(١) «صانك»: حفظك.

(٢) «زانك»: احترمك وقدَّرك.

(٣) «مؤْنة»: حاجة، وتجمع على مُؤَن كَحُجَّة وحُجَج.

(٤) «نازلة»: مُصيبة، وتجمع على نوازل.

(٥) «رَيْبُ الزَّمان»: مصائب وحوادث الدَّهر.

(٦) «التَّصدُّع»: التَّشقُّق، والمراد تأثير حوادث الدَّهر وإصابتها للمرء.

المُحَاسَبَة

لابُدَّ للمرء من محاسبة نفسه، وإيقافها عند عيوبها، فإن وقعت في سيِّء الأخلاق استدركها، وتعاهدها، وحَمَلها على جميل الأخلاق، وأن يجعل ذلك وقت اختلائه بنفسه في اللَّيل؛ لأنَّ اللَّيل أروح للخاطر، وأجمع للفكر.

إنَّ زكاة النَّفس وطهارتها موقوفٌ على محاسبتها، فلا تزكو، ولا تطهر، ولا تصلح البتَّة إلا بمحاسبتها.

وعلى المرء أن يصدق في محاسبة نفسه، ولا يلتمس لها الأعذار، بل عليه أن يُسِيءَ الظَّنَّ بها؛ فإنَّ ذلك يُمكِّنه من إماطة اللّثام عن مساويها وعيوبها.

يقول ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«وأمَّا سوء الظنَّ بالنَّفس فإنَّما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظَّنِّ بالنَّفس يمنع من كمال التَّفتيش، ويُلَبِّس عليه، فيرى المساوئ محاسنَ، والعيوبَ كمالاً، فإنَّ المحبَّ يرى مساوئ محبوبه وعيوبَهُ كذلك.

فَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلُ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَسَاوِيَا

ولا يسيء الظَّنَّ بنفسه إلاَّ مَنْ عرفها، ومَنْ أحسن ظنَّهُ بنفسه، فهو من أجهل النَّاس بنفسه»[1].

---

(١) «تهذيب مَدَارج السَّالكين» (ص١٧٧-١٧٨).

والمرء حظُّه من المحاسبة بقدر حظّه من نور الحكمة الذي نوَّر اللهُ به قلوب أتباع رسله - صلوات الله وسلامه عليهم -.

يقول ابن القيِّم - أيضًا -:

«ونور الحكمة هاهنا هو العلم، الذي يُمَيِّزُ به العبد بين الحقِّ والباطل، والهُدَى والضَّلال، والضَّارِّ والنَّافع، والكامل والنَّاقص، والخير والشَّرِّ، ويُبْصِرُ به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، وكلَّما كان حظُّه من هذا النُّور أقوى، كان حظُّه من المحاسبة أكملَ وأتمَّ»[1].

قال الشاعرُ:

العِلْمُ زَيْنٌ؛ فَكُنْ للعلمِ مُكْتَسِبًا ... وكُنْ لَهُ طالبًا ما عِشْتَ مُقْتَبِسَا

ارْكَنْ إليه[2]، وثِقْ بالله، واغْنَ بِهِ ... وكُنْ حليمًا، رَزِيْنَ العَقْلِ، مُحْتَرِسَا

وكُنْ فتىً سالكًا مَحْضَ التُّقَى وَرِعًا ... للدِّينِ مُغْتَنِمًا، في العلم مُنْغَمِسَا

فَمَنْ تَخَلَّقَ بالآدابِ ظلَّ بها ... رئيسَ قومٍ، إذا ما فَارَقَ الرُّؤَسَا[3]

ومِنْ جميلِ ما قيل في المحاسبة قول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

«حَاسبُوا أنفسَكم قَبْلَ أنْ تُحَاسَبُوا، وتَزَيَّنُوا للعَرضِ الأكبرِ، وإنَّما يخفُّ الحسابُ يَوْمَ القيامَةِ على مَنْ حَاسَبَ نفسَهُ في الدُّنيا»[4].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «الرُّكون إلى الشَّيء»: الميل إليه، والاعتماد عليه.

(٣) «جواهر الأدب» (ص٧٠١).

(٤) «سنن التِّرمذيِّ» (٢٤٥٩) موقوفًا على عُمَرَ، انظر: «تحفة الأحوذيِّ» (٧/ ١٥٥).

ويُرْوَى عن مَيْمُونِ بن مِهْرَانَ قوله:

«لا يكونُ العبدُ تقيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نفسَــهُ، كما يُحَاسِبُ شريكَهُ، مَنْ أين مَطْعَمُهُ ومَلْبَسُهُ؟»[(١)].

ومحــاسبة المرء لنفســه سببٌ من أسباب الــبراءة من النِّفاق، والتَّرقِّي في مــعالي الأخلاق.

قال إبراهيم التَّيميُّ:

«ما عَرَضْتُ قولي عَلَى عَمَلي إلاَّ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذَّبًا»[(٢)].

وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ:

«أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يخافُ النِّفاقَ على نفسه»[(٣)].

وتعليقًا عليه نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطَّال ـ يرحمهم اللهُ ـ قوله:

«إنَّهم خافوا؛ لأنَّهم طالتْ أعمارُهم، حتَّى رأَوْا من التَّـغيير ما لَمْ يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أنْ يكونوا داهنوا بالسُّكوت»[(٤)].

قـال الشاعـرُ:

هـي النَّفس، إنْ أنت سَـامَـحْـتَـهَـا ▫▪▫ رَمَتْ بكَ أَقْـصَى مَـهَـاوِي الخَـدِيْعَـهْ

فـإنْ شِـئْتَ فـوزًا فناقضْ هَوَاها ▫▪▫ وإنْ واصلَتْكَ أَجْـزِها القَطِيْـعَـهْ[(٥)]

---

(١) «سنن التِّرمذيِّ» (٢٤٥٩).
(٢) رواه البخاريُّ في «الإيمان»، باب خوف المؤمن من أنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ، وهُوَ لا يشعرُ.
(٣) التَّخريج السَّابق.
(٤) «فتح الباري» (١/ ١١١).
(٥) «نفح الطيب» للمقري (٧/ ٣٦٢).

وقال ابن المُقَفَّع:

«لِيَحْسُنْ تعاهُدُك لنفسِكَ، بما تكـونُ به للخير أهلاً؛ فإنَّك إنْ فعلْتَ ذلك، أتاك الخيرُ يطلبُكَ، كما يطلبُ الماءُ السَّيلَ إلى الحُدُورةِ[1]»[2].

وقال ـ أيضاً ـ:

«وعلى العاقل أَنْ يُحْصيَ على نفسِهِ مساويها في الدِّين، وفي الأخلاق، ويُكَلِّفَها إصلاحه، ويُوَظِّفَ ذلك علـيها توظيفًا من إصـلاح الخَلَّة، أو الخَلَّتين، أو الخِلالِ في اليوم، أو الجمعة، أو الشَّهر.

فكلَّما أصلح شيـئًا مَحَاهُ، وكلَّما نظـر إلى مَحْوٍ استبشـر، وكلَّما نظر إلى ثابتٍ اكْتَأَبَ»[3].

وأخيراً يقول أبو الفتح البُسْتِيُّ:

«يا خَادِمَ الجِسمِ، كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِـهِ؟! أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فيه خُسْرَانْ؟! أَقْبِلْ عَلَى النَّفسِ، واستكمِلْ فَضَائِلَهَا فأنت بالنَّفْسِ ـ لا بالجسم ـ إنسانُ»[4].

---

(١) «الحُدُورة»: المنخفض من الأرض.

(٢) «الأدب الصَّغير، والأدب الكبير» (ص٩٠).

(٣) سبق ذكره.

(٤) «جواهر الأدب» (ص٦٧٠).

المُجَاهَدة

قد مَرَّ معنا أنَّ الأخلاق إذا لم يُطْبَعْ عليها المرءُ نالها بالمجاهدة، فمَنْ جاهد نفسه في الله بصدقٍ، فإنَّهُ يحصلُ له ـ من الهداية، والمعونة، والتَّوفيق على تحصيل مطلوبه ـ أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهاده، ويؤيِّد ذلك قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

ومن دُرَرِ الإمام ابن عقيلٍ الحَنْبَليِّ ـ يرحمه الله ـ قوله:

«ولو لم يكن من بركات مجاهدة النَّفس في حقوق الله، والانتهاء عن محارم الله إلاَّ أنَّه يعطفُ عليك، فَيُسَخِّرها لك، ويُطَوِّعها لأمرك، حتَّى تنقاد لك، ويُسْقط عنك مؤونة النِّزاع لها والمجاهدة، حتَّى تصير طَوْعَ يدك وأمرك ـ تعاف المستطاب عندها، إذا كان عندَ الله خبيثًا، وتؤثر العمل لله، وإنْ كان عندَها بالأمسِ كريهًا، وتستخفُّه وإنْ كان عليها ثقيلاً، حتَّى تصير رقًا لك، بعدَ أنْ كانت تسترقُّك»[1].

ومجاهدة النَّفس يسيرةٌ على مَنْ يَسَّرَها اللهُ عليه، ولكنَّها عزيزةٌ على الكَسْلاَن.

قال الإمام ابن حَزْمٍ ـ يرحمه الله ـ:

«واعْلَمْ أنَّ رياضةَ النَّفسِ أَصْعَبُ مِنْ رياضة الأُسْد؛ لأنَّ الأُسْدَ إذا سُجِنَتْ في البُيُوت الَّتي تتَّخذ لها الملوكُ، أُمِنَ مِنْ شرِّها، والنَّفس إذا سُجِنَتْ، لم يُؤْمَنْ شرُّها»[2].

(١) «كتاب الفنون» (٢/ ٤٩٦).

(٢) «الأخلاق والسِّيَر» (ص١٦٧).

وقال - أيضاً -:

«كانت فيَّ عيوبٌ، فلم أزَلْ - بالرِّياضة، وإطِّلاعي على ما قالتِ الأنبياءُ - صلوات الله عليهم - والأفاضلُ من الحُكَمَاءِ المتأخِّرينَ والمتقدِّمين في الأخلاق، وفي آداب النَّفس - أُعَاني مداواتها، حتَّى أعان اللهُ عزَّ وجلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنِّه»[1].

وما أحسن قول أبي تَمَّام الطَّائيِّ:

فَلمْ أَجِدِ الأَخْلاقَ إلاَّ تَخَلُّقَا ❊ ولَمْ أَجِدِ الأَفْضَالَ إلاَّ تَفَضُّلا[2]

---

(١) المرجع السابق (ص١٠٧).

هنا فائدةٌ: قال العلاَّمة ابن قُدَامة المقدسيُّ: «وقَدْ زعم مَنْ غَلَبَتْ عليه البطالة، فَاسْتَثْقَلَ الرِّياضة أنَّ الأخلاق لا يتصوَّر تغييرها، كما لا يتصوَّر تغيير صورة الظَّاهر!.

والجواب: أنَّه لو كانت الأخلاقُ لا تقبل التَّغيير، لم يكن للمواعظ والوصايا معنىً، كيف تنكر تغيير الأخلاق، ونحن نرى الصيدَ الوحشيَّ يستأنس، والكلب يُعَلَّمُ ترك الأَكْل، والفرس تُعَلَّمُ حسن المشي، وجودة الانقياد، إلاَّ أنَّ بعضَ الطِّباع سريعة القبول للصَّلاح، وبعضها مستصعبةٌ؟!». «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٥٢).

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٢).

الاسْتفَادة مِنَ الآخَرِين

اللَّبيب يستفيد من كُلِّ مَنْ يخالطه، سواءٌ أكان ناقصًا أم كاملاً، وأكثر العقلاء والحكماء يتعلمون مكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها!.

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«وكثيرٌ من النَّاس يتعلَّم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، كما روي عن بعض الأكابر أنَّه كان له مملوكٌ سيِّيءُ الخُلُق، فظٌّ، غليظٌ، لا يُناسبه، فسئل عن ذلك، فقال: إنِّي أدرس عليه مكارم الأخلاق!».

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضدِّ أخلاقه، ويكونُ بتمرين النَّفس على مصاحبته، ومعاشرته، والصَّبر عليه»[1].

قال الشَّاعر:

إنَّ الرِّجالَ إذا اختبرْتَ طِباعَهُمْ ❊ أَلْفَيْتَهُمْ شتَّى على الأخبار

لا تَعْجَلَنَّ إلى شريعةِ موردٍ ❊ حتَّى تبينَ صفحةُ الإصدارِ

وقال ابن حَزْم ـ يرحمه الله ـ:

«بكُلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهل الجهل منفعةً عظيمةً، وهي أنَّه توقَّد طبعي، واحتدم خاطري، وحَمِيَ فكري، وتهيَّج نشاطي، فكان ذلك سببًا في

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٥).

تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استثارُهُم ساكني، واقتداحُهُم كامني ما انبعثتُ لتلك التواليف»[١].

قال الشاعر:

مَتى تصْفو لَكَ الدُّنْيا بخَيرٍ ■ إذا لَمْ ترضَى مِنهَا بالمزاجِ؟!
أَلَمْ تَرَ جوهرَ الدُّنيا المصفَّى ■ ومَخْرَجُهُ مِنَ البَحْرِ الأُجَاجِ؟![٢]
ورُبَّ مخيفةٍ فجأتْ بهَوْلٍ ■ جرتْ بسرَّةٍ لكَ وابتهاجِ!
ورُبَّ سلامةٍ بَعْدَ امتناعٍ ■ ورُبَّ إقامةٍ بَعْدَ اعوجاجِ!

ولا يقف الأمر ها هُنا، بل إنَّ كثيراً من العقلاء يتعلَّمُ من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحَزْمه، وصبره.

قيل لرجلٍ: مَنْ علَّمكَ البُكُورَ في حوائجك أوَّلَ النَّهار، لا تُخِلُّ به؟!.

قال: مَنْ علَّم الطَّيرَ تغدو خِماصاً[٣]. كُلَّ بُكرةٍ[٤]. في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجوِّ والأرض؟!.

وقيل لآخر: مَنْ علَّمكَ السُّكون، والتَّحفُّظ، والتَّماوت حتَّى تظفر بأربك[٥]، فإذا ظفرت به وثبت وثوبَ الأسد على فريسته؟!.

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٥).
(٢) «الأجاج»: المالح.
(٣) «تغدو خِماصاً»: تذهب جائعةً ضامرةَ البُطُون، ومفرد خِماصٍ: خُمْصَان للمذكَّر، وخُمْصَانة للمؤنَّث.
(٤) «بُكْرَة»: صباح، جمعها: بُكَرٌ.
(٥) «الأرَبُ»: الحاجة، والجمع: آراب.

قال: الذي علَّم الهرَّة أن ترصد جُحرَ الفأرة، فلا تتحرَّك، ولا تتلوَّى، ولا تختلج، حتَّى كأنَّها ميتةٌ، حتَّى إذا برزَت الفأرةُ، وثبتْ عليها كالأسد!.

دَهاءٌ يُريكَ الغيبَ في ثوبِ حاضرٍ ... وفَهْمٌ كَحَدِّ السَّيفِ أَمْضَى وأَصْوَبا
إذا ظَنَّ ظنًا صارَ فينا حقيقةً ... وإنْ قالَ قولاً صارَ للنَّاسِ مَذْهَبا

وقيل لآخر: مَنْ علَّمك حسن الإيثار، والبَذْل، والسَّماحة؟.

قال: مَنْ علَّم الدِّيكَ يُصادف الحبَّة في الأرض، وهو يحتاج إليها، ولا يأكلها، بل يستدعي الدَّجاج، ويطلبهُنَّ طَلَبًا حثيثًا، حتَّى تجيء الواحدة منهنَّ فتلقطها، وهو مسرورٌ بذلك، طيِّب النَّفس به؟!.

ليس يُعْطيكَ للرَّجاءِ، ولا للخوفِ ... ولكنْ يَلَذُّ طَعْمُ العَطاءِ
لا، ولا أنْ يُقالَ: شِيمَتُه[1] الجُودُ ... ولكنْ طِباعُ الآباءِ

وكذلك كرام الأسود وأشرافها، ويُتَعَلَّمُ منها الأَنَفَة، وعزَّة النَّفس؛ فهي لا تأكل إلاَّ من فريستها، وإذا مرَّتْ بفريسة غيرها، لم تَدْنُ منها ولو جهدها الجوع[2].

وكُنْتُ إذا صاحَبْتُ رجالَ قومٍ ... صَحِبْتُهُم وشِيمتي الوَفاءُ
فأُحْسنُ حِينَ يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ ... وأَجْتَنِبُ الإساءةَ إنْ أَساءُوا
وأُبْصِرُ ما يُعِيبُهُمْ بعَيْنٍ ... عليها مِنْ عُيُوبِهِمُ غِطَاءُ
أُريدُ رِضاهُمُ أَبَداً، وآتي ... مَشِيئَهُم، وأَتْرُكُ ما أَشاءُ[3]

---

(١) «الشِّيمةُ»: الخُلُقُ، والجمع: شِيَمٌ.
(٢) انظر: «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص١٤٧ - ١٤٦) بتصرُّف.
(٣) «المروءة الغائبة» (ص٤٢).

عُلُوُّ الهِمَّة

الهمَّة أصلٌ مهمٌ من أصول الأخلاق الحميدة، والهمَّة ما هُمَّ به من أمرٍ ليُفْعَل[١].
ومحلُّها القلب.

قال الجرجاني:

«الهَمُّ: هو عقد القلب على فعل شيءٍ قَبْلَ أَنْ يُفْعَلَ من خيرٍ أو شرٍّ. والهمَّة: توجُّه القلب وقصده بجميع قواه الرُّوحانيَّة إلى جانب الحقِّ لحصول الكمال له، أو لغيره»[٢].

وقيل: عُلُوُّ الهمَّة: «هو استصغار ما دون النِّهاية من معالي الأمور»[٣].

وتعلو أخلاق المرء وتسمو بقدر نصيبه من عُلُوِّ الهمَّة، فهي لا تزالُ تضربُ صاحبها بسياط اللَّوْم والتَّأنيب، حتَّى ترفعه إلى معالي الأمور وأشرافها، وهل تنشأ معالي الأخلاق إلاَّ من عُلُوِّ الهمَّة؟!.

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«فمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وخَشَعَتْ نفسُه، اتَّصف بكُلِّ خُلُقٍ جميلٍ، ومَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وطَغَتْ نفسُهُ، اتَّصف بكُلِّ خُلُقٍ رذيلٍ»[٤].

---

(١) «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ص١٥١٢).
(٢) «التَّعريفات» للجرجانيِّ (ص٣٢).
(٣) «رسائل الإصلاح» لمحمَّد الخضر (٢/٨٦).
(٤) «الفوائد» (ص٢١١).

وقال - أيضاً -:

«فالنُّفوس الشَّريفة لا ترضى من الأشياء إلاَّ بأعلاها، وأَفْضَلِهَا، وأَحْمَدِهَا عاقلةً، والنَّفوس الدَّنِيْئَة تحوم حَوْلَ الدَّناءات، وتقع عليها كما يقع الذُّباب على الأقذار، فالنُّفوس العليَّة لا ترضى بالظُّلم، ولا بالفواحش، ولا بالسَّرقة، ولا بالخيانة؛ لأنَّها أكبر من ذلك وأجلُّ، والنّفوس المهينة بالضِّدِّ من ذلك»[(١)].

عن الحُسَيْن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ يُحِبُّ معاليَ الأُمُورِ وأَشْرَافَهَا، ويَكْرَهُ سفْسافَهَا»**[(٢)].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ فيما يَرْوِي عَنْ ربِّه عزَّ وجلَّ قال: **«إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كتب الحسنات والسَّيِّئات، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ، فلم يَعْمَلْهَا، كتبها اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملة، فإنْ هَمَّ بها وعملها، كتبها اللهُ له عنده عَشْرَ حسناتٍ إلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرةٍ، ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ، فلم يَعْمَلْهَا، كتبها اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً، فإنْ هَمَّ بها فعملها، كتبها اللهُ لَهُ سيئةً واحدةً»**[(٣)].

وقال في حقِّ المتخلِّفين عَنْ غَزْوة تَبُوكَ من الحريصين على الخروج معه: **«إنَّ بالمدينةِ لرجالاً، ما سِرتُم مَسيرًا، ولا قَطَعْتُمْ واديًا، إلاَّ كانوا مَعَكُمْ**[(٤)]**، حَبَسَهُمْ**[(٥)] **المَرَضُ»** - وفي رواية -: **«حَبَسَهُمُ العذْرُ»**[(٦)].

(١) المرجع السابق (ص٢٦٦).

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» (١٣/ ١٣١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٨٩٠)، «والصَّحيحة» (١٣٧٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١).

(٤) يعني: في إدْراك الأجر والثَّواب.

(٥) «حَبَسَهُمْ»: مَنَعَهُمْ.

(٦) رواه البخاريُّ (٢٨٣٩) و(٤٤٢٣)، عَنْ أنسٍ، ومسلمٌ (١٩١١) عَنْ جابرٍ.

يا راحلِينَ إلى البيتِ العتيقِ لَقدْ ۞ سِرتُمْ جُسُومًا، وسرْنَا نحنُ أرْوَاحا
إنَّا أقمْنَا على عُذْرٍ وعَنْ قدرٍ ۞ ومَنْ أقامَ على عُذْرٍ فقدْ رَاحا

فحريٌ بالمرء ألاَّ تقف به همتُه دُونَ الجنَّة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كانتِ الآخرةُ همَّهُ، جعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قلبهِ، وجمَعَ له شَمْلَهُ، وأتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِبةٌ، ومَنْ كانتِ الدُّنيا همَّهُ، جعَلَ اللهُ فقرَهُ بَيْنَ عينَيْهِ، وفرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولَمْ يأتِهِ منَ الدُّنيا إلاَّ ما قُدِّرَ لهُ»**[1].

وعلَّمنا نبيُّنا ﷺ عُلُوَّ الهمَّة في كُلِّ شَيْءٍ حتَّى في الدُّعاء، فأمرنا أن نسأل الله سبحانه وتعالى من فضله، ولا نستعظم شيئًا في قدر الله وجوده.

عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سأل أحدُكُمْ فلْيَسْتَكْثِرْ؛ فإنَّما يسألُ ربَّهُ»**[2].

وفي لفظ: **«إذا تمنَّى أحَدُكُمْ فلْيَسْتَكْثِرْ؛ فإنَّما يسألُ ربَّهُ عزَّ وجلَّ»**[3].

وعن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **«إذا سألْتُمُ اللهَ فاسألُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّهُ سرُّ الجنةِ[4]»**[5].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٥)، وروَى ابن ماجهْ نَحْوَهُ من حديث زيد بن ثابتٍ (٤١٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٥١٠، ٦٥١٦)، و«الصَّحيحة» (١٣٢٥).

(٢) رواه ابن حبَّانَ في «صحيحه»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٥٩١)، و«الصَّحيحة» (١٣٢٥).

(٣) رواه الطَّبرَانيُّ في «الأوسط» عن عائشة، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٤٣٧)، و«الصَّحيحة» (١٢٦٦).

(٤) «سرُّ الجنَّة»: أفضلُ موضعٍ فيها، والسِّرُّ: جَوْفُ كُلِّ شَيْءٍ ولُبُّه وخالصه.

(٥) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٥٩٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سَأَلْتُمُ اللهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّهُ أَوْسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تُفَجَّرُ أَنْهارُ الجنَّة»[(١)].

يا صاحبَ الهِمَّةِ العليا، وهَلْ حَمَلَتْ ▫▪▫ رُوحَ الرِّسالاتِ إلاَّ رُوحُ مُختارِ؟

أعلى المناصبِ ما شادَتْ لصاحِبِها ▫▪▫ مِنَ العُلاَ والمعالي نَصْبَ تذْكارِ

في كَفِّهِ شُعْلَةٌ تهدي، وفي دَمِهِ ▫▪▫ عقيدةٌ تَتَحَدَّى كُلَّ جَبَّارِ

ومن دررِ ابن القيِّم - يرحمه اللهُ - قوله:

«الهمَّة العالية على الهِمَم كالطَّائر العالي عَلَى الطُّيُور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصلُ إليه الآفاتُ التي تصلُ إليهم؛ فإنَّ الهِمَّةَ كلَّما عَلَتْ بَعُدَتْ عن وصول الآفات إليها، وكلَّما نزلتْ قصدتها الآفاتُ من كُلِّ مكانٍ، فإنَّ الآفاتِ قواطعُ وجواذبُ، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذبُ منه، وإنَّما تجتذبُ من المكان السَّافِلِ، فَعُلُوُّ همَّةِ المرءِ عُنْوَانُ فَلاحِه، وسُفُولُ هِمَّتِه عُنْوَانُ حِرْمانه»[(٢)].

قُلْتُ للصَّقْرِ - وهو في الجَوِّ عالي: ▫▪▫ اهْبِطِ الأَرْضَ؛ فالهواء جَدِيْبُ

قال لِيَ الصَّقْرُ: في جَنَاحي وعَزْمي ▫▪▫ وعَنَانِ السَّماءِ[(٣)] مَرْعَى خَصِيْبُ[(٤)]

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٩٠) و(٤٧٢٣).

(٢) «مدارج السَّالكين» (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٣) «عَنَان السَّماء»: هو السَّحاب.

(٤) «ديوان المثاني» لعبد الوهَّاب عَزَّام (ص٣٥).

وقال أبو فراسٍ الحمدانيُّ ـ مُفْتخرًا بعُلُوِّ همَّته، عائبًا على مَنْ سفلَتْ همَّتُهُ، واسترقاه هَوَاهُ ـ:

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تحوي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ[1] ▫▪▫ وقَدْ ذَلَّ مَنْ تقضي عليه كِعَابُ[2]

ولكنَّني والحمدُ لله ـ حَازِمٌ ▫▪▫ أعِزُّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رقابُ

ولا تَمْلكُ الحَسْنَاءُ قلبي كُلَّهُ ▫▪▫ ولو شَمِلَتْنَا رِقَّةٌ وشَبابُ

وأَجري ولا أعطي الهَوَى فَضْلَ مِقْوَدي ▫▪▫ وأَهْفُو، ولا يَخْفَى عليَّ صَوَابُ[3]

وعالي الهمَّة قد يشتدُّ حِرْصُهُ على معالي الأخلاق وأشرافها، حتَّى لا يكاد يشعر بما يُلاقيه من جهل الجاهلين، وعِناد المعاندين.

ومَنْ تَكُنِ العَلْيَاءُ هِمَّةَ نفسِهِ ▫▪▫ فكُلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ[4]

وقال أبو الطَّيِّب:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأتي العَزَائِمُ[5] ▫▪▫ وتَأْتي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وتَكْبُرُ في عَيْنِ الصَّغيرِ صِغَارُهَا ▫▪▫ وتَصْغُرُ في عَيْنِ العظيمِ العظائِمُ[6]

---

(١) «خريدة»: الحسناء، والجمع خُرَّد وخرَائد.

(٢) «كعاب»: واحدها كاعب، وهي ناهدةُ الثَّدْيِ مستديرتُه.

(٣) «ديوان أبي فراسٍ الحمدانيِّ» (ص١٣).

(٤) «جواهر الأدب» (ص٥٢٨).

(٥) «العزائم»: جمع عزيمة، وهي الإرادة.

(٦) «ديوان أبي الطَّيِّبِ» (٣/٣٧٨ - ٣٧٩).

وعالي الهِـمَّة لا يرضى بالدُّون من الأخلاق، ولا يقنـع بما دون النُّجوم، ينهض إلى المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغاية البعيدة، يقـومُ بجلائل الأعمال التي تستعصي على أولي القوَّة من الرِّجال، فلا يتبرَّم[1]، ولا يقلق، ولا يشكو، ولا يتعب.

إذا غَـامَـرْتَ في شَـرَفٍ مَـرُومٍ[2] ... فـلا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُـوم
فَطَعْمُ الموتِ في أَمْـرٍ حَـقِـيـرٍ ... كَطَعْمِ الموتِ في أَمْـرٍ عظيـمٍ[3]

---

(١) «التَّبَرُّم»: التَّضَجُّر.

(٢) «مروم»: مقصود ومطلوب من رَامَ يَرُومُ الشَّيءَ، إذا قصده وطلبه.

(٣) «ديوان أبي الطَّيِّب» (٣/٣٧٨ - ٣٧٩).

النَّظرُ في عَواقِبِ سُوءِ الخُلُق

سيِّيءُ الخُلُقِ مذكورٌ بالذكر القبيح، يمقته اللهُ عزَّ وجلَّ، ويبْغضُهُ الرَّسولُ ﷺ، ويُبْغِضُهُ النَّاسُ على اختلاف مشاربهم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«وإنَّ أبْغَضَكُمْ إليَّ، وأبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرة ـ أسْوَؤُكُمْ أخلاقًا»**[(١)].

وسيِّيءُ الخُلُقِ هو مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ من ثناءِ النَّاسِ شراً، وهو يسمعهُ.

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أهلُ الجنَّةِ مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاس خيراً، وهو يسمعُ، وأهْلُ النَّارِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شراًّ، وهو يسمعُ»**[(٢)].

بل إنَّ سيِّيءَ الخُلُقِ يجلبُ لنُفسه الهمَّ، والغمَّ، والكدر، وضيق العيش، ويجلبُ لغيره الشَّقاء.

قال أبو حازمٍ سَلَمَةُ بْنُ دينارٍ ـ يرحمه اللهُ ـ:

«السيِّيءُ الخُلُقِ أشقى النَّاسِ به نفسُهُ التي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، هي مِنْهُ في بلاءٍ، ثُمَّ زَوْجتُهُ، ثِمَّ وَلَدُهُ، حتَّى أنَّه لَيَدْخُلُ بيتَهُ، وإنَّهم لَفي سرورٍ، فيسمعون صوته،

---

(١) رواه أحمدُ (٤/ ١٩٣ -١٩٤)، وابنُ حبَّانَ (٤٨٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥)، والبغويُّ (٢٠١٨)، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٢١)، و «رجاله رجال الصحيح»، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩١).

(٢) رواه ابن ماجَهْ (٤٢٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٥٢٧)، و«الصَّحيحة» (١٧٤٠).

فينفرون مِنْهُ فَرَقًا[١] منه، وحتَّى إنَّ دابَّته تحيد ممَّا يرميها بالحجارة، وإنَّ كلبَهُ لَيَرَاهُ فينزو[٢] على الجدار، حتَّى إنَّ قِطَّهُ لَيفرُّ منه»[٣].

قال الشَّاعر:

إذا لم تَتَّسعْ أخلاقُ قومٍ ⁂ تضيقُ بهم فسيحاتُ البلادِ[٤]

وقال يحيى بن مُعَاذ:

«سوءُ الخُلُق سيِّئةٌ، لا تَنْفَعُ معها كَثْرَةُ الحَسَنات، وحُسْنُ الخُلُق حَسَنَةٌ، لا تضرُّ معها كَثْرَةُ السيِّئاتِ»[٥].

وصدق يحيى بن مُعَاذٍ

«إنَّ سُوْءَ الخُلُقِ لَيُفْسِدُ العملَ، كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»[٦].

وقال صاحبُ الإحياء:

«الأخلاقُ السيِّئة هي السُّمومُ القاتلةُ، والمُهْلِكاتُ الدَّامغةُ، والمخازي الفاضحةُ، والرَّذائلُ الواضحةُ، والخبائثُ المُبْعِدَةُ عَنْ جِوَار ربِّ العالمِيْن، المنخرطةُ بصاحبها في

(١) «فَرَقًا»: خوفًا.
(٢) «ينزو»: يثب.
(٣) «السِّيَر» (٦/ ٩٩).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٣).
(٥) «الإحياء» (٣/ ٥٧).
(٦) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» عن ابن عُمَر، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٦)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).

سِلك الشَّياطين، وهي الأبوابُ المفتوحةُ إلى نارِ اللهِ المُوقَدةِ، التَّي تطَّلعُ على الأفئدة»[١].

وقال - أيضًا -:

«الأخلاق الخبيثة أمراضُ القلوب، وأسقامُ النُّفوسِ، إنَّها أمراضٌ تُفَوِّتُ على صاحبها حياةَ الأبدِ»[٢].

وقال الأحنفُ بن قَيْسٍ:

«ألاَ أُخْبِرُكُمْ بأَدْوَإِ الدَّاءِ؟». قالوا: «بلى». قال: «الخُلُقُ الدَّنيُّ، واللِّسانُ البذيُّ»[٣].

وقال بعضُ الحكماء:

«مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ ضاقَ رِزْقُهُ»[٤].

وقال بعض البلغاء:

«الحَسَنُ الخُلُقِ مِنْ نفسه في راحةٍ، والنَّاسُ منه في سلامة، والسَّيِّىءُ الخُلُقِ النَّاسُ منه في بلاء، وهو مِنْ نفسه في عنَاء»[٥].

وإذا أُصيبَ القَومُ في أَخلاقِهِمْ ◘■◘ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأتَمًا وعَويلا[٦]

---

(١)، (٢) «الإحياء» (٣/ ٥٣).
(٣)، (٤)، (٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٢).
(٦) «الشوقيَّات» (١/ ١٨٣).

صور من الأخلاق

١ ـ الحياء.
٢ ـ برُّ الوَالدَيْن.
٣ ـ صلَةُ الرَّحِم.
٤ ـ حُسْنُ السَّمْت.
٥ ـ حُسْنُ السَّمْت.
٦ ـ الوَقارُ.
٧ ـ الرِّفْقُ.
٨ ـ الرَّحمة.
٩ ـ التَّواضُعُ.
١٠ ـ الحلْمُ.
١١ ـ الكَرَمُ.
١٢ ـ إكرامُ الضَّيف.
١٣ ـ المُرُوءَةُ.
١٤ ـ الصَّبْر.
١٥ ـ الانتصارُ.
١٦ ـ الإنصافُ.
١٧ ـ المُدَاراةُ.
١٨ ـ الصِّدقُ.
١٩ ـ حُسْنُ الظَّنِّ.
٢٠ ـ تَجَنُّبُ الغَضَب.
٢١ ـ تَجَنُّبُ الحقْد.
٢٢ ـ تَجَنُّبُ الحَسَد
٢٣ ـ غَضُّ البَصَر.
٢٤ ـ الغَيْرَةُ.
٢٥ ـ عَدَمُ الانشغال بعُيُوب النَّاس.
٢٦ ـ حفْظُ اللِّسَان.
٢٧ ـ تَجَنُّبُ آفات اللِّسان، ومنها:

(أ) الغيْبَةُ.
(ب) النَّميْمَةُ.
(جـ) الكَذبُ.
(د) اللَّعْنُ.
(هـ) السُّخْريةُ.
(و) البَذَاءةُ والتَّفَحُّشُ في القَوْل.
(ز) شَهَادَةُ الزُّور.
(حـ) إفْشَاءُ الأَسْرار.
(طـ) المَدْحُ المَذْمُومُ.

صور من الأخلاق

الحَيَـاء

الحياء في اللُّغة: تغيُّرٌ وانكسارٌ يلحقُ الإنسانَ من خوف ما يُعَابُ به.

وفي الشَّرع: خُلُقٌ يبعثُ على فعـل الجميل، واجتناب القبـيح، ويمنعُ من التَّفريط والتَّقصير في حقِّ ذي الحقِّ.

■ ***أنواعُ الحياءِ:***

«الحياء قِسْمان: غريزيٌّ، ومُكْتَسَبٌ. والحياءُ المكتسبُ: هو الذَّي جعله الشَّارعُ من الإيمان، وهو المكلَّف به دون الغريزيِّ، وقد ينطبعُ الشَّخصُ بـالمُكْتَسَبِ حتَّى يصير كالـغريزيِّ، وقد كـان رسول الله ﷺ في الـغزيزيِّ أشـدَّ حياءً من الـعَذْرَاءِ[(١)] في خِدْرِهَا[(٢)]، وكان في المكتسب في الذِّرْوَةِ العليا»[(٣)].

«وينقسم - أيضًا - إلى قسمين: شرعيٍّ، وغـير شرعيٍّ. فالشَّرعيُّ الذَّي يقعُ على وجه الإجلال والاحترام للأكـابر، وهو محمودٌ، وأمَّا ما يقعُ سببًا لترك أمرٍ شرعيٍّ، فهو مذمومٌ، وليس بحياءٍ شرعيٍّ، وإنَّما ضعفٌ ومهانةٌ»[(٤)].

---

(١) «العَذْرَاءُ»: البِكْرُ، وتجمع إمَّا على عَذَارٍ، أو عَذَارَى أو عَذَارِيّ.

(٢) «الخِدْرُ»: سترٌ تجـعله البِكْرُ في جنب البيت، والمعنى: أيْ أشدّ حـياءً من البكر حال اختـلائها بالزَّوج الذي لم تعرفه قَبْلُ، واستحيائها منه.

(٣) «فتح الباري» (١٠/٥٢٢-٥٢٣).

(٤) المرجع السابق (١/٢٢٩).

▪ مكانةُ الحياءِ ومنزلتُه في الدِّين:

وصف الرَّسول ﷺ الحياءَ بأوصافٍ تدلُّ على خطورته، وسُمُوٍّ منزلته منها:

١ـ أنه صفةٌ من صفات الله سبحانه وتعالى:

عن يَعْلى بن أميَّة: «أنَّ رسول الله ﷺ رأى رَجُلاً يغتسلُ بالبَرَاز ـ (أَيْ بالفَضَاء) ـ بلا إزارٍ، فَصَعَد المِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حليمٌ، حَيِيٌّ[(١)] ستِّيرٌ يُحِبُّ الحياءَ والسَّتْرَ؛ فإذا اغْتَسَلَ أحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ رحيمٌ، حَيِيٌّ، كريمٌ، يستحيي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إليه يَدَيْه، ثُمَّ لا يضعُ فيهِمَا خيراً»[(٣)(٤)].

٢ـ أنَّه أبرزُ ما يتميَّزُ به الإسلامُ من مكارم الأخلاق، فهو الخُلُقُ المُمَيِّزُ لأتباعه:

عن أنسٍ وابن عبَّاس رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكُلِّ دينٍ خُلُقاً، وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ»[(٥)].

---

(١) قال صاحبُ بذل المجهود (٨/٣٢٨) ـ بتصرُّف ـ: «ومعناه على هذا المبالغ في الحياء، والغرض والغاية مِنْ وصفِ الله تعالى به فعل ما يسرُّ، وترك ما يضرُّ، والعطاءُ مِن غير سؤال».

(٢) رواه أبو داودَ (٤٠١٢)، والنَّسائيُّ (٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٥٦).

(٣) قال الفيروز أبادي ـ يرحمه الله ـ في «بصائر ذوي التَّمييز (٢/٥١٧): «وأمَّا حياءُ الرَّبِّ تبارك وتعالى من عبده فنوعٌ آخرُ، لا تُدْرِكُهُ ولا تُكَيِّفُهُ العقولُ، فإنَّه حياءُ كَرَمٍ، وبرٍّ، وجُودٍ، فإنَّه كريمٌ، يستحيي من عبده إذا رَفَعَ إليه يديه أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً، ويستحيي أَنْ يُعَذِّبَ شَيْبَةً شابتْ في الإسلام».

(٤) رواه الحاكمُ في «المستدرك»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٦٨).

(٥) رواه ابنُ ماجَهْ (٤١٨١)، (٤١٨٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٢١٤٩)، و«الصَّحيحة» (٩٤٠).

٣ ـ أنَّه من الإيمـان:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياءُ مِنَ الإيمان، والإيمانُ في الجنَّة، والبَذاءُ[(١)] مِنَ الجَفَاء، والجَفَاءُ في النَّار»[(٢)].

وعن ابن عُمَرَ ﷺ: «أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ عَلَى رجلٍ من الأنصار، وهو يَعظُ أخَاه في الحياء[(٣)]، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ»[(٤)].

وعنه ـ أيضًا ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحياءُ والإيمانُ قُرِنَا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحَدُهما رُفِعَ الآخَر»[(٥)].

فهذا يعني أنَّ الحياء إذا ذهب، ذهب معه الإيمان، ولا غَرْوَ فإنَّ مَنْ فقد حياءه هبط من رذيلةٍ إلى أخرى أشدَّ نُكْرًا، ولا يزال هاويًا حتَّى ينحدرَ إلى الدَّرك الأسفل.

٤ ـ أنَّه مِلاَكُ[(٦)] الخير:

عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياءُ خَيْرٌ كلُّهُ»، أو قال: «كُلُّهُ خَيْرٌ»[(٧)].

---

(١) «البَذَاءُ»: الفُحْشُ في الكلام.

(٢) رواه أبو داود (٢٠٠٩)، ورواه ابن ماجَـهْ (٤١٨٤) عَنْ أبي بَكْرَةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣١٩٩)، و«الصَّحيحة» (٤٩٥).

(٣) أيْ يُعَاتِبُهُ فيه.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٤) و(٦١١٨)، ومسلمٌ (٣٦).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك»، وأبو نُعَيم في «الحلية»، والبيهقيُّ في «الشُّعَب»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٢٠٠).

(٦) «مِلاَكُ الأمر»: عماده وقوامه وأساسه.

(٧) رواه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٣٧).

٥ ـ إنَّهُ مِنْ سُنَنِ المرسلين:

عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِها»[(١)].

وعن عائشة ﷺ أنَّ امرأةً من الأنصار قالتْ للنَّبيِّ ﷺ: «كيف أَغْتَسِلُ مِنَ المَحِيْضِ؟». قال: «خُذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً[(٢)]، وتَوَضَّئي ثلاثًا». ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ استحيا، فأعرضَ بوَجْهِهِ، أو قال: «تَوَضَّئي بها». «فَأَخَذْتُها فَجَذَبْتُها، فأَخْبَرْتُها بما يريدُ النَّبيُّ ﷺ»[(٣)].

٦ ـ أنَّهُ عنصرُ النُّبْلِ في كُلِّ عَمَلٍ يشوبُهُ:

عَنْ أنسٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفُحْشُ في شَيءٍ ـ قَطُّ ـ إلاَّ شَانَهُ[(٤)]، ولا كان الحياءُ في شَيءٍ ـ قَطُّ ـ إلاَّ زَانَهُ»[(٥)].

■ حَيَاةُ القلبِ في الحَيَاءِ:

قال ابن القيِّم ـ يرحمه اللهُ ـ: «الحياءُ من الحياة، ومنه الحَيَا للمطر، لكنْ هو مقصورٌ، وعلَى حَسَبِ حياةِ القلب يكونُ فيه قُوَّة خُلُقِ الحياء، وقِلَّةُ الحياءِ مِنْ موت القلب والرُّوح، فكلَّما كان القلبُ أَحْيَى، كان الحياءُ أَتَمَّ»[(٦)].

فالأخلاق الفاضلة ـ ولاسيَّما خُلُقُ الحياء ـ تتناسب تناسبًا طرديًا مع قوَّة حياة القلب والرِّفح.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٦٢)، (٦١٠٢)، و(٦١١٩)، ومسلمٌ (٢٣٢٠).

(٢) «فِرْصَة مُمَسَّكَة»: قطعة من قُطْنٍ أو صُوْف بها طيبٌ.

(٣) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٣١٤)، (٣١٥) و(٧٣٥٦)، ومسلمٌ (٣٣٢).

(٤) «شانَهُ»: عابَهُ.

(٥) رواه التِّرمذيُّ (١٩٧٤)، وابن ماجهْ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (٤١٨٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٦٥٥).

(٦) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٢٠).

قال ابن القيِّم ـ أيضاً ـ:

«وكُلَّما كانت هذه الأخلاقُ في صاحبها أكملَ، كانتْ حياتُهُ أقوى وأتمَّ؛ ولهذا كان خُلُقُ «الحياء» مشتقًا من «الحياة» اسمًا وحقيقةً، فأكملُ النَّاس حياةً أكملُهُمْ حياءً، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته؛ فإنَّ الرُّوح إذا ماتتْ لم تُحِسَّ بما يؤلمها من القبائح، فلا تستحي منها، فإذا كانتْ صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدُّها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياة الشجاع أكملَ من حياة الجبان، وحياة السَّخيِّ أكملَ من حياةِ البخيلِ، وحياة الفَطِنِ الذَّكيِّ أكملَ من حياةَ الفَدْمِ البليدِ؛ ولهذا لَمَّا كان الأنبياءُ ـ صلوات الله عليهم ـ أكملَ النَّاس حياةً ـ حتَّى إنَّ قوَّة حياتهم تمنعُ الأرضَ أنْ تُبلِيَ أجسامَهُمْ ـ كانوا أكملَ النَّاس في هذه الأخلاق، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ من أتباعِهِمْ»[(١)].

قال السَّرِيُّ:

«إنَّ الحياءَ والأُنْسَ يَطْرُقَان القلبَ، فإنْ وَجَدَا فيه الزُّهْدَ والوَرَعَ، وإلاَّ رَحَلاَ»[(٢)].

وقال الفضيل بن عياض:

«خَمْسٌ من علامات الشِّقوة: القسوةُ في القلبِ، وجمودُ العينِ، وقِلَّةُ الحياءِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، وطولُ الأملِ»[(٣)].

قال الشَّاعر:

إذا قَلَّ مَاءُ الوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ ▪ ولا خَيْرَ في وَجْهٍ قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاؤُكَ فَاحْفَظْهُ عليكَ، وإنَّما ▪ يَدُلُّ عَلَى فِعْلِ الكَرِيْمِ حَيَاؤُهُ[(٤)]

---

(١) المرجع السَّابق (٢/ ٩٤٨).
(٢)، (٣) المرجع السَّابق (٢/ ٦٢١).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» للماورديِّ (ص٢٤٧).

■أوجه الحياء:

الحياء يكون من ثلاثة أوجه:

الأوَّل ـ حياء المرء من خالقه جلَّ وعلا، والحياءُ من الله من أسمى منازل الحياء وأكرمها، ولا غَرْوَ فإنَّ الإنسانَ لَيَسْتحيي أَنْ يُقَدِّمَ إلى مَنْ أحسن إليه من بني جنسه ـ ولو نعمةً صغيرةً ـ أدنى إساءةٍ، فكيف لا يستحيي من خالقه الذي له عليه حقٌّ عظيمٌ، فقد أسبغ عليه نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً؟!.

لو أَنَّ العباد قَدَرُوا خالقهم حقَّ قَدْرِه، لَسَارعوا ـ بغضِّ النَّظر عن الثَّواب والعقاب ـ إلى الخيرات، يفعلونها من تلقاء أنفسهم، ولباعدوا عن السَّيِّئات حياءً وخجلاً من مقابلة خيره المَحْض بالجحود والكُفْران.

يقول ابنُ القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

هَبِ[1] البَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رسلُهُ ■ وجَاحِمَةَ النَّارِ[2] لَمْ تُضْرَمِ[3]

أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ المُسْتَحَقّ ■ حَيَاءُ العِبَادِ مِنَ المُنْعِمِ؟!

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحياء». قلنا: «يا نبيَّ الله، إنَّا لَنَسْتَحْيِي، والحمد لله». قال: «ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء من الله حقَّ الحياء أَنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى، وتحفظَ البَطْنَ وما حَوَى، وتتذكَّرَ الموتَ والبِلَى، ومَنْ أراد الآخرة تَرَكَ زينةَ الدُّنيا، فمن فَعَلَ ذلك فقد استحيا من اللهِ حَقَّ الحياء»[4].

(١) «هَبْ»: بمعنى ظُنَّ وافترضْ، وهو فعلٌ جامدٌ ملازمٌ للأمريَّة.

(٢) «جاحمة النَّار»: جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ.

(٣) «تُضْرَم»: تُوقَد.

(٤) رواه التِّرمذي (٢٤٥٨)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٣٥).

وعن بَهْزٍ عن أبيه عـن جَدِّه عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«فاللهُ أحقُّ أنْ يُسْتَحْيَا منْهُ منَ النَّاسِ»**(١).

وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه وهو يخطبُ النَّاسَ: **«يا مَعْشَرَ المسلمينَ، استحيُوْا منَ اللهِ، فوالذي نفسي بيدِهِ، إنِّي لأظلُّ حِيْنَ أذهبُ الغائِطَ في الفَضَاءِ مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربِّي عزَّ وجلَّ»**(٢).

وقال يحيى بن مُعَاذ: **«مَن استحيا مِنَ اللهِ مطيعًا، استحيا اللهُ منه وهو مذنبٌ»**(٣).

وفي شرح هذا القول يقول ابن القيِّم: «مَنْ غَلَبَ عليه خُلُقُ الحياء مِنَ اللهِ ـ حتَّى في حال طـاعته ـ فـقلبه مُطْرِقٌ بَيْنَ يَـدَيْهِ إطْرَاقَ مُسْتَـحٍ خَجِلٍ، فإنَّه إذا واقـع ذنبًا، استحيا اللهُ عزَّ وجلَّ من نظرِهِ إليه في تلك الحالـة لكرامتِهِ عليه، فيستحي أَنْ يَرَى مِنْ وَلِيِّهِ، ومَنْ يكْرُمُ عليه ما يَشِيْنُهُ عندَهُ»(٤).

والثَّاني ـ حيـاؤُه من النَّاس، ويكون بكفِّ الأذى عنهم، وترك المجاهرة بالقـبيح خجلاً من أن يؤثر عنه سوءٌ.

روي أنَّ حُذَيْفَةَ بن اليمان أتى الجمعَةَ، فوجد النَّاسَ قد انصرفوا، فتنكَّب الطَّريقَ عن النَّاس، وقال: «لا خَيْرَ فيمن لا يستحي مِنَ النَّاسِ»(٥).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٧٦٩)، (٢٧٩٤)، وذكـره البخاريُّ تعليقًا مجـزومًا به، انظر: «الفتح» (١/٤٥٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الإرواء» (١٨١٠)، «وصحيح الجامع» (١/٢٠٣).

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدُّنيا (ص٢٠).

(٣)، (٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/٦٢١).

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» للماورديِّ (ص٢٤٩).

بل إنَّ بعض أهل الكرم، والنُّفوس الشَّريفة لَيَستحيِي مِنْ سائله، حتَّى كأنَّه هو السَّائل، فلا تطاوعه نفسُهُ بمواجهة السَّائل حياءً من خجلته.

رُويَ أنَّ مُطَرِّفَ بن عبد الله قال لبعض إخوانه: «يا أبا فُلان، إذا كانتْ لَكَ حاجةٌ فلا تُكَلِّمني، واكْتُبْهَا في رِقْعَةٍ؛ فإنِّي أكره أنْ أرى في وَجْهِكَ ذُلَّ السُّؤالِ».

قال الشاعر:

وَرُبَّ قَبِيْحَةٍ مَا حَالَ بيني ... وبَيْنَ رُكُوبِهَا إلاَّ الحَيَاءُ

إذا رُزِقَ الفَتَى وَجهًا وقاحًا ... تَقَلَّبَ في الأُمُورِ كما يَشَاءُ»[١]

والثَّالثُ ـ حياؤه من نفسه، ويكونُ بالعِفَّة، وصيانة الخلوات.

يقول ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ: «وأمَّا حياءُ المَرْءِ من نفسه فهو حياء النُّفوس الشَّريفة العزيزة الرَّفيعة من رضاها لنفسها بالنَّقْصِ، وقَنَاعتها بالدُّون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسِه، حتَّى كأنَّ له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكملُ ما يكونُ من الحياء؛ فإنَّ العبدَ إذا استَحْيَا من نفسِهِ، فهو بأنْ يستحيَ من غيره أَجْدَرُ»[٢].

وقال بعض الحكماء: «لِيَكُنْ استحياؤُك من نفسِكَ أكثرَ من استحيائكم من غيرك»[٣].

وقال بعض الأدباء: «مَنْ عَمِلَ في السِّرِّ عملاً، ويستحي منه في العلانية ـ فليس لنفسه عنْدَهُ قَدْرٌ»[٤].

---

(١) المرجع السَّابق (ص٢٥٠).
(٢) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٢٣).
(٣)، (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٠).

فَسِرِّي كَإِعلانِي، وتلكَ خَلِيقَتِي ❊ وظُلْمَةُ ليلي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِي[(١)]

يقول الماورديُّ: «فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثَّلاثة، فقد كملت فيه أسبابُ الخير، وانتفت عنه أسبابُ الشَّرِّ، وصار بالفضل مشهوراً، وبالجميل مذكوراً.

وإنْ أَخَلَّ بأحدِ وجوه الحياء، لحقه من النَّقْص بإخلالهِ بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكمالهِ»[(٢)].

- أخي الحبيب -، عليك بخلق الإسلام هذا؛ فهو مظهر من مظاهر الوَقَار والسَّكينة.

قال بُشَيْرُ بْنُ كعب: «مكتوبٌ في الحكمة: إنَّ منَ الحياءِ وَقَاراً، وإنَّ منَ الحياءِ سكِينَةً»[(٣)].

قال القرطبيُّ - يرحمه اللهُ -: «معنى كلام بُشَيْرٍ أَنَّ من الحياء ما يحمل صاحبه على الوَقَار، بأَنْ يُوَقِّرَ غيره، ويتوقَّر في نفسه، ومنه ما يحمل على أَنْ يسكن عن كثير ما يتحرَّك النَّاسُ فيه من الأمور التي «لا تليق بذي المروءة»»[(٤)].

قال ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ - يرحمه اللهُ -:

حَيَائي حَافِظٌ لي مَاءَ وَجْهِي ❊ وَرِفْقِي في مُكَالَمَتِي رَفِيقِي

ولو أنِّي سَمَحْتُ بِبَذْلِ وَجْهِي ❊ لَكُنْتُ إلى العُلا سَهْلَ الطَّرِيقِ[(٥)]

(١) المرجع السَّابق.
(٢) المرجع السَّابق (ص ٢٥٠ - ٢٥١).
(٣) رواه البخاريُّ - واللَّفظ له - (٦١١٧)، ومسلمٌ (٣٧).
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢) عند شرحه للحديث (٦١١٧).
(٥) «سير أعلام النُّبلاء» (١٤/ ٢٧٦).

ولقد حذَّر الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من كسر حاجز الحياء لئلاً يقعَ الإنسانُ في كُلِّ قبيحٍ.

عن أبي مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى: إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[١].

قال الشاعر:

«إذا لم تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيالي ... ولم تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فلا واللهِ، ما في العيشِ خَيْرٌ ... ولا الدُّنيا، إذا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يعيشُ المرءُ ـ ما استحيا ـ بخيرٍ ... ويَبْقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ[٢]»[٣]

وإذا كان الحياء من الإيمان؛ فإنَّ المعاصيَ سببٌ في ذهاب الحياء، فالمحافظة على الإيمان، واجتناب المعاصي أصلُ حفظ الحياء.

قال الإمام ابنُ القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«مِنْ عقوبات المعاصي ذهابُ الحياء، الذي هو مادَّة حياة القلب، وهو أصل كُلِّ خيرٍ، وذهابُهُ ذهابُ الخير أجمعه، فقد جاء في الحديث الصَّحيح: «الحياءُ خيرٌ كلُّهُ»[٤]، والمقصود أنَّ الذُّنوبَ تُضعفُ الحياءَ من العبد، حتَّى رُبَّما انسلخ منه

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٨٣) و(٣٤٨٤) و (٦١٢٠).
(٢) «اللِّحَاءُ»: قشرة الشَّجرة أو العُود، ويجمعُ على أَلحِيَةٍ، ولُحِيٍّ.
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٨).
(٤) تقدَّم تخريجه.

بالكُلِّيَّة، حتَّى إنَّه ربَّما لا يتأثَّرُ بعلمِ الناسِ بسوءِ حالِهِ، ولا باطِّلاعهم عليه، بل كثيرٌ منهم يخبر عن حاله، وقبحِ ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخُه من الحياء، وإذا وصل العبدُ إلى هذه الحالة، لم يَبْقَ في صلاحِهِ مطمعٌ»[1].

وَلَيْسَ بمُنْتَسُوبٍ إلى العِلْمِ والنُّهَى[2] ... فَتَىً لا تُرَى فِيهِ خَلائِقُ أَرْبَعُ:

فَوَاحِدَةٌ تَقْوَى الإلَهِ، التَّي بِهَا ... يُنَالُ جَسِيمُ الخَيْرِ والفَضْلِ أَجْمَعُ

وثَانِيَةٌ صِدْقُ الحَيَاءِ، فَإِنَّهُ ... طِبَاعٌ[3]، عَلَيْهِ ذُو المُرُءَةِ يُطْبَعُ

وثَالِثَةٌ حِلْمٌ، إذا الجَهْلُ أَطْلَعَتْ ... إليه خَبَايَا مِنْ فُجُورٍ تسرعُ

ورابعةٌ جُودٌ بِمِلْكِ يَمِينِه ... إذا نَابَهُ الحقُّ الذي لَيْسَ يُدْفَعُ[4]

(١) «الدَّاء والدَّواء» (ص١٣١ - ١٣٣).

(٢) «النُّهى»: العقول الرَّاجحة، مفردها نُهْيَة، سُمِّي العقل بها، ؛ لأنَّه ينهى صاحبه عن كُلِّ قبيحٍ.

(٣) «الطِّبَاع»: الطباع هنا: الطَّبع أو الطَّبيعة، وهي الخلائق والسَّجايا التَّي جُبِلَ عليها الإنسانُ، انظر: «اللِّسان» (٤/ ٢٦٣٤).

(٤) «روضة العقلاء» (ص٨٦).

بِرُّ الوَالِدَيْنِ

البِرُّ ـ بكسر الباء ـ: هو التَّوسُّع في فعل الخير. والبَرُّ ـ بفتح الباء ـ: هو المتوسِّع في فعل الخيرات، وهو صفةٌ من صفات الله تعالى.

وأحقُّ النَّاس بالبرِّ، وحسن المعاملة، وجميلِ الأخلاق، ولين الكلام، والبَذْل، والإحسان، والبشاشة، والتَّواضع، وغير ذلك من صور الأخلاق الحميدة ـ هما الوالدان.

فمن كان أبرَّ بوالديه فهو الحكيم الموفَّق للأخلاق؛ لأنَّه نزَّل معاملته المنزلة التي تستحقُّها عقلاً وشرعًا؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل لأحدٍ حقًّا يلي حقَّهُ وحقَّ رسوله ﷺ إلاَّ للوالدين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة النِّساء: ٣٦).

وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

ففي هذه الآيات جعل الله سبحانه وتعالى حرمة العُقُوق كحرمة الإشراك سواءً بسواءٍ، فهو سبحانه وتعالى حَرَّم الشِّرْك، وأمر بالإحسان، ومقتضى ذلك أن يأمر بالتَّوحيد، ويُحَرِّم العقوق، فكان الشِّرْكُ ملازمًا للعقوق، والتَّوحيدُ قرينَ الإحسان[١].

---

(١) «الإحسان»: هو البِرُّ، ومنه قول الرَّسولَ ﷺ: «البِرُّ: حُسْنُ الخُلُق». رواه مسلمٌ (٢٥٥٣) عن النَّوَّاس ابن سمعانَ الأنصاريِّ.

وبرُّ الوالدين واجبٌ بالإجماع على كُلِّ أَحَدٍ من النَّاس في غير معصية الله[(١)].

■ **فضائل برّ الوالدين:**

لبرِّ الوالدين فضائل كثيرةٌ، منها ـ على جادَّة المثال لا الحصر ـ ما يأتي:

١ ـ أنَّه من أفضل الأعمال وأحبِّها إلى الله تعالى، حتَّى إنَّه مُقدَّمٌ على الجهاد في سبيله:

عن ابن مسعود ﷺ قال: سألتُ رسول الله ﷺ: **«أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟»**. قال: **«الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»**[(٢)]. قلتُ: **«ثُمَّ أيٌّ؟»**. قال: **«برُّ الوالدين»**. قلتُ: **«ثُمَّ أيٌّ؟»**. قال: **«الجهادُ في سبيلِ الله»**[(٣)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَجْزِي وَلَدٌ والدَهُ، إلاَّ أَنْ يجدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ»**[(٤)].

٢ ـ أنَّه من أعظم أسباب دخول الجنَّة:

عَنْ أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَغِمَ أَنْفُهُ[(٥)]، رَغِمَ أَنْفُهُ، رَغِمَ أَنْفُهُ!»**. قيل: **«مَنْ يا رسولَ الله؟»**. قال: **«مَنْ أَدْرَكَ والدَيْهِ عندَهُ الكِبَرُ أَحَدَهُمَا أو كليهما، ثُمَّ لم يَدْخُلِ الجنَّةَ[(٦)]»**[(٧)].

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٣٨٢).

(٢) أي في أوَّل وقتها.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٢٧) و(٢٧٨٢) و(٥٩٧٠) و(٧٥٣٤)، ومسلمٌ (٨٥).

(٤) رواه مسلمٌ (١٥١٠).

(٥) «رَغِمَ انفُهُ»: ألصق بالرَّغَامِ، وهو التُّراب، والعبارة كنايةٌ عن الذُّلِّ والصَّغَار.

(٦) «ثُمَّ لم يدخلِ الجنَّةَ»: يعني أنَّ مَنْ أَدْرَكَ والديه ـ أو أحَدَهُمَا ـ عندَهُ الكِبَرُ، فلم يبرَّهما فمات ـ دخل النَّارَ.

(٧) رواه مسلمٌ (٢٥٥١).

٣ - أنَّ رِضَا الله فِي رِضَا الوَالِدين، وسُخْطَهُ فِي سُخْطِهِمَا:

عن ابن عَـمْـرو رضي الله عنهما أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «رِضَـا الرَّبِّ في رِضَـا الوَالِدَيْنِ، وسُخْطُهُ في سُخْطِهِمَا»[1].

٤ - أنَّه سببٌ في قبول الدُّعاء:

عن ابن عُمَـرَ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثةُ نَفَرٍ يتمشَّونَ أخذهمُ المطرُ، فأَوَوا إلى غارٍ في جبلٍ، فانحطَتْ على فَمِ غارِهِم صَخْرَةٌ من الجبلِ، فانطبقَتْ عليهم، فقال بعضُهُمْ لبعضٍ: انظروا أعمالاً عملتموها صالحةً لله، فادعُوا الله تعالى بها، لعلَّهُ يُفَرِّجُهَا عنكم، فقال أحَدُهُمْ: اللهُمَّ، إنَّه كان لي والدانِ شيخان كبيرانِ، وامرأتي، ولي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عليهم، فإذا أرَحْتُ[2] عليهم حلَبْتُ، فبدأتُ بوالديَّ، فسقيتُهما قَبْلَ بَنِيَّ، وإنِّي نَأَى[3] بي ذاتَ يومِ الشَّجَرُ، فلم آتِ حتَّى أَمْسَيْتُ، فوجدتُهما قد ناما، فَحَلَبْتُ ما كنتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بالحِلاَبِ، فقمتُ عندَ رءوسِهما، أكرَهُ أَنْ أوقِظَهُمَا مِنْ نومِهما، وأكرهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبيةَ قبلهما، والصِّبيةُ يَتَضَاغَوْنَ[4] عندَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دأْبِي ودأْبَهُم، حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لنا منها فُرْجَةً نرى منها السَّماءَ، فَفَرَجَ اللهُ منها فَرْجَةً، فَرَأَوْا منها السَّماءَ...»[5]. ثُمَّ توسلَّ كُلٌّ من الثَّاني والثَّالث بصالحِ أعمالهما، فانفرجتِ الصَّخْرَةُ، فخرجوا يمشون.

---

(١) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، ورواه التِّرمذيُّ (١٨٩٩) بلفظ: «رِضَا الرَّبِّ في رِضَا الوالدِ، وسَخَطُ الرَّبِّ في سخَطِ الوالدِ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، و«الصَّحيحة» (٥١٦).

(٢) «أرَحْتُ»: رَجَعْتُ.

(٣) «نأى»: بَعُدَ.

(٤) «يَتَضَاغَوْنَ»: يَصرُخُونَ من شدَّة الجوع.

(٥) رواه البخاريُّ (٢٢١٥) و(٢٢٧٢) و(٢٣٣٣) و(٣٤٦٥) و(٥٩٧٤)، ومسلمٌ (٢٧٤٣).

٥ . برُّ الأولاد لمن بَرَّ والديه، فمنْ بَرَّ والديه بَرَّهُ أولادُهُ، ومَنْ عَقَّ والديه عَقَّهُ أولاده، فالجزاء من جنس العمل، وكما تَدِينُ تُدانُ.

ومن اللَّطائف ما ذكره الأصمعيُّ أنَّ رجلاً كان في زمن عبد الملك بن مروان، يقال له «منازل» وكان له أبٌ كبيرٌ، يقال له «فرعان» وكان الشَّابُ عاقًا لأبيه، فقال الشَّيخُ:

جزت رحِمٌ بيني وبَيْنَ منازلٍ ▫▪▫ جَزَاءً كما يستنْجِزُ الدَّيْنَ طالبُهْ

تربيتُ[1] حتَّى أصبح جعداً[2] شمرولاً[3] ▫▪▫ إذا قام ساوى غاربَ الفحل غاربُهْ

تظلمني مالي، وكذا لَوَى يدي ▫▪▫ لَوَى يَدَ اللهُ الذي لا يُغالبُهْ

وإنيّ لداعٍ دعوةً لو دَعَوتُها ▫▪▫ على جَبَلِ الرَّيان لانْقَضَّ جانبُهْ

ثم ابتلي منازل بابن يقال له «خليج»، عقه في آخر عمره، فقال:

تظلمني مالي خليجٌ[4] وعقَّني ▫▪▫ على حِينِ كانَتْ كالحِنِيِّ عظامي

تخيرته وازددته ليزدني ▫▪▫ وما بعضُ ما يزدادُ غيرُ عُرامِ[5]

لعمري لَقَدْ ربَّيْتُهُ فَرِحًا بهِ ▫▪▫ فلا يَفْرَحَنْ بَعْدِي امْرُؤٌ بغلامِ

فأراد الوالي ضربَهُ، فقالَ الابنُ للوالي: لا تعجلْ عليَّ، هذا منازل بن فرعان الذي يقول منه أبوه:

جزت رحِمٌ بيني وبَيْنَ منازلٍ ▫▪▫ جَزَاءً كما يستنْجِزُ الدَّيْنَ طالبُهْ

---

(١) «تربت»: أي تربى. (٢) «الجعد»: الطويل.
(٣) «شمرولا»: أي: غنيّاً قويّاً. (٤) «خليج»: اسم الولد.
(٥) «العرام»: الشدة ولاشراسة والأذى.

فقال الوالي: «يا هذا عقَقْتَ وعُقِقْتَ»[(١)].

وقال آخر يعاتب ولده الذي عقه:

غـدوتك مـولوداً ومنْتُك يافِـعًـا ... تُـعَـلُّ بمـا أجـنـي عـلـيـك وتـنـهـلُ

إذا لـيـلـةٌ نَـالـتْـكَ بـالـشـكـو لـم أبـتْ ... لـشـكـواك إلا سـاهـرًا أتـمـلـمـلُ

كـأني أنـا المطروقُ دونك بـالـذي ... طُرِقْتَ بـه دُونْـي وعـيـنـي تـهـمـلُ

تـخـافُ الـرَّدى نـفـسي عليك وإنهـا ... لـتـعـلـمُ أن المـوتَ وقـتٌ مـؤجـلُ

فلمـا بلغتَ السنَّ والغـايـةَ التي ... إلـيـهـا مـدى مـا كـنـتُ أؤملُ

جـعـلـتَ جـزائـي غِـلـظـةً وفـظـاظـةً ... كـأنـك أنـت المـنـعـم المـتـفـضـلُ

فَـلَـيْـتَـكَ إنْ لَـمْ تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتـي ... فـعـلـت كـمـا الجـارُ المُجَـاورُ يـفـعـلُ

فَـأوْلَـيْـتَـنِـي حَـقَّ الجِـوارِ ولـم تـكـن ... علـيَّ بمـالـي دُونَ مَـالِـكَ تَـبْـخَـلُ

تـراهُ مُـعِـدًا للخـلاف كـأنـه ... بـردٍّ عـلـى أهـل الـصـواب مُـوكَّـلُ[(٢)]

ـ أخي الحبيب ـ اتقِ دعوةَ الوالد عليك؛ فإنها سهمٌ صائبٌ لا يخطئ أبدًا.

عن أبي هريرةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ، لا شكَّ فيهنَّ: دَعْوَةُ الوالد على وَلَده، ودَعْوَةُ المسافر، ودعوةُ المَظْلُوم»[(٣)].

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٨٦ - ٨٧).

(٢) هذه الأبيات تنسب ليحيى بن سعيد، ولابن عبد الأعلى، ولأبي العباس الأعمى، وتنسب ـ أيضًا ـ لأمية بن أبي الصلت، انظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٨٧)، و«كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٢٠٧ - ٢٠٨) و«بر الوالدين» للإمام الطرطوسي (ص١٠٨، ١٠٩).

(٣) رواه أبو داودَ (١٥٣٦)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٣١)، و«الصَّحيحة» (٥٩٦).

■ **شروط برِّ الوالدين:**

لبرِّ الوالدين ثلاثة شروطٍ[١]:

الأوَّل ـ أَنْ يُؤْثِرَ الولد رِضَا والديه على رِضا نفسه، وزوجته[٢]، وأولاده، والنَّاس أجمعين.

الثَّاني ـ أَنْ يطيعهما في كُلِّ ما يأمرانه به، وينهيانه عنه، سواءٌ أوافق رغباته أم لم يوافقها، ما لم يأمراهُ بمعصية الله سبحانه وتعالى، أو ما فيه ضررٌ عليه.

الثَّالث ـ أَنْ يُقَدِّم لهما كُلَّ ما يلحظ أنَّهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفسٍ وسرورٍ مع شعوره بتقصيره في حقِّهما، ولو بذل لهما دَمَهُ ومالَهُ.

■ **الأسبابُ المعينةُ على برِّ الوالدين:**

١ ـ تقوى الله تعالى، والاستعانة به على برِّهما.

---

(١) انظر: «برّ الوالدين» للحنّاويِّ ـ يرحمه اللهُ ـ (ص٢٥).

(٢) لا شكَّ أنَّ برَّ الوالدين مقدَّمٌ على رِضَا الزَّوجة، فعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قال: **«كانت تحتي امرأةٌ، وكنتُ أُحبُّها، وكان عُمَرُ يكرهُهَا، فقال لي: طَلِّقْهَا، فأَبَيْتُ، فأتى عُمَرُ النَّبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النَّبيُّ ﷺ: «طَلِّقْهَا»**. رواه أبو داودَ ـ واللَّفظ له ـ (٥١٣٨)، والتِّرمذيُّ (١١٨٩)، انظر «صحيح التَّرغيب والترهيب».

ـ وعن مُعَاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: **أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلماتٍ، قال: «لا تُشركْ بالله شيئًا، وإنْ قُتِلْتَ، وحُرِّقْتَ، ولا تَعُقَّ والديك، وإنْ أمراك أَنْ تخرج من أَهْلِكَ ومالِكَ»**. «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب».

ـ عن أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قال: **إنَّ رجلاً أتاه، فقال: إنَّ لي امرأةً، وإنَّ أمِّي تأمُرُني بطلاقِها، فقال أبو الدَّرْدَاء: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الوالدُ أَوْسَطُ أبوابُ الجنَّةِ، فإنْ شئْتَ فأضعْ ذلك البابَ، أو احْفَظْهُ»**. رواه التِّرمذيُّ ـ واللَّفظ له ـ (١٩٠٠)، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧١٤٥)، و«الصَّحيحة» (٩١٠).

٢ ـ استحضار فَضْل الوالدين الذي لا يُنْكِرُهُ أحدٌ.

٣ ـ استحضار فضائل البِرِّ، وعواقب العُقُوق.

٤ ـ قراءة سِيَر البارِّين بوالديهم.

٥ ـ أن يضعَ الولدُ نفسَهُ موضعَ والديه.

▪ صُوَرٌ مِنْ بِرِّ الوالدين:

▪ **لبرِّ الوالدين صُوَرٌ كثيرةٌ، منها:**

١ ـ كَثْرَةُ الدُّعاء والاستغفار لهما في الحياة وبعد الممات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»**[(١)].

وعن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أربعٌ مِنْ عَمَلِ الأحياءِ تَجْري للأمواتِ: رَجُلٌ تَرَكَ عَقِبًا[(٢)] صالحًا، يدعو له، ينفعهُ دعاؤُهُمْ..»**[(٣)].

٢ ـ البشاشة عند لقائهما، وتقبيل أيديهما ورأسيهما.

٣ ـ قضاء شؤونهما وديونهما.

٤ ـ إدْخال السُّرور عليهما بما يقدر عليه المرءُ من الأسباب، مثل: الهديَّة، والسَّفر بهما، والمزَاح معهما، ونحو ذلك.

٥ ـ السَّهر على راحتهما خصوصًا عند مرضهما.

---

(١) رواه مسلمٌ (١٦٣١).

(٢) «العَقِب»: الولدُ غالبًا، وتلحقُ به الذُّرِّيَّة والورثة.

(٣) رواه الطَّبَرانيُّ في «الكبير»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٨٨٨).

٦ ـ تطييب سمعتهما بالذِّكر الجميل.

٧ ـ إكرام أصدقائهما وأحبابهما.

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أبرَّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أهْلَ وُدِّ أبيهِ بعْدَ أنْ يُوَلِّيَ الأبُ»**(١).

يقول النَّوويُّ ـ يرحمه اللهُ ـ:

«وفي هذا فضلُ صلة أصدقاء الأب، والإحسان إليهم، وإكرامهم، وهو متضمِّنٌ لبرِّ الأب وإكرامه لكونه بسببه، وتلحقُ به أصدقاء الأمِّ، والأجداد، والمشايخ، والزَّوج، والزَّوجة»(٢).

ومن إكرام الأب إكرام العمِّ لقول رسول الله ﷺ: **«إنَّ عَمَّ الرَّجلِ صِنْوُ أبيه(٣)»**(٤).

ومن البرِّ بالأمِّ الإحسان إلى الخالة لقول رسول الله ﷺ: **«الخَالَةُ بمنزلةِ الأمِّ»**(٥). وقوله: **«الخالةُ والدةٌ»**(٦).

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٥٢).

(٢) «بلوغ الأماني» (١٩/ ٤١).

(٣) «صِنْوُ أبيه»: هذا تشبيهٌ للأخوين فأكثر من أبٍ واحدٍ، وهم فروعه كالنَّخلتين فأكثر تفترقان من أصلٍ واحدٍ، والصِّنْو: هو المِثْل، وجمعه وتثنيته صِنْوان، كقِنْو وقِنْوان.

(٤) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» عن ابن مسعودٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢١١٣).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٦٩٩) و(٤٢٥١) عن البَرَاء.

(٦) رواه ابن سعدٍ عن محمَّد بن عليٍّ مرسلاً، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٣٤٠).

والبرُّ بالخالة له فضلٌ عظيمٌ، فعن ابن عُمرَ رضي الله عنهما: **أنَّ رجلاً أذنب ذنباً كبيراً، وتساءل إنْ كان له توبةٌ، فدلَّهُ رسولُ الله ﷺ على بابٍ من البرِّ، يُكفِّرُ عنه ما أذنب، فقال لَهُ: «ألك والدٌ؟». قال: «لا». قال: «فَلَكَ خالةٌ؟». قال: «نَعَمْ». قال رسول الله ﷺ: «فبِرَّها إذن»** [(١)].

٨ ـ المشي أَمَامَهُمَا ليلاً، وخَلْفَهُمَا نهاراً.

٩ ـ التَّصَدُّقُ عنهما بعد مماتهما.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: **أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ ﷺ إنَّ أبي مات، وترك مالاً، ولم يُوْصِ، فَهَلْ يُكَفِّرُ عنه إنْ تَصَدَّقَ عَنْهُ؟». قال: «نَعَمْ»** [(٢)].

وضدُّ البرِّ العُقُوق، وهو مُحَرَّمٌ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، بل من كبائر الذُّنوب.

عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: **«ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً. قالوا: «بلى، يا رسول الله». قال: «الإشراكُ بالله، وعُقُوقُ الوالدين»** [(٣)].

«ولو لم يُحرِّم اللهُ العُقُوقَ، لكان من نبل الأخلاق عدم عُقُوقِهِمَا، فكرام النَّاس تتقدَّم منزلة والديهم على النَّفسِ، والأهلِ، والولد، والنَّاسِ أجمعين.

وقد تجد الرَّجلَ يحسن إلى أصحابه، ولا يَمَلُّ الجلوسَ معهم، فإذا جلس مع أبيه أو أمِّه ساعةً من نهار، وجدته متململاً، كأنَّما هو على الجمر، فهذا ليس ببارٍّ، بل البار مَنْ ينشرحُ صَدْرُهُ لأمِّه وأبيه، ويخدمهما على أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص على رضاهُمَا بكُلِّ ما يستطيعُ» [(٤)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (١٩٠٤)، انظر: «صحيح سنن التِّرمذيِّ» للألبانيِّ (١٥٥٤).
(٢) رواه مسلمٌ (١٦٣٠).
(٣) رواه البخاريُّ (٢٦٥٤) و(٥٩٧٦) و(٦٢٧٣) و(٦٩١٩)، ومسلمٌ (٨٧).
(٤) «مكارم الأخلاق» للعلاَّمة ابن عثيمين ـ يرحمه الله ـ (ص٤١).

■ صُوَرٌ مِنْ عُقُوقِ الوالدين:

■ للعقوق صورٌ كثيرةٌ، منها:

١ ـ إبكاء الوالدين وتحزينهما بالقول أو بالفعل.

عن ابن عَمْـرٍو رضي الله عنه قال: **أتى رجلٌ رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسولَ الله، إني جئتُ أريدُ الجهادَ معك؛ أبتغي وَجْهَ الله، والدَّارَ الآخرةَ، ولقد أتيت، وإنَّ والديَّ يبكيان». قال: «فَارْجِعْ إليهما، فَأَضْحِكْهُمَا كما أَبْكَيْتَهُمَا»**[1].

٢ ـ التَّضجُّر من مطالبهما، والتَّأفُّف منهما، ونهرهما، ورفع الصَّوت عليهما، والعبوس عند لقائهما، والنَّظر إليهما شزرًا.

يقول اللهُ سبحانه وتعالى: **﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ[2] وَلَا تَنْهَرْهُمَا[3] وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ[4] وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾** (سورة الإسراء: ٢٣ - ٢٤).

٣ ـ شَتْمُهُمَا، بَلْ إنَّ التَّسبُّبَ إلى شَتْمِهِمَا مِنَ الكبائر، فكيفَ بِشَتْمِهِمَا مُبَاشرةً؟!.

---

(١) رواه أبو داودَ (٢٥٢٨)، وابْنُ مَاجَهْ ـ واللَّفظ له ـ (٢٧٨٢).

(٢) «أُفٌّ»: كلمة تضجُّرٍ وكراهة، وهي اسم فعل مضارع.

(٣) «لا تنهرْهما»: لا تزجُرْهما عمَّا يتعاطيانه ممَّا لا يعجبك.

(٤) «اخفِضْ لهما جَنَاح الذُّلِّ من الرَّحمة»: تواضعْ رحمةً لهما، وشفقةً عليهما.

عن ابن عَمْـرٍو رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ والدَيْهِ». قالوا: «يا رسول الله، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ والدَيْهِ؟!». قال: «نَعَمْ، يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[1].

٤ ـ انتقاد مـا تُعِدُّهُ الوالدةُ من الطَّعام، بل إنَّ الطَّعام لا يُعَـابُ مطلقًا، فكيف إذا كان من إعداد يد الوالدة؟!.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عاب طعامًا قَطُّ، كان إذا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وإنْ لَمْ يَشْتَهِهِ سَكَتَ»[2].

٥ ـ إصدار الأوامر إليهما.

٦ ـ تشويه سمعتهما أمام النَّاس بذكر معائبهما، والمآخذ عليهما.

٧ ـ عدم الإسراع في قضاء شئونهما ممَّا يسبِّب عندهما الضِّيق.

٨ ـ ترك الإصغاء لحديثهما.

٩ ـ البخل عليهما، وتعداد الأيادي.

١٠ ـ البقاء خارج المنزل لمدَّةٍ طويلةٌ مع حاجة الوالدين إلي الولد، وعدم إذنهما.

١١ ـ إيداعهما دُور العجزة والمسنِّين.

١٢ ـ تقديم طاعة الزَّوجة عليهما.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٧٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٩٠).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٦٣) و(٥٤٠٩)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٠٦٤).

صِلَةُ الرَّحِمِ

الصِّلة - بكسر الصَّاد المهملة -: مصدر وَصَلَهُ كوَعَدَهُ عِدَةً.

والرَّحم: هم القرابة من ذوي النَّسب والأصهار.

وصلة الرَّحم كنايةٌ عن الإحسان إلى الأقـارب، والتَّعطُّف عليهم، والرِّفق بهم، والرِّعاية لأحوالهم، وإن تعدُّوا وأساءوا.

وصلة الرَّحم من الحقوق التي دعَتْ إليها الفطرة السَّليمة، وقرَّرتها الشَّريعة السَّمحة.

فللقريب الذي يتَّصل بك في القرابة حقٌّ هذه القرابة بحسب قربه.

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ (سورة الإسراء: ٢٦). وقال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (سورة النساء: ٣٦).

ولقد حثَّ الرَّسول ﷺ على توثيق الصِّلات بين الأقارب.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتَّقوا اللهَ، وصِلُوا أرحامَكُم»[(١)].

عَلَيْكَ بِبِرِّ الوالدينِ كِلَيْهِمَا ... وبِرِّ ذَوِي القُربَى، وبِرِّ الأباعِدِ
ولا تَصْحَبَنَّ إلاَّ تَقِيّاً مُهَذَّباً ... عَفِيفاً، ذَكِيّاً، مُنْجِزاً للمَوَاعِدِ[(٢)]

---

(١) رواه ابن عساكر، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٠٨)، و«الصَّحيحة» (٨٦٩).
(٢) «جواهر الأدب» لأحمدَ الهاشميِّ (ص ٦٦١).

والإحسـان إلى الأقارب يكون إمَّـا ببذل الجاه، أو النَّفع البـدنيّ، أو النَّفع الماليّ بحسب مـا تتطلّبه قوَّة القـرابة والحاجة، فـإن لم يتيسَّـر هذا ولا ذاك، فليكن بخُلُقٍ حَسَنٍ: من كلمـةٍ طيِّبةٍ، وبسط الـوجه، والطَّلاقة، ولين الجـانب، وخفض الجَنَاح، ونحو ذلك ممَّا يجلب التَّحابَّ بين الأقارب.

عن أبي هريرةَ ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: **«إنَّكم لا تَسَـعُـونَ النَّاسَ بأموالِكُمْ، ولكنْ لِيَسَعْهُمْ منكم بَسْطُ الوَجْهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ»**[١].

وقال رسول الله ﷺ: **«بِلُّوا**[٢] **أَرْحَامَكم، ولَوْ بالسَّلام»**[٣].

وحَقُّ القرابة قد ضُيِّعَ في هذا الزمان من قِبَلِ كثيرٍ من النَّاس إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّك، فتجـد الواحد منهم لا يصل قرابتـه لا بالجاه، ولا بالمال، ولا بالخُلُق، تمضي الأيَّام، والشُّـهور والسِّنون ما رآهم، ولا زارهم، ولا تحـبَّب بهـديَّةٍ إليـهم، ولا جلب لهم منفعـةً، أو دفع عنهم مَضَـرَّةً، بل ربُّما ـ إلى جـانب ذلك ـ أساء إليـهم بالقول، أو بالفعل، أو بهما معًا، يصل البعيد، ويقطع القريب.

ومن النَّاس مَنْ يعـامل قرابتـه بالمِثْل، إنْ وصلوه وصلهم، وإنْ قطعوه قطـعهم، وهذا ليس بواصلٍ في الحـقـيقـة، بل هو مكافيءٌ للـمعـروف بمثله، والمُكافـأة على المعروف يشتـرك فيها القريبُ وغيـرُهُ، والواصل ـ حقيقةً ـ هو مَنْ يصل قرابتـه ابتغاءَ وجه الله، ولا يُبالي سواءً وصلوه أم لا.

---

(١) رواه أبو يَعْلَى، وصحَّحه الحاكم.

(٢) «بلوا»: أي: نَدُّوها بصلتها، وهم يطلقون النداوة على الصلة كما يطلقون العبس على القطيعة.

(٣) «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٧٧٧)، من حديث سويد بن عامر.

عن ابن عَمْرو ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«ليس الواصلُ بالمُكافئ، ولكنَ الواصلُ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها»**[1].

ولقد حثَّنا الرَّسولُ ﷺ على أداء حقِّ الرَّحم، وإنْ عاملونا بالجفوة، والغلْظَة، والشَّرِّ في حين أنَّه يُطمئننا على مستقبلنا، ويزيح عن قلوبنا اليأس.

عن أبي هُرَيرةَ ﷺ أنَّ رجلاً قال: **«يا رسولَ الله، إنَّ لي قرابةً أصِلُهُمْ ويقطعونني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويَجْهَلُونَ عليَّ». فقال: «لَئِنْ كُنْتَ كما قلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ[2] المَلَّ[3]، ولا يزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهيرٌ[4] عليهم، ما دُمْتَ على ذلك»**[5].

قال محمَّدُ بنُ عبد الله الأزْديُّ:

وحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ، وسُوءِ صنيعةٍ ... مُنَاواةُ[6] ذي القُرْبَى، وإنْ قيلَ قاطعُ

ولكنْ أُواسِيهِ، وأنسى ذُنُوبَهُ ... لتُرجِعَهُ يوماً إليَّ الرَّواجعُ

ولا يستوي في الحُكْمِ عَبْدَانِ: واصلٌ ... وعبدٌ لأرحامِ القرابةِ قاطعُ[7]

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٩١).

(٢) «تُسِفُّهُم»: من السفوف أي: تُطْعِمُهُم وتُلْقِمُهُم.

(٣) «المَلُّ»: قال الأزهريُّ: أصل المَلَّة: التُّربةُ المحماةُ تُدْفَنُ فيها الخُبزةُ.

- وقال القُتَبيُّ: المَلُّ: الجمرُ، ويُقَال للرَّماد الحارِّ - أيضًا - المَلُّ، «فالمَلَّة»: كوضع الخبزة. يقول: إذا لم يشكروك، فإنَّ عطاءَك إيَّاهم حرامٌ عليهم، ونارٌ في بُطُونهم. ففيه تشبيهٌ لما يلحقهم من الإثم بما يَلْحَقُ آكلَ الرَّماد الحارَّ من الألم.

(٤) «الظَّهير»: المُعين والنَّاصر.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٥٥٨).

(٦) «مُنَاواة»: مُعَاداة.

(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٥٣).

فضائل صلة الرَّحم:

لصلة الرَّحم فضائلُ جمَّةٌ، منها:

١ ـ أنَّها شعار الإيمان بالله، واليوم الآخر.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كان يؤمنُ باللهِ، واليومِ الآخرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1].

٢ ـ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يصل الواصل في الدُّنيا والآخرة، فيمدُّه بالرَّحمة، ويُيَسِّرُ له الأمور، ويُفرِّج عنه الكُرُبات:

عن عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال اللهُ تعالى: أنا الرَّحمنُ، وهي الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لها اسْمًا مِن اسمي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَها بَتَتُّهُ**[2]»[3].

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حتَّى إذا فَرَغَ منهم**[4]**، قامتِ الرَّحِمُ، فقالتْ: هذا مَقَامُ العائذِ**[5] **بكَ مِنَ القَطِيْعَةِ، قال: نَعَمْ، أمَا تَرْضَيْنَ أنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟، قالتْ: بلى، قال: فذلك لَكِ. ثُمَّ قال رسول الله ﷺ:**

---

(١) رواه البخاريُّ (٦١٣٨).

(٢) «بتَتُّهُ»: قطَعْتُهُ.

(٣) رواه أبو داودَ (١٦٩٤)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٣١٤)، و«الصَّحيحة» (٥٢٠).

(٤) «فَرَغَ منهم»: كمل خَلْقَهم.

(٥) «العائذ والمستفيد»: هو المعتصمُ بالشَّيء، الملتجئ إليه.

«اقْرَءُوا إنْ شئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [(١)] (سورة محمَّد: ٢٢، ٢٣)».

٣ ـ أنَّها أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى بَعْدَ الإيمان به:

عن رجلٍ من خثـعمٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أحبُّ الأعمـالِ إلى اللهِ إيمانٌ باللهِ، ثمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ»** [(٢)].

٤ ـ أنَّها مِنْ أعظم أسباب دخول الجنَّة:

عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: **«دُلَّني على عَمَلٍ أعْمَلُهُ يُدْنيني مِنَ الجنَّةِ، ويُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ». قال: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ ذا رَحِمِكَ». فلمَّا أدْبَرَ** [(٣)]، **قال رسول الله ﷺ: «إنْ تَمَسَّكَ بما أُمِرَ بِهِ، دَخَلَ الجنَّةَ»** [(٤)].

٥ ـ أنَّها من أسباب البركة في الرِّزق والعمر:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَحَبَّ أنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ** [(٥)]، **ويُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ** [(٦)]، **فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»** [(٧)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٣٠) و(٥٩٨٧) و(٥٧٠٢)، ومسلمٌ (٢٥٥٤).

(٢) رواه أبو يَعْلَى في «مسنده»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٦).

(٣) «ادبر»: ولَّى وذهب.

(٤) رواه البخاريُّ (١٣٩٦)، (٥٩٨٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ لَهُ ـ (١٣).

(٥) «يُبْسَط لَهُ في رزْقِهِ»: يُوسَّع لَهُ فيه.

(٦) «يُنْسَأ لَهُ في اثرِهِ»: يُؤَخَّر له في أجلِهِ وعمرِهِ.

(٧) رواه البخاريُّ (٢٠٦٧) و (٥٩٨٦)، ومسلمٌ (٢٥٥٧).

٦ ـ أنَّها تُعَمِّرُ الدِّيار:

عن عائشة ﵂ قالتْ: قال رسول الله ﷺ: **«صِلَةُ الرَّحِمِ، وحُسْنُ الخُلُقِ، وحُسْنُ الجِوارِ. يُعَمِّرْنَ الدِّيارَ، ويَزِدْنَ في الأعمارِ»**[(١)].

٧ ـ أنَّها تجلب محبَّة الله تعالى للمتواصِلِيْنَ فيه:

عن عُبَادَةَ بن الصَّامتِ ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«حُقَّتْ**[(٢)] **محبَّتي للمتواصِلِيْنَ فيَّ»**[(٣)].

٨ ـ أنَّ الصَّدقةَ على ذي الرَّحم أعظم أجرًا من الصَّدقة على المسكين:

عن سلمانَ بن عامر ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ الصَّدَقَةَ على المسكين صَدَقَةٌ، وعلى ذي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صدقةٌ، وصِلَةٌ»**[(٤)].

وعن زينب امرأة عبد الله قالتْ سألتُ رسولَ الله ﷺ: **«أَيُجْزِئُ عنِّي من الصَّدقة النَّفقة على زوجي، وأيتامٍ في حَجْري؟». فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ، ولها أجران: أَجْرُ القَرَابَةِ، وأَجْرُ الصَّدقةِ»**[(٥)].

---

(١) تقدَّم تخريجهُ.

(٢) «حُقَّتْ»: وَجَبَتْ.

(٣) رواه أحمدُ في «المسند»، والحاكمُ في «المستدرك»، والطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٤٣٢١).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٦٥٨)، والنَّسائيُّ (٢٥٨٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٨٥٨).

(٥) رواه البخاريُّ (١٤٦٦)، ومسلمٌ (١٠٠٠).

وعن أمِّ المؤمنين مَيْمُونَةَ بنت الحارث رضي الله عنها أنَّها أعتقتْ وَلِيْدَةً[١] في زمانِ رسول الله ﷺ، فذكرتْ ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال: **«لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوالَكِ، كان أَعْظَمَ لأجْرِكِ»**[٢].

٩ - أنَّها سببٌ لشيوع المحبَّة والترَّابط بين الأقارب:

عن عَمْرِ بن سَهْلٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«صِلَةُ القَرابةِ مَثْراةٌ في المالِ، مَحَبَّةٌ في الأهلِ، مَنْسَأَةٌ في الأجَلِ»**[٣].

١٠ - أنَّها أعجلُ الطَّاعة ثوابًا:

عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«وإنَّ أَعْجَلَ الطَّاعةِ ثوابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إنَّ أَهْلَ البيتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً، فَتَنْمُو أموالُهُمْ، ويَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، إذا تواصَلُوا»**[٤].

وضدُّ الصِّلة القطيعة، وهي من كبائر الذُّنوب.

عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يدخلُ الجنَّة قاطعُ رَحِمٍ»**[٥].

وقطيعة الرَّحم مِنْ أَعْجَلِ المعصية عقوبةً.

---

(١) «الوليدةُ»: الأَمَةُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٩٢) و(٢٥٩٤)، ومسلمٌ (٩٩٩).

(٣) رواه الطَّبَرانيُّ في «الأوسط»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٣٧٦٨).

(٤) رواه الطَّبَرانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٥٧٠٥)، و«الصحيحة» (٩١٥) و(٩٧٨).

(٥) رواه البخاريُّ (٥٩٨٤)، ومسلمٌ (٢٥٥٦).

عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا ـ مع ما يدخر له في الآخرة ـ مثل البغي، وقطيعة الرحم»(١).

■ *أسباب قطيعة الرحم:*

الأسباب كثيرةٌ جداً، ولعلَّ من أبرزها ما يلي:

١ ـ الجهل بحقوق الأقارب.

٢ ـ ضعف التَّقوى.

٣ ـ الكبر.

٤ ـ الانقطاع الطَّويل الذي يسبِّبُ الوحشةَ والنِّسيان.

٥ ـ التَّكلُّف الزَّائد من قِبَلِ الموصول، ممَّا يجعل الواصل لا يحرص على زيارته؛ لئلا يقعَ في الحَرَجِ.

٦ ـ اللاَّمبالاة، وعدم الاكتراث والاهتمام بالزَّائرين من الأقارب.

٧ ـ العتاب الشَّديد من بعض الأقارب، ممَّا يسبِّبِ النفرة منه.

٨ ـ الشُّحُّ والبخل ممن آتاه اللهُ بسطةً في الرِّزق، فتراه لا يواصل قرابته؛ لئلاَّ يخسرَ عليهم من ماله كاستدانتهم منه، وغير ذلك.

٩ ـ نسيان بعض الأقارب في الولائم، الأمر الذي يسبِّبِ سوءَ الظَّنِّ فيما بينهم.

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٩٠٢)، والتِّرمذيُّ (٢٥١١)، وابن ماجهْ (٤٢١١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٥٧٠٤)، و«الصَّحيحة» (٩١٨).

١٠ ـ الوشاية والإصغاء إليها.

١١ ـ المُزَاح الخارج عن حَدِّ الاعتدال.

٢ ـ المَنُّ وتعداد الأيادي، والمطالبة بالمِثْلِ.

١٣ ـ الطَّلاق بين الأقارب.

١٤ ـ تأجيل قسمة الميراث بين الأقارب.

فعلى الأقارب أَنْ يحاولوا اجتناب هذه الأسبـاب المؤديَّة للقطيعة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

حُسْنُ الجِوَارِ

للجار على جاره حقٌّ عظيمٌ، وهذا الحقُّ يتفاوتُ مِن جارٍ لآخر بحسب منزلة الجار.

■ أقسام الجِيران:

الجيران ثلاثةٌ:

الأوَّل - جارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ: وهو الجار المسلم القريب منك نَسَبًا، له حقُّ الجِوَارِ، وحقُّ الإسلام، وحقُّ القرابة.

الثَّاني - جارٌ له حقَّانِ: وهو الجار المسلم غير القريب منك في النَّسَب، له حقُّ الجِوَارِ، وحقُّ الإسلام.

الثَّالث - جارٌ له حقٌّ واحدٌ: وهو الجارُ الكافرُ، له حقُّ الجِوَارِ.

أَكْرِمِ الجارَ، وراعِ حَقَّهُ ■■ إنَّ عِرفانَ الفَتَى الحَقَّ كَرَمْ[1]

■ عظمةُ منزلةِ الجار:

للجار منزلةٌ عظيمةٌ، ومكانةٌ عليَّةٌ، يدلُّ على ذلك كَثْرَةُ النُّصوص الواردة في الحثِّ على الإحسان إليه، والتَّرغيب في ذلك، ولْنَقْتَطِفْ من تلك النُّصوص ما يلي:

(١) «جواهر الأدب» (ص٦٦٠).

١ ـ قال الله سبحانه: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ[١] وَالْجَارِ الْجُنُبِ[٢] ﴾ (سورة النساء: ٣٦).

٢ ـ وعن ابن عُمَرَ وعائشةَ رضي الله عنهم قالا: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجار، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سيُوَرِّثُه»[٣][٤]**.

وعن ابن عَمْرٍو رضي الله عنه أنَّه ذُبِحَتْ له شاةٌ في أهلِه، فلمَّا جاء قال: **أَهْدَيْتُمْ لجارنا اليهوديِّ؟، أَهْدَيْتُمْ لجارنا اليهوديِّ؟، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما زال جبريلُ ...»[٥]**.

٣ ـ وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كان يؤمنُ باللهِ، واليومِ الآخرِ، فلا يُؤْذِ جارَهُ»[٦]**.

وفي روايةٍ لمسلمٍ: **«فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ»**.

٤ ـ وعنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ!». قيل: «مَنْ يا رسولَ اللهِ؟!». قال: «الذي لا يأمنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ»[٧][٨]**.

وفي رواية: **«لا يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ لا يأمنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ»[٩]**.

---

(١) «الجار ذي القُرْبَى»: الذي بَيْنَك وبَيْنَهُ قَرَابَةٌ.
(٢) «الجار الجُنُب»: الذي ليس بَيْنَك وبَيْنَهُ قَرَابَةٌ.
(٣) أي ظننت أنَّهُ سيبلغني عن الله الأمر بتوريث الجارِ جارَهُ. وفي هذا توكيدٌ عظيمٌ على الحثِّ على رعاية حقوقه.
(٤) رواه البخاريُّ (٦٠١٤) و(٦٠١٥)، ومسلمٌ (٢٦٢٤) و(٢٦٢٥).
(٥) رواه التِّرمذيُّ (١٩٤٣)، وقال: حَسَنٌ غريبٌ.
(٦) رواه البخاريُّ (٥١٨٥) و(٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦٤٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).
(٧) «البَوَائِقُ»: الغَوَائل والشُّرور، والمفرد بائقةٌ.
(٨) رواه البخاريُّ (٦٠١٦).
(٩) رواه مسلمٌ (٤٦).

٥ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساءَ المسلماتِ، لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتِها ولو فِرْسِنَ[1] شاةٍ»[2].

فعليك ـ أخي الكريم ـ بالإحسان إلى جارك بتقديم الهدايا ـ ولو كانتْ رمزيَّةً ـ له في المناسبات؛ فإنَّ الهديَّة تجلبُ المودَّة، وتزيل العداوة، أحقُّ الجيران بها أقربهم منك بابًا.

عن عائشةَ ﵂ قالتْ: قلتُ: «يا رسُولَ الله، إنَّ لي جارَيْنِ، فإلى أيِّهما أُهدي؟». قال: «إلى أقْرَبِهِما مِنْكِ بابًا»[3].

٦ ـ وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعْ جارٌ جارَهُ أنْ يغْرزَ خَشَبَةً في جدارِه». ثُمَّ يقولُ أبو هريرةَ: «مالي أراكم عنها مُعْرِضِيْنَ؟![4] والله، لأرمينَّ بها بَيْنَ أكتافكم[5]»[6].

وفي رواية: «نهى رسولُ الله ﷺ أنْ يمنعَ جارَهُ أنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ في دارِه»[7].

٧ ـ وعن أبي ذرٍّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً[8]، فأكثرْ ماءَها، وتعاهدْ جيرانَك».

---

(١) قال الجوهريُّ: «الفِرْسِن مِنَ البَعِير كالحَافِرِ مِنَ الدَّابَّة». قال: «ورُبَّما اسْتُعِيْرَ في الشَّاة».

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٦٦) و (٦٠١٧) ومسلمٌ (١٠٣٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٢٥٩) و(٢٥٩٥) و(٦٠٢٠).

(٤) يعني عن هذه السُّنَّة.

(٥) أي: بينكم. وفيه وجوب تمكين الجار من وضع الخَشَب على جدار جارِه، وهو مَذْهَبُ أحمدَ وغيرِه.

(٦) رواه البخاريُّ (٢٤٦٣)، ومسلمٌ (١٦٠٩).

(٧) رواه البخاريُّ (٥٦٢٧).

(٨) أي ذا مَرَقٍ من لحم دجاجٍ، وغنمٍ، ومح، ذلك.

وفي رواية: أنَّ أبا ذرٍّ قال: إنَّ خليلي ﷺ أوصاني: «إذا طبخْتَ مَرقًا، فأكثر ماءَهُ، ثُمَّ انظر أهلَ بيتٍ مِنْ جيرَتِكَ، فَأَصِبْهُمْ منها بمعروفٍ»[(١)].

٨ ـ وعن ابن عَمْرٍو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحابِ عندَ اللهِ خيرُهُمْ لصاحبِهِ، وخيرُ الجيرانِ عندَ اللهِ خيرُهُمْ لجارِهِ»[(٢)].

٩ ـ وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزِّنا؟». قالوا: حرامٌ حرَّمه اللهُ ورسولُهُ، فهو حَرَامٌ إلى يوم القيامةِ. فقال رسول الله ﷺ: «لأنْ يَزْنيَ الرَّجلُ بعشرِ نِسْوَةٍ أيسرُ عليه مِنْ أنْ يَزْنيَ بامرأةِ جارِهِ». قال: «ما تقولون في السَّرقةِ؟». قالوا: «حرَّمها اللهُ ورسولُهُ، فهي حَرَامٌ». قال: «لأنْ يَسْرِقَ الرَّجلُ مِنْ عشرةِ أبياتٍ أَيْسَرُ عليه مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بيتِ جارِهِ»[(٣)].

١٠ ـ وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قيل: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ فلانةَ تُصَلِّي اللَّيلَ، وتَصُومُ النَّهارَ، وفي لسانِهَا شَيءٌ، تُؤْذي جيرانَهَا، سليطةٌ». قال: «لا خيرَ فيها، هي في النَّارِ». وقيل له: «إنَّ فُلانةَ تُصَلِّي المكتوبةَ، وتصومُ رَمَضَانَ، وتتصدَّقُ بالأثوارِ[(٤)]، وليس بها شَيءٌ غيرُهُ، ولا تُؤْذي أحداً». قال: «هي في الجنَّةِ»[(٥)].

ولفظ الإمام أحمد: «ولا تُؤْذي بلسانِهَا جيرانَهَا».

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٥).

(٢) رواه الترمذيُّ (١٩٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٢٧٠)، و«الصَّحيحة» (١٠٣).

(٣) رواه أحمدَ في «المسند»، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، والطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٠٤٣)، و«الصَّحيحة» (٦٥).

(٤) «الأثوار»: هو اللَّبن الجامد المستحجر.

(٥) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٩)، وصحَّحه الحاكم (٤/ ١٦٦)، ووافقه الذَّهبيُّ.

والنُصوص التي جاءتْ بالوصيَّة بالجار، ومراعاة حقِّه أكثر من ذلك، ولكن يكفي منَ القلادة ما أحاط بالعُنُق.

فـمـا أَحَـدٌ مِنَّا بمُهْـدٍ لجـارِه ... أذاةً ولا مُـزْرٍ بِهِ وهو عـائدُ

لأنَّا نَرَى حَقَّ الجِـوَارِ أمـانـةً ... ويحـفظُهُ مِنَّا الكَريمُ المعاهدُ[1]

ومِن اللَّطائف هنا أنَّ امرأً توءَمًا كان له منزلٌ أمام أبي دُلَف بالزَّوْرَاءِ[2]، فركبه مئُون مِنَ الدُّيون حتَّى تضاءل، واحتاج إلى بيع داره، فساومها بألف دينار، فقيل له: إنَّ دارك لا تساوي أكثر من خمسمائة دينار، فقال: أَجَلْ، ولكنِّي أبيعها بخمسمائة، وأبيع جوارها بخمسمائة أخرى، فبلغ القولُ أبا دُلَف، فقضى دينَهُ ووصَلَهُ.

ولله درُّ القائل:

يلومونني أَنْ بِعتُ بالرخصِ منزلي ... ولم يعلموا جاراً هناك يُنغصُ

فقلتُ لهم: كُفُّوا المَلامَ؛ فإنَّما ... بجيرانِهَا تَغْلُو الدِّيارُ وتَرْخُصُ

وقال ابن عبدان حين رحل من أشبيلية:

وقائلة مالي أراكَ مرحلا؟ ... فقلتُ صبراً واسمعي القول مجملا

تنكَّرَ مَنْ كنا نُسَرُّ بقربه ... وعاد زُعَافًا بعدما كان سَلْسَلا

وحق لجارٍ لم يوافِقْهُ مقعدا ... ولا لاءمَتْه الدائرين أن يترحَّلا

أليس بحزم من له الظل مقعدا ... إذا أدركته الشمس أن يتحوَّلا

---

(١) «ديوان حسَّان بن ثابت» (ص٧٠).

(٢) «الزَّوْرَاء»: اسم لبغدادَ.

بَليتُ بحمصٍ والمقامُ ببلدةٍ ... طويلاً لعمري مُخْلِقٌ يورث البلا
إذا هان حُرٌ عند قومٍ أتاهم ... ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهَلا
ولم تُضْرَبِ الأمثال إلا لِعَالِمٍ ... ولا غَرَّب الإنسانُ إلا ليعقلا[(١)]

أخي الكريم، أدِّ حقوق جيرانك بالإحسان إليهم بما استطعتَ مِنَ الجاهِ، والنفع البدنيِّ والماليِّ، وكفِّ الأذى عنهم القوليِّ والفعليِّ، واعلمْ أنَّ حُسْنَ الجِوَارِ سببٌ من أسبابِ تعمير الدِّيار، وزيادة الأعمار كما سبق[(٢)].

وحِفَاظَ جارٍ لا تُضِعْهُ، فإنَّهُ ... لا يَبْلُغُ الشَّرفَ الجَسِيْمَ مُضَيِّعُ[(٣)]

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٠٦).
(٢) جاء ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها في (ص١٤، ١٠٥).
(٣) «جواهر الأدب» لأحمدَ الهاشميِّ (ص٦٦٢).

حُسْنُ السَّمْتِ

حُسْنُ السَّمْت: هو حسن المظهر الخارجيِّ للإنسان من طريقة الحديث والصَّمْت، والحركة والسُّكون، والدُّخول والخروج، والسِّيرة العمليَّة في النَّاس، بحيث يستطيع مَنْ يراه أو يسمعه أن ينسبه إلى أهل الخير والصَّلاح، والديانة والفلاح[(١)].

فعلى المرء أن يحسن تعاهد نفسه في لباسه، ونظافة بدنه، وليستعمل الطِّيب والسِّواك، ويزن كلامه، فلا ينطق إلاَّ بخيرٍ أو ليصمت، فهذا من السَّمْتِ، والسَّمْتُ جزءٌ من النُّبوَّةِ[(٢)].

عن عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الهَدْيَ الصَّالحَ، والسَّمْتَ الصَّالحَ، والاقتصاد - جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»**[(٢)].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«البِسُوا مِنْ ثيابِكُمُ البَيَاضَ؛ فإنَّها مِنْ خيرِ ثيابِكُمْ، وكَفِّنُوا فيها مَوْتَاكُمْ»**[(٣)].

---

(١) «نظرة النَّعيم» (٥/١٥٨٨).

(٢) رواه أبو داودَ - واللَّفظ له - (٤٧٧٦)، وأحمد (١/٢٩٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيحٌ (٤/٢٤٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع»(١/١٩٩٣).

(٣) رواه أبو داودَ (٣٨٧٨) و(٤٠٦١)، والتِّرمذيُّ (٩٩٤)، وصحَّحه الحاكم (٤/١٨٥)، ووافقه الذَّهبيُّ، وقال محقِّق جامع الأصول: هو كما قال (١٠/٦٦٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٢٣٦).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتانا رسولُ الله ﷺ فرأى رجلاً شَعِثًا، قد تفرَّق شَعْرُهُ، فقال: «أما كان هذا يجدُ ما يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟». ورأى رجلاً آخرَ، وعليه ثيابٌ وَسِخَةٌ، فقال: «أما كان هذا يجدُ ما يغسلُ بِهِ ثوبَهُ؟!»[١].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كان له شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»[٢].

وعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمانِ رضي الله عنهما قال: «إنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ دلاً[٣]، وسَمْتًا[٤]، وهَدْيًا[٥] برسول الله ﷺ لابْنُ أمِّ عَبْدٍ[٦] مِنْ حِيْنِ يخرجُ مِنْ بيتِهِ إلى أَنْ يَرْجِعَ إليه، لا ندري ما يصنعُ في أهلِهِ إذا خَلاَ»[٧].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «ما رأيتُ أَحَداً أَشْبَهَ سَمْتًا، ودلاً، وهَدْيًا برسولِ الله في قيامِهَا، وقُعُودِهَا ـ مِنْ بنتِ رسولِ الله ﷺ»[٨].

وكان السَّلف رضي الله عنهم يرحلون لتعلُّم حسنِ السَّمْتِ مِنْ أهلِه، كما يرحلون لطلب العلم.

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٠٦٢)، وروى النَّسائيُّ شَطْرَهُ الأوَّل (٥٢٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٣٣٣)، و«الصَّحيحة» (٤٩٣).

(٢) رواه أبو داودَ (٤١٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٤٩٣)، وهو في «الصَّحيحة» (٥٠٠).

(٣) «الدَّلُّ»: الحالة التي يكون عليها الإنسان منَ السَّكينة والوقار، وحُسْن السِّيرة والطَّريقة.

(٤) «السَّمْتُ»: حُسْنُ المَنْظَر في أمر الدِّين.

(٥) «الهَدْيُ»: السِّيرة والطَّريقة.

(٦) «ابن أمِّ عَبْدٍ»: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٧) رواه البخاريُّ (٣٧٦٢) و(٦٠٩٧).

(٨) رواه أبو داود (٥٢١٧)، والتِّرمذيُّ ـ واللَّفظ له ـ (٣٨٧٢).

قال أبو عبيدٍ ـ يرحمه الله ـ: «كان أصحابُ عبـد الله بن مسعودٍ ﷺ يَرْحَلُون إلى عُمَرَ ﷺ فينظرون إلى سَمْتِـهِ، وهَدْيِـهِ، ودلِّـهِ، فيتشبَّهُوْنَ بـه»[١].

وقال الحافظ في «الفتح»:

«خَرَّجَ أبو عبيـدٍ في غريب الحديث: أنَّ أصحاب ابن مسـعودٍ كانوا ينظرون إلى سَمْتِهِ، وهَدْيِهِ، ودلِّهِ، فيتشبَّهُوْنَ به»[٢].

وقال إبرهيم النَّخَعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

«كانـوا إذا أَتَوُا الرَّجلَ؛ ليأخـذوا عنه، نظروا إلى صلاتِهِ، وإلـى سَمْتِـهِ، وإلى هَيْئَتِهِ، ثُمَّ يأخذون عنـه»[٣].

وقال الأعمش ـ يرحمه الله ـ:

«كانوا يتعلَّمون مِنَ الفقيه كُلَّ شيءٍ حتَّى لباسه ونَعْلَيْـه»[٤].

وقال ابن المبارك ـ يرحمه الله ـ لرجلٍ سأله:

«أين تريدُ؟» قال: «إلى البَـصْرَةِ». فقيل له: «مَنْ بقي؟». قـال: «ابن عَوْنٍ آخذُ من أخلاقه، آخذُ منْ آدابه»[٥].

---

(١) «الصحاح» (٤/١٦٩٩)، و«اللسان» (٣/١٤٢٣). قال الإمام مالكٌ ـ يرحمه الله ـ: «عمرُ أَشْبَهُ النَّاسِ بهَـدْيِ رسـول الله ﷺ، وأشـبَهُ النَّـاسِ بِعُمَـرَ ابْنُهُ عَـبْـدُ الله، وبعبـدِ الله ابنُهُ سـالمٌ» «الفـتح» (١٠/ ٥١٠).

(٢) «الفتح» (١٠/ ٥١٠).

(٣)، (٤)، (٥) «الآداب الشرعيَّة» (٢/١٤٩).

وقال ابن المبارك - أيضًا -:

«لم يكن بالمدينة أَحَدٌ أَشْبَهُ بأهلِ العلمِ من ابن عجلان، كنتُ أُشبِّهُهُ بالياقوتةِ بينَ العلماء»[١].

وقال - يرحمه الله -:

مَنْ كان مُلْتَمِسًا جليسًا صالحًا ... فليأتِ حَلقةَ مِسْعَرِ بْنِ كدام
فيها السَّكينةُ والوَقارُ، وأَهْلُهَا ... أَهْلُ العَفافِ، وعليةُ الأقوامِ[٢]

وقال عبد الرَّحمن بن مهديٍّ - يرحمه الله -:

«كنَّا نأتي الرَّجلَ، ما نريدُ عِلْمَهُ، ليس إلاَّ أَنْ نتعلَّمَ مِنْ هَدْيِهِ وسَمْتِهِ»[٣].

وقال ابن الجوزيِّ - يرحمه الله -:

«قد كان جماعةٌ من السَّلف يقصدون العبدَ الصَّالحَ للنَّظر إلى سَمْتِه وهَدْيِه، لا لاقتباس علمه؛ وذلك أنَّ ثمرة علمه هَدْيُهُ وسَمْتُهُ»[٤].

وقال ابن مفلح - يرحمه الله -:

«كان يحضر مجلس أحمدَ زُهاءُ خمسةِ آلافٍ أو يزيدون، أقلُّ مِنْ خمسمائةٍ يكتبون، والباقي يتعلَّمون منه حُسْنَ الأدبِ، وحُسْنَ السَّمْتِ»[٥].

---

(١) «الجرح والتَّعديل» (١/ ٢٧٣).
(٢) «سير أعلام النُّبلاء» (٧/ ١٧٠).
(٣) «الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ١٤٩).
(٤) «صيد الخاطر» (ص٢١٦).
(٥) الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ١٢).

الوَقَـــارُ

الوَقَار: هو الإمســاك عن فضول الكلام والعـبث، وكَثْرَة الإشـارة والحركة فيـما يُسْتَـغْنَى عن التَّحرُّك فيـه، وقلَّة الغضب، والإصغـاءُ عند الاستفهـام، والتَّوقُّف عن الجواب، والتَّحفُّظ من التَّسرُّع، والمباكرة في جميع الأمور[1].

عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إتاكم أهْلُ اليمن، هُمْ أرَقُّ أفئدة، وألْيَنُ قلوبًا، الإيمانُ يَمَانٍ، والحكمةُ يَمَانِيَةٌ، والفَخْرُ والخُيَلاَءُ[2] في أصحابِ الإبلِ، والسَّكينةُ والوَقَارُ في أهلِ الغَنَم»[3].

وعنه عن النبيِّ ﷺ قـال: «إذا سَمِعْتُمُ الإقـامةَ فَامْشُوا إلى الصَّلاة، وعليكم بالسَّكينةِ والوَقَار[4]، ولا تُسْرِعُوا، فما أدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وما فَاتَكُمْ فَأتِمُّوا»[5].

والحصول على الوَقَـار يكون بتقوى الله وتوقيره، ومَنْ طلب التَّـوقير من النَّاس، وهو لا يعظِّم الله، ولا يوقِّره ـ فقد طلب مـحـالاً، ولله درُّ العـلاَّمة الرَّبانيِّ ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ حين قال: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلبَ التَّعظيم والتَّوقير لك من النَّاس، وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنَّك توقِّر المخلوق، وتُجِلُّهُ أَنْ يراك في حالٍ لا توقِّر الله أَنْ يراك عليها».

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ.

(٢) «الخُيَلاَءُ»: الكِبْرُ، واحتقار النَّاس، والعُجْبُ عليهم.

(٣) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٣٣٠١) و(٣٤٩٩)، (٤٣٨٨)، ومسلمٌ (٥٢).

(٤) قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: كما في «الفتح» (٢/ ١٣٩): «الفرق بَيْنَ السَّكينة والوَقَار: أنَّ السَّكينة هي التَّأنِّي في الحركات، واجتناب العَبث، والوَقَار في الهيئة: كغضِّ البصرِ، وخَفْضِ الصَّوت، وعدم الالتفات».

(٥) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٣٦)، ومسلمٌ (٦٠٢).

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (سورة نوح:١٣). أي لا تعاملونه معاملة مَنْ توقِّرونه، والتَّوقير: التَّعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (سورة الفتح:٩)»[1].

والوقور يدرك ما لا يدركه غيره من معاني العزِّ والشَّرف.

قال رجلٌ يصفُ الإمام مالكًا:

يدعُ الجوابَ، ولا يراجعُ هيبةً ▪ والسَّائلون نَوَاكِسُ الأذْقانِ[2]

نورُ الوَقَارِ، وعِزُّ سُلْطانِ التُّقَى ▪ فهو المَهِيْبُ، وليس ذا سُلْطَانِ[3]

---

(١) «الفوائد» (ص٣٢٩).

(٢) «نَوَاكِسُ الأذْقَانِ»: مُطَأْطِئو الرُّءوسِ، والمفرد ناكِسٌ.

(٣) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) (ص٧٨).

■ ومن أمثلة رفقه بأمّته ما يلي:

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يتقاضاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أصحابُهُ، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ؛ فإنَّ لصاحبِ الحَقِّ مَقَالاً»، ثُمَّ قال: «أَعْطُوهُ سِنّاً مِثْلَ سِنِّهِ». قالوا: «يا رسول اللهِ، إلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ». فقال: «أَعْطُوهُ؛ فإنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»[(١)].

وعنه قال: قام أعرابيٌّ فبال في المسجدِ، فتناوله النَّاسُ، فقال لهمُ النَّبيُّ ﷺ: «دَعُوهُ، وهَرِيقُوا عَلَى بولِهِ سَجْلاً[(٢)] مِنْ ماءٍ أو ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ، فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولم تُبْعَثوا مُعَسِّرِينَ»[(٣)].

وعنه قال: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وأصحابُهُ على النَّبيِّ ﷺ فقالوا: «يا رسول اللهِ، إنَّ دَوْساً عَصَتْ وأَبَتْ؛ فادعُ اللهَ عليها». فقيل: «هَلَكَتْ دَوْسٌ». قال: «اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْساً، وَأْتِ بهم!»[(٤)].

وعن أنسٍ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنِّي لأدْخلُ في الصَّلاةِ وأنا أُرِيدُ إطالَتَها، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبيِّ، فأَتَجوَّزُ[(٥)] في صلاتي ممَّا أعلمُ مَنْ شِدَّةِ وَجْدِ[(٦)] أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ»[(٧)].

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٢٣٠٥) و (٢٣٠٦) و (٢٣٩٠) و (٢٣٩٢) و (٢٣٩٣) و (٢٤٠١) و(٢٦٠٦) و(٢٦٠٩)، ومسلمٌ (١٦٠١).

(٢) «السَّجْلُ»: الدَّلْوُ الممتلئةُ ماءً، وكذلك الذَّنُوب.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٢٠) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ومسلمٌ (٢٨٤) و (٢٨٥) عن أنسٍ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٣٧) و (٤٣٩٢) و (٦٣٩٧)، ومسلمٌ (٢٥٢٤).

(٥) «اتجوَّز»: أُخفِّفُ ولا أطيل.

(٦) «وَجْد أمِّه»: حزنها وأساها.

(٧) رواه البخاريُّ (٧٠٩) و (٧١٠)، ومسلمٌ (٤٧٠).

قال الشاعر:

الرِّفْقُ أَيْمَنُ شَيْءٍ أنتَ تَتْبَعُهُ ... والخُرْقُ أَشْأَمُ شيءٍ يَقْدُمُ الرَّجُلا[1]

وذُو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إلى ظَفَرٍ ... ومَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ[2] الزَّلَلا[3]

وقال ابن حبَّانَ ـ يرحمه الله ـ:

«العاقل يلزمُ الرِّفقَ في الأوقات، والاعتدالَ في الحالات؛ لأنَّ الزِّيادة على المقدار في المبتـغى عيبٌ، كما أنَّ النُّقصانَ فيما يجبُ مِنَ المطلب عَجْزٌ، ومَنْ لم يصلحْهُ الرِّفقُ، لم يصلحْهُ العُنْفُ»[4].

وقال أيضًا: «الرِّفقُ لا يكادُ يسبقُ، كما أنَّ العَجَلَ لا يكادُ يلحقُ، كما أنَّ مَنْ سكَتَ لا يكادُ يَنْدَمُ، كما أنَّ مَنْ نطق لا يكادُ يَسْلَمُ»[5].

وما أجمل قول الشاعر:

لم أرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ للعَذْراءِ مِنْ خِدْرِهَا

مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا[6]

فعليك ـ أخي في الله ـ بالرِّفق في كُلِّ شيءٍ، ولاسِيَّما إذا كُنْتَ قد وُلِّيتَ شيئًا من أمور المسلمين.

---

(١) «يَقْدُمُ الرَّجُلَ»: يقودُهُ ويتقدَّمُهُ.
(٢) «استحقب الشَّيْءَ»: جعله في حقيبته، كأنَّه يرجع به إلى أهله.
(٣) «روضة العقلاء» (ص٣٥٤).
(٤)، (٥) المرجع السابق (ص٣٥٥).
(٦) «حياة الحيوان» (١/ ٢٧٥).

فعن عائذ بن عَـمْرٍو أنَّه دخل على عُبَيْدِ اللهِ بن زياد، فقـال: «أَيْ بُنَيَّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ[(١)] الحُطَمَةُ[(٢)]، فإيَّاكَ أنْ تكونَ منهم»[(٣)].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: سمـعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتي شَيئًا، فَشَقَّ عليهم، فاشْقُقْ عليه، ومَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أمَّتي شيئًا، فَرَفَقَ بهم، فارْفُقْ بِهِ»[(٤)].

قال أبو الفتح البُسْتيُّ:

وَرَافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمورِ فلمْ
يَنْدَمْ رفيقٌ، ولَمْ يَذْمُمْهُ إنسانُ

ولا يَغُرَّنَّكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ
فالخَرْقُ هَدْمٌ، ورِفْقُ المَرْءِ بُنْيانُ[(٥)]

---

(١) «الرِّعاء»: جمع راعٍ.

(٢) «الحُطَمَةُ»: هو العنيف برعاية الإبل في السَّوق، والإيراد، والإصدار، ويلقي بعضها ويعسفها، ضربه مثلاً لوالي السُّوء القاسي الذي يظلمُ الرَّعيَّة.

(٣) رواه مسلمٌ (١٨٣٠).

(٤) رواه مسلمٌ (١٨٢٨).

(٥) «جواهر الأدب» (ص٦٧١).

الرَّحْمَةُ

الرَّحمة: حالةٌ وجدانيَّةٌ تعرض غالبًا لِمَنْ به رِقَّةُ القلب وتكون مبدأً للانعطاف النَّفسانيِّ الذي هو مبدأُ الإحسان[(١)].

فهي دليلٌ على سَعَة الصَّدر، ورقَّة القلب، وسُمُوِّ النَّفس، والرَّجل الذي تسمو نفسه إلى معالي الأخلاق يعرف الحقَّ، ويَرْحَمُ النَّاسَ، بَلْ يَرْحَمُ الخَلْقَ كافَّةً.

عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَنْ تُؤْمنوا حتَّى تَرْحَمُوا». قالوا: «كُلُّنا رحيمٌ، يا رسولَ الله!» قال: «إنَّه ليس برحمةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، ولكنَّها رحمةُ النَّاس رَحْمَةُ العامَّةِ»**[(٢)].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرحمُ اللهُ مَنْ لا يرحمُ النَّاسَ»**[(٣)].

وعن النَّعمان بن بشيرٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَرَى المؤمنين في تَراحُمِهِمْ، وتَوَادِّهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ. كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا، تَدَاعى له سَائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»**[(٤)].

---

(١) «الكليات» للكفويِّ (٢/ ٣٧٦).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٥٣): أخرجه الطَّبَرَانيُّ، ورجاله ثقات. وقال الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١/ ٢٧٠): هو في كتاب «الأدب» للبيهقيِّ حديث (١٦٧).

(٣) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٠١٣) و (٧٣٧٦)، ومسلمٌ (٢٣١٩).

(٤) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦).

وعَنْ عائشةَ ﵂ قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا[١]، وقاربوا[٢]، وأَبْشِرُوْا؛ فإنَّهُ لا يُدْخِلُ أحداً الجنَّةَ عَمَلُهُ». قالوا: «ولا أنت، يا رسولَ الله؟!». قال: «ولا أنا، إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي[٣] اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»[٤].

وعنها قالتْ: جاءتني مِسْكينةٌ، تحملُ ابْنَتَيْنِ لها، فَأَطْعَمْتُهَا ثلاثَ تَمَراتٍ، فأعطَتْ كُلَّ واحدةٍ منهما تَمْرَةً، ورفعتْ إلى فِيْهَا تَمْرَةً لتأكُلَهَا، فاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فشقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كانتْ تريدُ أنْ تأكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فأعْجَبَنِي شأنُهَا، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسولِ الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لها بها الجنَّةَ، أو أَعْتَقَهَا بها مِنَ النَّارِ»[٥].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتسعينَ، وأنزل في الأرض جُزْءاً واحداً، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلائِقُ، حتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَها عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أنْ تُصِيْبَهُ»[٦].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ»[٧].

---

(١) «سدِّدوا»: اطلبوا السَّداد، وهو الصَّواب والاستقامة.

(٢) «المُقاربة»: القَصْد في العبادة الذي لا غُلُوَّ فيه، ولا تقصيرَ.

(٣) يتغمَّدني»: يُلْبسني ويسترني.

(٤) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٦٤٦٤) و (٦٤٦٧)، ورواه مسلمٌ (٢٨١٦) عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٦٣٠).

(٦) رواه البخاريُّ (٦٠٠٠) و (٦٤٦٩)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٧٥٢).

(٧) رواه أبو داودَ (٤٩٤٢)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٤٦٧).

وعَنْهُ قال: قَبَّلَ رسولُ اللهِ ﷺ الحَسَنَ بنَ عليٍّ، وعندَهُ الأقرعُ بنُ حابسٍ التَّميميُّ جالسًا، فقال الأقرعُ: «إنَّ لي عشرةً مِنَ الوَلَد، ما قبَّلْتُ منهم أحدًا». فنظر إليه رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قال: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»(١).

وعنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَيْنَما رجلٌ يمشي بطريقٍ، اشتدَّ عليه العَطَشُ، فوجد بِئْرًا فنزل فيها، فشرب ثمَّ خرج، فإذا كَلْبٌ يَلْهَثُ(٢)، يأكلُ الثَّرى(٣) مِنَ العَطَشِ، فقال الرَّجلُ: لَقَدْ بلَغَ هذا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الذي كان بلَغَ منِّي، فنزل البِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ ماءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حتَّى رَقِيَ، فسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ له، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: «يا رسولَ الله، وإنَّ لَنَا في البَهائِمِ لأجرًا؟!» فقال: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ(٤)»(٥).

وفي رواية للبخاريِّ: «فشكر اللهُ لَهُ، فغفر له، فأدْخَلَهُ الجنَّةَ».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ(٦)، قَدْ كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ(٧) مِنْ بَغَايا بني إسرائيلَ، فنزعتْ مُوقَهَا(٨)، فاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فسقَتْهُ إيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»(٩).

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللفظ له ـ (٥٩٩٧)، ومسلمٌ (٢٣١٨). قال ابن حجرٍ تعليقًا على هذا الحديث: قال ابن بَطَّال: «فيه الحضُّ على استعمال الرَّحمة لجميع الخَلْق، فيدخلُ المؤمنُ، والكافرُ، والبهائمُ المملوكُ منها وغيرُ المملوك، ويدخل في الرَّحمة التَّعاهُدُ بالإطعام، والسَّعي، والتَّخفيفُ في الحمل، وتركُ التَّعدي بالضَّرْب». «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٥).

(٢) «يَلْهَثُ»: يخرج لسانَهُ مِنْ شدَّة العَطَشِ.

(٣) «الثَّرى»: التُّراب الرَّطبُ النَّدي.

(٤) أي في إرواءِ كُلِّ حَيٍّ ثوابٌ.

(٥) رواه البخاريُّ (١٧٣) و (٢٣٦٣) و (٢٤٦٦) و (٦٠٠٩)، ومسلمٌ (٢٢٤٤).

(٦) «يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ»: يدورُ حَوْلَها، والرَّكِيَّةُ: البِئْرُ، والجمع ركايا.

(٧) «البَغِيُّ»: الزَّانية.

(٨) «المُوْقُ»: الخُفُّ.

(٩) رواه البخاريُّ (٣٣٢١) و (٣٤٦٧)، ومسلمٌ (٢٢٤٥).

فَشَتَّانَ ما بَيْنَ هذه المرأة البَغيِّ ذات القلب الرَّءُوْم والمرأة التي في حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبَت امرأةٌ في هرَّةٍ سَجَنَتْهَا حتَّى ماتت، فدخلت فيها النَّارَ، لا هِيَ أطعمَتْهَا وسقَتْهَا إذْ حبَسَتْهَا، ولا هِيَ تركَتْهَا تأكلُ مِنْ خَشَاشِ الأرضِ**[1]»[2].

وعن عُمَـرَ بْنِ الخطَّاب رضي الله عنه قال: **قَدِمَ على النَّبيِّ ﷺ سَبْيٌ**[3]، **فإذا امرأةٌ مِن السَّبْي تَحلُبُ ثَدْيَها تَسقي، إذا وَجَدَتْ صَبياً في السَّبْي أخذَتْه، فألصقَتْه ببَطْنِها وأرضعَتْه، فقال لنا النَّبيُّ ﷺ: «أتَرَوْنَ هذه طارحةً وَلَدَها في النَّار؟». قلنا: «لا، وهِيَ تَقْدِرُ على ألاَّ تطرحَه». فقال: «للهُ أرحمُ بعبادِهِ مِنْ هذه بولدِها»**[4].

وعَنْ عَبْـدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قـال رسول الله ﷺ: «**الرَّاحمونَ يرحمُهُمُ الرَّحمنُ: ارحموا مَنْ في الأرضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ**»[5].

والأحاديث في الرَّحمة كثيرةٌ جدًا؛ وما ذاك إلاَّ لأهمِّيَّتها، وعظم شأنها.

قال الفيروز أبادي ـ يرحمه الله ـ:

«الرَّحمـةُ سَبَبٌ[6] واصلٌ بين الله وبَيْنَ عباده، بها أرسل إليهم الرُّسُلَ، وأنزل عليهم كُتُبَهُ وبها هداهم، وبها أسكنهم دارَ ثوابِه، وبها رزقهم وعافاهم»[7].

(١) «خَشَاشُ الأرض»: هَوَامُّها وحَشَرَاتُها، واحدها خَشَاشَةٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٣٦٥) و (٣٣١٨) و (٣٤٨٢)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٢٤٢).

(٣) «سَبْيٌ»: أسرَى جمع أَسِيرٍ، ويجمع ـ أيضًا ـ على أُسَارى، وعلى أُسَرَاء شُذُوذًا.

(٤) رواه البُخَاريُّ ـ واللفظ له ـ (٥٩٩٩)، ومسلمٌ (٢٧٥٤).

(٥) رواه أبو داودَ (٤٩٤١)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصـحَّحه الألبانيُّ في «صـحيح الجامع» (١/٣٥٢٢)، و«الصَّحيحة» (٩٢٥).

(٦) «سَبَبٌ»: حَبْلٌ، والجمع أَسْبَاب.

(٧) «بصائر ذوي التَّمييز» (٣/٥٥).

وقال الشَّيخُ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ ناصر السَّعْديُّ ـ يرحمه الله ـ:

«إنَّ الشَّريعةَ كُلَّها مبنيَّةٌ على الرَّحمـة في أصولها، وفي فروعها، وفي الأمر بأداء الحقوقِ، سواءً كانت لله أو للخَلْقِ؛ فإنَّ الله لم يُـكَلِّفْ نفسًا إلاَّ وُسْعَها، وإذا تَدَبَّرْتَ مـا شرعـه اللهُ عزَّ وجلَّ في المعـاملاتِ، والحـقـوق الزَّوجيَّـة، وحقـوق الوالدين، والأقربين، والجِيران، وسائر ما شرع ـ وَجَدْتَ ذلك مبنيًّا على الرَّحمة».

ثُمَّ قال:

«لَقد وَسِـعَتْ هذه الشَّريعةُ برحـمتها وعَـدْلِهَا العَدُوَّ والصَّـديق، ولقد لجَأَ إلى حِصْنِهَا الحصين الموفَّقون من الخَلْقِ»[1].

(١) «الرِّياض النَّاضرة، والحدائق النَّيِّرة» (ص٦١ - ٦٥) بتصرُّف.

التَّواضُع

التَّواضع: صفةٌ من صفات عباد الرَّحمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ:

«ذكر أنَّ صفاتهم أكملُ الصِّفات، ونعوتهم أفضلُ النُّعوت، فوصفهم بأنَّهم: ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخَلْق، فهذا وصفٌ لهم بالوَقَار والسَّكينة، والتَّواضع لله ولعباده»[١].

والتَّواضع علامة حُبِّ الله للعبد، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

قال ابن كثير ـ يرحمه الله ـ:

«هذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل، أنْ يكونَ أَحَدُهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، مُتَعَزِّزًا على خَصْمِه وعدوِّه»[٢].

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٥٨٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٣).

ووصف الله عباده الذين هداهم للإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

وفي تعليل استعمال حرف الجرِّ (عَلَى) في قوله تعالى: تفسيران:

ففي قولٍ أنَّه ضمَّنه معنى الحنوِّ والعطف، كأنَّه قال: عاطفين على المؤمنين عَلَى وَجْه التَّذلُّل والتَّواضع.

وفي قول ثانٍ أنَّ (عَلَى) تدلُّ على عُلُوِّ مقامهم، وأنَّه رغم فضلهم وارتفاع منزلتهم يَذِلُّون ويَخْضَعُوْنَ لمن فُضِّلوا عليه مع شرفهم، وعُلُوِّ مكانهم[(١)].

والتَّواضع سببٌ لرفعة الله للمتواضع، ومَنْ رفعه الله فمَنْ ذا الذي سيخفضه ويضعه؟!.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ الله»**[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **كان للنَّبيِّ ﷺ ناقةٌ، تُسَمَّى العَضْبَاءَ لا تُسْبَقُ، فجاء أعرابيٌّ على قَعُودٍ[(٣)] فَسَبَقَها، فشقَّ ذلك عَلَى المسلمين حتَّى عَرَفَهُ، فقال: «حَقٌّ عَلَى الله ألاَّ يَرْتفعَ شيءٌ مِنَ الدُّنيا إلاَّ وَضَعَهُ»**[(٤)].

---

(١) تفسير «البحر المحيط» لأبي حيَّانٍ الأندلسيِّ (٣/ ٥١٢).
(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٨٨).
(٣) «القَعُود»: هو ما استحقَّ الرُّكوب مِنَ الإبل، وهو ما بين سنِّ الثَّانية إلى السَّادسة، وبعدها يُقال عنه جَمَل.
(٤) رواه البخاريُّ (٢٨٧٢) و (٦٥٠١).

قال ابن الحاج ـ يرحمه الله ـ:

«مَنْ أراد الرِّفعة فليتواضعْ لله تعالى؛ فإنَّ العزَّةَ لا تقعُ إلاَّ بقدرِ النُّزول، أَلاَ ترى أنَّ الماءَ لَمَّا نزل إلى أصلِ الشَّجرة، صعد إلى أعلاها، فكأنَّ سائلاً سأله: ما صعد بك هنا ـ أعني في رأس الشَّجرة، وأنت تَحْتَ أصلها ـ؟!، فكأنَّ لسان حاله يقول: مَنْ تواضع لله رَفَعَهُ»[١].

قال السهيليُّ:

تواضعْ إذا كُنْتَ تَبْغي العُلاَ ... وكُنْ رَاسيًا عِنْدَ صَفْوِ الغَضَبْ

فَخَفْضُ الفتى نَفْسَهُ رِفْعَةٌ ... لَهُ، واعْتَبِرْ بِرُسُوبِ الذَّهَبْ

وقال آخرُ:

تواضعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ[٢] لناظرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ الماءِ، وهو رَفيعُ

ولا تَكُ كالدُّخَانِ يَعْلُو بنفسِهِ ... إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ، وهو وَضِيعُ[٣]

وقال آخرُ:

تواضعْ إذا ما نِلْتَ في النَّاسِ رِفْعَةً ... فَإنَّ رفيعَ القَوْمِ مَنْ يتَواضعُ[٤]

وقال آخرُ:

وأحسنُ أخلاقِ المَرْءِ وأَتَمُّهَا ... تواضُعُهُ للنَّاسِ، وهو رفيعُ[٥]

---

(١) «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٢٢).

(٢) «لاح»: بَرَزَ وظهر.

(٣)، (٤) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).

(٥) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٣).

والتَّواضع وقايةٌ من الوقوع في الظلم، وحمايةٌ من التَّعالي والتَّفاخر على الآخرين.

عن عِيَاضِ بْن حِمَارٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ أوْحَى إليَّ: أنْ تواضعوا؛ حتَّى لا يَفْخَرَ أحدٌ علَى أحَدٍ، ولا يَبْغِيَ أحدٌ على أحَدٍ»**[1].

إن أردت - أخي في الله - نيل الكرامة والشَّرف، والمِقَة[2] من العباد، وكَثْرَة الخُلاَّن - فعليك بالتَّواضع.

قال بعض الحكماء: «مَنْ بَرِئَ من ثلاثٍ نال ثلاثًا: مَنْ بَرِئَ من الشَّرَفِ نال العزَّ، ومَنْ بَرِئَ من البُخْلِ نال الشَّرفَ، ومَنْ بَرِئَ من الكِبْرِ نال الكرامةَ»[3].

وقال مُصْعَبُ بن الزَّبير: «التَّواضع مصائدُ الشَّرَفِ»[4].

وقيل في منثور الحِكَم: «مَنْ دَامَ تواضعهُ كَثُرَ صديقُهُ»[5].

وضِدُّ التَّواضع الكِبْرُ، ومصدره جَهْلُ المرء بحقيقة نفسه.

فهذا إبليس امتنع عن السُّجود لآدمَ قائلاً: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** (سورة الأعراف: ١٢).

وهذا فرعون ادَّعى الرُّبوبيَّةَ قائلاً: **﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾** (سورة النازعات: ٢٤).

وهذا قارون لم يُقَيِّدِ النِّعمةَ التي يتقلَّبُ فيها، بل قال: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** (سورة القصص: ٧٨).

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٨٦٥).

(٢) «المِقَة»: المحبَّة، مصدر وَمِقَهُ يَمِقَهُ مِقَةً، والتَّاء في مِقَةٍ عِوَضٌ عن فاء الكلمة المحذوفة - وهي الواو - كَعِدَة، وزِنَة.

(٣)، (٤)، (٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٢).

فكُلٌّ واحدٍ من هؤلاءِ المتكبِّرين لم يَعْرِفْ قَدْرَ نفسِهِ، فما كان مصيرهم وعاقبتهم؟!

لقد كانت العاقبة وخيمةً، والمُنْقَلَبُ مَشْئومًا، فأمَّا إبليس فطرده اللهُ من رحمته، وأمَّا فرعونُ فأهلكه على جُرْأته، وأمَّا قارون فَخَسَفَ به وبدارِه الأرضَ.

ما أجهلك - أيُّها المتكبِّرُ - بحقيقة نفسك، فهل أنت إلاَّ عبدٌ لله الذي أخرجك من العَدَمِ، ورَعاك في ظلمات الأرحام؟!.

ما الذي جعلك تترفَّع على إخوانك من البشر، كأنَّك قد خرجْتَ عن طوق البشريَّة؟!.

هلاَّ تدبَّرْتَ ما فيك من أقذارٍ ونَتْنٍ، إذًا لعرفت مَنْ أنت!.

قال الماورديُّ - يرحمه الله -:

«ولو تصوَّر المُعَجْبُ المتكبِّرُ ما فُطِرَ عليه من جِبلَّةٍ، وبُلِيَ به من مهنةٍ - لَخَفَضَ جَنَاحَ نفسِهِ، واستبدل لينًا مِنْ عُتُوَّةٍ، وسكونًا من نُفُوره»[١].

وقال الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ:

«عَجِبْتُ لِمَنْ جَرَى في مَجْرَى البَوْلِ مرَّتين كيف يتكبَّرُ»[٢].

وكيف يتكبَّر مَنْ كان مصيره للموت والبِلَى، وكأنَّ لسانَ حال القَبْر يقول: ابنَ آدمَ، لا تتكبَّرِ اليومَ على ظَهْري، لأنَّني غدًا سوف أَضُمُّك في بَطْني.

---

(١)، (٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٨).

قال الشاعر:

حَقيقٌ[١] بالتَّواضُعِ مَنْ يَمُوتُ ... ويَكْفي المرْءَ مِنْ دُنْيَاهُ قُوتُ[٢]

فما للمَرْءِ يُصْبحُ ذا هُمُومٍ ... وحِرْصٍ، ليس تُدْرِكُهُ النُّعُوتُ؟![٣]

ووصف أحدُ الشُّعراء الإنسانَ، فقال:

يا مُظْهِرَ الكِبْرَ إعْجَاباً بصُورَتِهِ ... انظرْ خَلاَكَ؛ فإنَّ النَّتْنَ تَثْرِيبُ

لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فيما في بُطُونِهِمُ ... ما اسْتَشْعَرَ الكِبْرَ شُبَّانٌ، ولا شِيبُ[٤]

هَلْ في ابنِ آدمَ مِثْلُ الرَّأسِ مَكْرُمَةً؟! ... وهو بخَمْسٍ مِنَ الأَقْذارِ مَضْرُوبُ[٥]

أَنْفٌ يسيلُ، وأُذُنٌ رِيحُهَا سَهِكٌ[٦] ... والعَيْنُ مرفضَةٌ، والثَّغْرُ مَلْعُوبُ

يا بْنَ التُّرابِ، ومأكولَ التُّرابِ غداً ... أَقْصِرْ؛ فإنَّك مأكولٌ ومَشْرُوبُ[٧]

ومن اللَّطائف ما ذكره الماوَرْديُّ ـ يرحمه الله ـ قال:

«حُكِيَ أنَّ مُطَرِّفَ بْنَ عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ[٨]، وعليه حُلَّةٌ[٩] يَسْحَبُها، ويمشي الخُيَلاءَ، فقال: يا أبا عبدَ الله، ما هذه المِشْيَةُ التي يُبْغِضُها اللهُ ورسولُهُ؟!.

---

(١) «حقيق»: خَليقٌ وجديرٌ.

(٢) «القُوت»: ما يَسُدُّ الرَّمَقَ من الرِّزق.

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٢).

(٤) «شِيْب»: جمع أَشْيَبَ، وهو الذي ابيضَّ شَعَرُهُ.

(٥) أي ملازم لها لزومَ الدِّرهم المضروب لسكته.

(٦) «رِيحُها سَهِك»: أي كريهة.

(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٨).

(٨) هو أبو سعيد المُهَلَّبُ بْنُ صُفْرَةَ الأَزْديُّ البصْريُّ، قائد قُوَّاد الأُمَويِّين، ومبيد الخَوارج، ومبتدع الرَّكب الجديد، تَوَلَّى خُراسان من قِبَلِ عبد المَلك بن مروان، وتُوفِّي بها سنة ٨٣ هـ، وقد كان جوَادًا حكيمًا، إلاَّ أنَّ جوابَهُ هذا يُعَدُّ زلَّةً من زلاَّت الاسترسال.

(٩) «الحُلَّة»: ثوبٌ له ظِهارةٌ وبِطانةٌ من جنسٍ واحدٍ، والجمع حُلَلٌ.

فقال المُهَلَّبُ: أَمَا تعرفُني؟!.

فقال: بَلْ أعرفُك، أوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وحَشْوُكَ فيما بَيْنَ ذلك بَوْلٌ وعَذِرَةٌ[١].

فأخذ ابْنُ عَوْفٍ هذا الكلام، فنظمه شعرًا، فقال:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورتِهِ ... وكانَ بالأمْسِ نُطْفَةً مَذِرَهْ

وفي غَدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورتِهِ ... يَصيرُ في اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَهْ

وهو على تِيْهِهِ ونَخْوَتِهِ ... ما بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يحملُ العَذِرَهْ[٢]

والتَّكَبُّرُ مِنْ صفات أهل النَّار.

عن حارثة بَنْ وَهْبِ الخُزَاعِيِّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا أُخْبِرُكُمْ بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[٣] جَوَّاظٍ[٤] مُسْتَكْبِرٍ»[٥].

وعن ابن مسعود ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[٦].

عَجبًا لهذا المتكبِّرِ المخلوق الضَّعيف كيف يتجرَّأُ على خالقه مالكِ المُلْكِ، ويُنَازِعُهُ رداءَهُ؟!.

---

(١) «العَذِرة»: الغائط.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٦ - ٢٣٧).

(٣) «العُتُلُّ»: الغليظ الفظُّ الجافي.

(٤) «الجَوَّاظ»: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضَّخْمُ المُخْتَالُ في مِشْيَتِه.

(٥) رواه البخاريُّ (٤٩١٨) و (٦٠٧١) و (٦٦٥٧)، ومسلمٌ (٢٨٥٣).

(٦) رواه مسلمٌ (٩١).

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ تعالى: الكِبْرِياءُ رِدَائي، والعِزُّ إزَاري، فَمَنْ نَازَعَني في شيءٍ منهما عَذَّبْتُهُ»[١].

قال أبو نُوَاس:

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ، لا يَغْشَاكَ مَبْسِمُهُ ... فإنَّه مَلْبَسٌ نازَعْتَهُ اللهَ

يا بُؤْسَ جِلْدٍ عَلَى جوفٍ مجوفةٍ ... يَحْوي مَقَاذيرَ إنْ كلَّمْتَه تَاهَا

إنِّي لأمْقتُ[٢] نفسي عِنْدَ نَخْوتِهَا ... فكَيْفَ آمَنُ مَقْتَ اللهِ إيَّاهَا؟!

وللكبر صورٌ وأشكالٌ عدَّةٌ، فتارة يظهر في الوجه كتصعير الخدِّ[٣]، وبالنَّظر شَزَرًا تارةً، وأخرى بإطراق الرَّأس، وتارة يكون بإسبال الثَّوب عُجْبًا وبَطَرًا، أو بالتَّبختر في المَشْي مع الإعجاب بثيابه، وغير ذلك من صور الكبر.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا[٤] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (سورة لقمان: ١٨).

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إليه يَوْمَ القيامةِ»[٥].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٠).
(٢) «المَقْتُ»: أشدُّ البُغْضِ.
(٣) «تصعير الخدِّ»: الميل والإعراض به عن النَّاس تكبُّرًا عليهم.
(٤) «المَرَح»: التَّبختر والخُيَلاء.
(٥) رواه البخاريُّ (٥٧٩١)، ومسلمٌ (٢٠٨٥).

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ[1]، يَخْتَالُ في مِشْيَتِهِ، إذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فهو يَتَجلجلُ[2] في الأرضِ إلى يوم القيامةِ»[3].

قال أَحَدُ الشُّعراء في وصف المتكبِّرين:

وُجُوهُهُم مِنْ سَوَادِ الكِبْرِ عَابِسَةٌ	كَأَنَّمَا أُوفِدُوا غَضْبًا إِلَى النَّارِ
هَانُوا عَلَى اللهِ، فَاسْتَاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ	يَاوَيْحَهُمْ مِنْ مَنَاكِيدٍ[4] وَفُجَّارِ
لَيْسُوا كَقَومٍ إِذَا لَا قَيْتَهُمْ عَرَضًا	أَهْدُوكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُتْحِفُ السَّارِي[5]
مَنْ تَلْقَ مِنهُم تَقُلْ: لَاقَيتُ سَيِّدَهُمْ	مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

■ أمورٌ تُنَافي التَّواضع:

١ ـ أن يرى المَرءُ لنفسه حقّاً على الله لأجل تواضعه:

وعلاجه أن يعلم المَرْءُ أنَّه مهما بلغ من العلم، والعمل الصَّالح، فإنَّه لا يَدْخلُ به الجنَّةَ، إلاَّ أَنْ يتغمَّدَهُ اللهُ برحمته، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه ـ وهم خيرُ النَّاس ـ: «ليس أحدٌ منكم يُنْجِيه عَمَلُهُ». قالوا: «ولاأنت، يا رسول الله؟!». قال: «ولا أنا، إلاَّ أنْ يتغمَّدَني اللهُ بمغفرةٍ منه ورحمةٍ»[6].

---

(١) «مُرَجِّلٌ رأسَهُ»: مُسَرِّحُهُ بالمشط.

(٢) «يَتَجلْجَلُ»: يغوصُ في الأرض حين يخسف به. و«الجَلْجَلَةُ»: حَرَكَةٌ مع صوتٍ.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٨٩)، ومسلمٌ (٢٠٨٨).

(٤) «مناكيد»: جمع مَنْكُود، وهو المشئوم قليل الخير.

(٥) «السَّاري»: السَّائر ليلاً مِنْ سَرَى يَسْرِي سُرَىً.

(٦) تقدَّم تخريجُهُ. واللفظ هنا لمسلمٍ.

قال الشاعر:

ولو أنَّ أنفاسَ العبادِ قصائدٌ ... حَفَلَتْ بِمَدْحِكَ في جَلالِ عُلاكَا

ما أدْرَكَتْ ما تستحقُّ، وقصَّرتْ ... عَنْ مَجْدِكَ الأسْمَى، وحُسْنِ سَنَاكَا[1]

٢ ـ أن يري لنفسه فَضْلاً على النَّاس، وقيمةً على مَنْ سِوَاهُ:

وعلاج هذا الأمر أن يعلم أنَّه مدينٌ لله في إنعامه، وتفضُّله عليه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (سورة النحل: ٥٣).

قال الشاعر:

سُبْحَانَ مَنْ لو سَجَدْنا بالجِبَاهِ لَهُ ... على لَظَى الجَمْرِ، والحمى مِنَ الإبر

لم تبلغ العشرَ مِنْ مقدارِ نعمتِهِ ... ولا العُشْرِ ولو عُشْرٍ مِنَ العُشْرِ!

٣ ـ أن يرى في نفسه أنَّه متواضعٌ:

وعلاجه أن يعلم أنَّه مَنْ رأى في نفسه أنَّه متواضعٌ فهو متكبِّرٌ؛ بأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (سورة النجم: ٣٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تُزَكُّوا أنفسَكُمْ؛ اللهُ أعلمُ بأهلِ البِرِّ منكم»[2].

---

(١) «السَّنا»: النُّور السَّاطع.

(٣) رواه مسلمٌ في «الآداب» (٤١٤٢) عن زينب بنت أمِّ سَلَمَة.

٤ ـ الإعجاب بالنَّفس:

العُجْبُ داءٌ عظيمٌ يـدعو إلى الكبر، فـهو أَحَدُ أسـبابه؛ فذلك كـان العُجْبُ مِنَ المُهْلكات، كما قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ: شحٌ مُطاعٌ، وهوَى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسه»[(١)].

وفي حديث أبي هُرَيرةَ: «... وأمَّا المهلكاتُ: فَهَوَىً مُتَّبَعٌ، وشُحٌّ مُطَاعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بنفسِهِ، وهي أشدُهُنَّ»[(٢)].

والعُجْبُ بالنَّفس يُطْفِئُ من المحاسن ما انتشر، ويُسْلبُ مِنَ الفضائل ما اشْتَهَر، ويُبْرز المساوئ، ويُكْسِبُ الرَّذائل، ويُوجب الذَّمَّ واللَّوْمَ، وليس لمن استولى عليه إصغاءٌ لنُصْحٍ، ولا قبولٌ لتأديبٍ؛ لأن المُعْجَبَ يستكثر فضله عن استزادة المتأدِّبين.

قال الإمام عليٌّ رضي الله عنه: «الإعجابُ ضدُ الصَّوابِ، وآفةُ الألبابِ»[(٣)].

وقال بزر جمهر: «النِّعمةُ التي لا يُحْسَدُ صاحِبُهَا عليها التَّواضعُ، والبلاءُ الذي لا يُرْحَمُ صاحبُهُ منه العُجْبُ»[(٤)].

قال الشاعر:

إذا شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ قَدْرًا ورفعةً ... فَلِنْ وتواضعْ، واتْرُكِ الكِبْرَ والعُجْبَا[(٥)]

---

(١) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الأوسط» عن ابن عُمَرَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صَحيح الجامع» (٣٠٤٥/١)، وهو في «الصَّحيحة» (١٨٠٢).

(٢) حسَّنه الألبانيُّ في «تخريج المشكاة» (٥١٢٢)

(٣)، (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٣٩).

(٥) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).

٥ ـ عدم الخُضُوع للحقِّ:

وعلاجُه أَنْ يعلمَ أنَّ عدم الخُضُوع للحقِّ هو عَيْنُ الكبر والبَغْي؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ عرَّف الكِبْرَ الذي هو ضِدُّ التَّواضع ـ بقوله: «الكِبرُ: بَطَرُ الحق[١]، وغَمْطُ النَّاس[٢]»[٣].

وسئل الفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ عَنِ التَّواضع، فقال: «يخضعُ للحقِّ، وينقادُ له، ويقبلُه ممَّن قاله»[٤].

ومَنْ كان قصده رضى الله، هانَ عليه الانقياد للحقِّ، كالذي رُوِيَ عن عُبَيْد الله ابْنِ الحسن العنبريِّ أنَّه سئل عن مسألة، فغلط فيها، فلمَّا نُبِّهَ إلى غلطه، أطرق ساعةً، ثُمَّ رفع رأسَهُ، فقال: «إذًا أرجع وأنا صاغرٌ، لأَنْ أكونَ ذَنَبًا في الحقِّ أحبُّ إليَّ من أَنْ أكونَ رأسًا في الباطل»[٥].

قال الشاعر:

فيا شامخًا، أَقْصِرْ عنانَكَ مقصرًا ... فإنَّ مَطَايا الدَّهْرِ تَكْبُو وتَعْثُرُ

ستقرعُ سِنًا، أو تعَضُّ ـ ندامةً ... يَدَيْكَ، إذا خَانَ الزَّمانُ وتبصرُ

ويَلْقَاكَ مرشدٌ بَعْدَ غَيِّكَ واعظٌ ... ولكنَّهُ يَلْقَاكَ والأمرُ مُدْبِرُ

---

(١) «بَطَرُ الحقِّ»: ردُّه على قائله، وعدم قبوله منه رغم علمه به.

(٢) «غَمْطُ النَّاس»: احتقارهم وازدراؤهم، ومَنِ احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم، وجحدها واستهانَ بها.

(٣) رواه مسلمٌ (٩١) عن ابن مسعود.

(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٨٠).

(٥) «تهذيب التَّهذيب» (٧/ ١٢).

الحِلْمُ

الحِلْمُ: آيةُ حُسْنِ الخُلُق، وعُنوان عُلُوِّ الهمَّة، فهو من أشرف الأخلاق، وأحقِّها بذوي الألباب؛ لما جعل الله فيه من الطُّمَأْنينة، والسَّكينة، والحلاوة، وسلامة العِرْض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد، ورفعة النَّفس عن تشفِّيها بالانتقام؛ فلا ينبل الرَّجلُ حتَّى يكونَ متخلِّقًا بهذا الخلق العظيم.

▪ فَضْلُ الحِلْمِ وفوائده:

١ ـ أنَّه امتثالٌ لأمر الله تعالى الذي هو غاية سعادة الإنسان في معاشه ومَعَاده:

قال الله سبحانه وتعالى في آية جامعةٍ لحُسْنِ الخُلُق: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٩٩).

قال عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما: «أمر الله نبيه ﷺ أَنْ يأخذَ العفوَ مِنْ أخلاقِ النَّاس»[١].

٢ ـ أنَّه صفةٌ من صفات الله تعالى:

قال الله تقدست أسماؤه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة:٢٣٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

قال العلاَّمة ابْنُ سَعْديٍّ - يرحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«الحليم: الذي يَدِرُّ على خلقه النِّعم الظَّاهرة والباطنة مع عصيانهم، وكَثْرة زلاَّتهم، فَيحلُمُ عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي يُنيبوا»[(١)].

٣ - أنَّه من أخلاق الأنبياء والمرسلين - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين -:

لم يُسَمِّ اللهُ عزَّ وجلَّ بالحلم في كتابه أحداً إلاَّ إبراهيم خليله، وإسماعيل ذبيحه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (سورة هود: ٧٥).

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات: ١٠١).

وبلغ نبيُّنا ﷺ الذِّروة والغاية في حلمه وعَفْوِهِ، وضبط النَّفس إزاءَ[(٢)] التَّخرصات والمفتريات التي نُسِبَتْ إليه، إضافة إلى الإيذاء الذي لقِيَهُ من مُشْركي العرب: كامرأةَ أبي لهبٍ، وأبي جهلٍ، وأُبَيِّ بن خَلَفٍ، وغيرهم من سفهاء مكَّةَ.

وصفت السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها خُلُقَ رسول الله ﷺ فقالت: **«ولا يُجْزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعْفُو ويَصْفَحُ»**[(٣)].

وعنها - أيضًا - قالتْ: **«ما ضَرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا - قَطُّ - بيدِهِ، ولا امرأةً، ولا خادماً، إلاَّ أَنْ يُجَاهدَ في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيءٌ - قَطُّ - فينتقمَ من صاحبه، إلاَّ أَنْ يَنْتَهِكَ شيئًا من محارم اللهِ، فينتقمَ للهِ عزَّوجلَّ»**[(٤)].

---

(١) «تفسير السَّعْديِّ» (٥/ ٦٣٠).
(٢) «إزاء»: حيَال ومقابل.
(٣)رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ ففي «صحيح سُنَنِ التِّرمذيِّ» (١٦٤٠).
(٤) رواه مسلمٌ (٢٣٢٨).

وجاء في وصفه ﷺ في التَّوراة من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العَاصِ رضي الله عنهما قال: «ليس بفَظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سَخَّابٍ[١] بالأسواقِ، ولا يدفعُ السَّيِّئةَ بالسَّيِّئةِ، ولكن يَعْفُو ويصفح»[٢].

قال الشاعر:

صَـفُـوحٌ عَنِ الإجـرامِ حـتَّى كـأنَّهُ ... مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِما

ولـيس يُبـالـي أَنَ يـكونَ بـه الأذى ... إذا ما الأذى لم يغشَ بالكرهِ مُسْلِمَا

وإليك ـ أخي الكريم ـ هذين المثالين من سيرته ﷺ الدَّالَّين على سعة حلمه:

عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «كأنِّي انظرُ إلى رسول الله ﷺ يَحْكي أنَّ نبياً من الأنبياء، ضَرَبَهُ قومُهُ فَأدْمُوهُ، وهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهِهِ، ويقول: «اللهُمَّ، اغفرْ لقومي، فإنَّهم لا يعلمون»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنتُ أمشي مع النَّبيِّ ﷺ، وعليه بُرْدٌ[٤] نجْرَانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدْرَكَهُ أعرابيٌّ، فَجَبَذَهُ[٥] بردائِهِ جَبْذَةً شديدةً، حتَّى نظرتُ إلى صَفْحَةِ[٦] عاتقِ[٧] رسولِ اللهِ ﷺ قد أثَّرَتْ بها حاشيةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قال: يا محمَّدُ، مُرْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَك. فالتفتَ إليه رسول الله ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أمر له بعطاءٍ»[٨].

---

(١) «السَّخَّاب»: الشَّديد الصِّياح.
(٢) رواه البخاريُّ (٢١٢٥) و (٤٨٣٨).
(٣) رواه البخاريُّ (٣٤٧٧) و (٦٩٢٩)، ومسلمٌ (١٧٩٢).
(٤) «البُرْد»: كساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ به، وجمعه بُرُودٌ.
(٥) «الجَبْذَة»: الجَذْبة.
(٦) «الصَّفْحة»: الجانب.
(٧) «العاتق»: ما بين العُنُق والكَتِف.
(٨) رواه البخاريُّ (٣١٤٩) و (٥٨٠٩) و (٦٠٨٨)، ومسلمٌ (١٠٥٧).

قال ابن حجر ـ يرحمه الله ـ تعليقاً على هذا الحديث:

«وهذا من روائع حلمه ﷺ وكماله، وحُسْنِ خُلُقِهِ، وصَفْحِهِ الجميل، وصبرِهِ على الأذى في النَّفس والمال، والتَّجاوز على جفاء مَنْ يُريد تألُّفه على الإسلام، وليتأسَّ به الدُّعاة إلى الله والولاة بعده في حلمه، وخُلُقه الجميل: من الصَّفْح، والإغضاء، والعَفْوِ، والدَّفع بالتي هي أحسنُ»[١].

قال حسَّان بن ثابت الأنصاريّ:

أَغَرُّ[٢] عليه للنُّبُوَّةِ خاتمٌ ... مِنَ اللهِ ميمونٌ[٣] يَلُوحُ ويَشْهَدُ

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبيِّ إلى اسْمِهِ ... إذْ قال في الخمسِ المُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ

وشَقَّ له مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فذو العَرْشِ محمودٌ، وهذا محمَّدٌ[٤]

٤ ـ أنَّه سببٌ لنيل محبَّة الله، وثوابه الجَزْل العظيم:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤).

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٠٦)، وشرح النَّوويِّ على مسلم (٧/١٤٦ - ١٤٧).

(٢) «أغرُّ»: أبيض، والجمع غُرٌّ.

(٣) «ميمون»: مبارك، والجمع ميَامين.

(٤) «تهذيب سيرة ابن هشام».

وعن مُعَاذ بن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غيظًا - وهو قادرٌ على أنْ يُنَفِّذَه[1] - دعاه اللهُ يومَ القيامةِ على رُءُوسِ الخلائقِ؛ حتَّى يُخيِّرَهُ مِنْ أيِّ الحُورِ[2] العينِ[3] شاءَ»[4].

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ كفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظًا ولو شاء أنْ يُمْضِيَهُ أمضاهُ. مَلأَ اللهُ قلبَهُ رضيً يومَ القيامة»[5].

٥ ـ *أنَّ الله يتجاوز عن سَيِّئات أهل الحلم، كما تجاوزوا عمَّن أساءَ إليهم من عبادة؛ فالجزاء من جنس العمل:*

كان مِسْطَحُ بْنُ أُثاثة من فقراء المهاجرين، وكان قريبًا لأبي بكر الصِّدِّيق، ويعيش على إحسانه، وفي حادثة الإفك لم يتورَّعْ عن الخوض فيها، والخبط في عرض أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي يكفله أبوها، فنسيَ بذلك حقَّ الإسلام، وحقَّ القرابة، وحقَّ الصَّنيع القديم، فأغضب ذلك أبا بكرٍ، وجعله يحلف ألاَّ يصلَ قريبه هذا كما كان يصله، فقال: «والله، لا أنفقُ على مِسْطَحٍ شيئًا أبدًا بَعْدَ الذي قال لعائشة ما قال».

فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلا يَأْتَلِ[6] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ[7] أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة النور: ٢٢).

---

(١) ومنه العَفْوُ عندَ المقدرة.
(٢) «الحُور»: نساءٌ شديدات سواد العيون وبياضها في حُسْنٍ وملاحةٍ، والمفرد حَوْراء.
(٣) «العين»: ضخام الأعين وحسانها، والمفرد عَيْناء.
(٤) رواه أبو داودَ ـ واللفظ له ـ (٤٧٧٧)، والتِّرمذيُّ (٢٠٢١) و(٢٤٩٣)، وابن ماجَهْ (٤١٨٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٦٥١٨ و ٦٥٢٢).
(٥) رواه الطَّبَرانيُّ في «الكبير»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/١٧٦)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).
(٦) «لا يأتل»: لا يحلف، من الأَلِيَّة بمعنى الحَلِف.
(٧) «السَّعَة»: الغنى.

فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه وأرضاه: «بلى، والله، إنيّ لأُحبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لي». فرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال مقابل حَلِفِهِ الأوَّل: «والله، لا أنْزِعُهَا منه أبدًا»[١].

وعن ابن عَمْرٍو رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ارحموا تُرْحَمُوا، واغْفِرُوا يُغْفَرْ لكم»[٢].

٦ ـ أنَّه يقطع خواطر الثَّأر التي تستهلك القلب:

«مشهد السَّلامة وبَرْدِ القلب، وهذا مشهدٌ شريفٌ جداً لمن عرفه، وذاق حلاوتَهُ، وهو ألاَّ يَشْتَغِلَ قلبُهُ وسِرُّهُ بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى دَرْكِ ثأره، وشفاء نفسه، بل يُفَرِّغُ قلبَهُ من ذلك، ويَرَى أنَّ سلامتَهُ وبردَهُ وخُلُوَّهُ منه أنفعُ له، وألَذُّ وأَطْيبُ عنده، وأعونُ على مصالحه؛ فإنَّ القلبَ إذا اشتغل بشيءٍ فاته ما هو أهمُّ عنده، وخيرٌ له منه، فيكون بذلك مغبونًا[٣]، والرَّشيد لا يرضى بذلك، ويرى أنَّه من تصرُّفات السَّفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغِلِّ والوساوس، وإعمال الفكر في إدْراكِ الانتقام؟!»[٤].

٧ ـ أنَّه يقطع إلحاح الجاهل في الظُّلم:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (سورة فصلت: ٣٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠) و(٤٧٥٧) و (٦٦٧٩)، ومسلمٌ (٢٧٧٠).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٥، ٢١٩)، والبخاريُّ في«الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٨٩٧)، و«الصَّحيحة» (٤٨٢).
(٣) «المغبون»: الخاسر والمنقوص، من الغَبْن: وهو الشِّراء بأضعاف الثَّمن، أو البيْع بأقل من ثمن المِثل.
(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٧٠).

قال العلاَّمة محمَّد بن صالح العثيمين ـ يرحمه الله ـ:

«جاءت النَّتيجةُ بـ (إذا الفُجَائيَّة)؛ لأنَّ (إذا الفُجائيَّة) تدلُّ على الحدوث الفوريِّ في نتيجتها: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ولكن ليس كُلُّ أحدٍ يُوفَّقُ لذلك، وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (سورة فصلت: ٣٥)» [١].

يقول ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«فإنَّه إذا ترك المقابلة والانتقام أَمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقم واقعه الخوفُ ولابُدَّ، فإنَّ ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوَّه، ولو كان حقيرًا، فكم من حقير أردى عَدُوَّه الكبير».

ولله درُّ محمَّدٍ اليمنيِّ المُلقَّب بنجم الدِّين حين قال:

لا تَحْتَقِرْ كَيْدَ الضَّعيفِ فربُّما ... تموتُ الأفاعي مِنْ سُمُومِ العَقَاربِ
وقَدْ هَدَّ قِدْمًا [٢] عَرْشَ بِلْقِيسَ هُدْهُدٌ ... وخَرَّبَ حَفْرُ الفَأرِ سَدَّ مَآربِ [٣]

وقال آخرُ:

لا تَحْتَقِرْ شيئًا صغيرًا يُحْتَقَرْ ... فَرُبَّمَا أَسَالَتِ الدَّمَ الإِبَرْ [٤]

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (ص٢٦).

(٢) «قِدْمًا»: قديمًا.

(٣) «جواهر الأدب» (ص٦٩٧).

(٤) المرجع السابق.

ويواصل ابن القيِّم كلامه السَّابق فيقول:

«فإذا غفر، ولم يُقَابل أَمِنَ من تَوَلُّد العداوة، أو زيادتها، ولابُدَّ أنَّ عَفْوَهُ وحِلْمَهُ وصَفْحَهُ يكسرُ عنه شوكةَ عَدُوِّه، ويكُفُّ مِنْ جَزَعِهِ بعكس الانتقام، والواقع شاهدٌ بذلك أيضًا»[1].

وقال بعض الأدباء: «مَنْ غرس شجرة الحِلْم، اجتنى ثمرةَ السِّلْم»[2].

وقال الإمام الشَّافعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

لَمَّا عَفَوْتُ، ولم أحقدْ على أحدٍ ◘ أَرَحْتُ نفسي مِنْ هَمِّ العَداوتِ

إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عندَ رؤيتِهِ ◘ لأَدْفَعَ الشَّرَّ عنِّي بالتَّحِيَّاتِ

وأُظْهِرُ البِشْرَ لإنسانٍ أُبْغِضُهُ ◘ كأنَّما قَدْ حَشَا قلبي مَحَبَّاتِ

النَّاسُ داءٌ دَوَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمُ ◘ وفي اعْتِزَالِهِمُ قَطْعُ المَوَدَّاتِ[3]

٨ ـ أنَّه يصون عِرْض صاحبه، ويجلب له حَمْدَ النَّاس ونُصْرتهم:

قال بعضُ البلغاء: «ماذَبَّ عن الأَعْرَاض كالصَّفْحِ والإِعْرَاض»[4].

وقال الإمام عليٌّ ﷺ: **«أوَّلُ عِوَضِ الحليمِ عَنْ حِلْمِهِ أنَّ النَّاسَ أنصارُهُ»**[5].

---

(١) «تهذيب مَدَارج السَّالكين» (٢/ ٦٧٠ ـ ٦٧١).

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥١).

(٣) المرجع السابق (ص١٨٢).

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥١).

(٥) المرجع السَّابق.

■ الأسباب الباعثة على الحلم، وضبط النَّفس عن هيجان الغضب:

ثمَّة عشرة أسباب تدعو إلى الحِلْم[1]:

أحدها - رحمة الجهَّال، وذلك من خير يوافق رقَّة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣).

وقد قيل في منثور الحكم: «أوكد الحِلْم رحمةُ الجُهَّال».

عن ابن عبَّاس ﷺ قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فنزل على ابن أخيه الحُرِّ ابن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدْنيهم عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ[2] أصحابَ مجالس عُمَرَ ومُشَاورته، كُهُولاً[3] كانوا أو شُبَّانًا، فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يابْنَ أخي، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير؛ فاستأذنْ لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابْنُ عبَّاسٍ: فاستأذن الحرُّ لعُيَيْنَةَ، فأذن له عُمَرُ، فلمَّا دخل عليه قال: هِيْ[4] يا بنَ الخطَّاب، فوالله، ما تُعطينا الجَزْلَ[5]، ولا تحكمُ بيننا بالعدل، فغضب عُمَرُ حتَّى هَمَّ به، فقال له الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩). والله، ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله[6].

---

(١) انظر: المرجع السَّابق.
(٢) «القُرَّاء»: القراء هنا هم أهل العلم والفقه والفَهْم.
(٣) «الكُهُول»: جمع كَهْلٍ، وهو الذي جاوز الثَّلاثين.
(٤) «هِيْ»: كلمة تنبيه، وتحمل معنى التَّهديد.
(٥) «الجَزْل»: الشَّيء الكثير.
(٦) رواه البخاري (٤٦٤٢) و(٧٢٨٦).

فهذا الأعرابيُّ لم يدخل على عُمَرَ ناصحًا بخيرٍ، أو طالبًا لحقٍّ، وإنَّما دخل عليه في سلطانه؛ ليشتُمَهُ دون مُبَرِّرٍ، وليسأله عطاءً جَزْلاً على غير عَمَلٍ؛ فلهذا غضب عُمَرُ وهَمَّ بردعه، فلمَّا ذُكِّرَ أنَّ الرَّجل من الجُهَّالِ، أعرض عنه، وتركه ينصرف سالمًا.

والثَّاني - القُدْرة على الانتصار، وذلك من سعة الصَّدر، وحُسْنِ الثِّقة:

عَقِبَ فتح مكَّةَ صلى رسول الله ﷺ في الكعبة، ثُمَّ خطب قريشًا، فقال: **«يا معشرَ قريشٍ، ما تَرَوْنَ أنِّي فاعلٌ بكم؟». قالوا: «خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابْنُ أخٍ كريم». قال: «فإنِّي أقول لكم كما قال يوسفُ لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** (سورة يوسف: ٩٢). **اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء»**[1].

وكتب إبراهيمُ بْنُ المَهْديِّ في كلام المأمون: «إنْ عَفَوْتَ فبفضلك، وإنَّ أخذت فبحقِّك». فوقَّع[2] المأمونُ: «القُدْرة تُذْهِبُ الحفيظة»[3].

وقال بعض البلغاء: «أحسنُ المكارم عَفْوَ المقتدر، وجودُ المفتقر».

وقال بعض الحكماء: «ليس من الكرم عقوبةُ مَنْ لا يجدُ امتناعًا من السَّطوة».

ومَنْ ظنَّ أنَّ الصَّفْحَ والحِلْمَ عمَّن أساء، والإحسانَ إليه مع القُدْرة عليه يُوجب الذُّلَّ والمهانة - فقد خاب ظنُّهُ؛ لأنَّ العَفْوَ - إذا كان في مَحَلِّه - هو عين العزَّة والرِّفعة والشَّرف، وهذا مُجَرَّبٌ مُشَاهَدٌ، فما انتقم أحدٌ لنفسه إلاَّ ذَلَّ.

---

(١) «الرَّحيق المختوم» (٣٧٢).

(٢) «التَّوقيع»: رأي الحاكم يكتبه على ما يعرض عليه مِنْ شئون الدَّولة.

(٣) «الحفيظة»: الحَمِيَّة والغَضَب.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما زاد اللهُ عبداً بعفوٍ إلاَّ عِزّاً»[١].

وعنه ـ أيضًا ـ أنَّ رجلاً قال: «يا رسول الله، إنَّ لي قرابةً أصلُهُم ويقطعونني، وأُحسنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلُمُ عنهم ويَجْهَلُون عليَّ». فقال رسول الله ﷺ: «لَئِنْ كنتَ كما قلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزالُ معَكَ من اللهِ ظهيرٌ عليهم، ما دُمْتَ على ذلك»[٢].

قال كَعْبُ بْنُ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ:

حَلِيمٌ إذا مَا الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العَدُوِّ مَهِيبُ[٣]

وقال آخرُ:

وإذا مُذنِبٌ أتاهُ بهِ الحقُّ ... فغطَّاهُ عفوُهُ في سُتُورِهْ

راجياً للثَّوابِ في كلِّ رُزْءٍ[٤] ... مِنْ خَفِيِّ الأُمُورِ أو مَشْهُورِهْ

فهو في عاجلِ الحياةِ كريمٌ ... ومِنَ الفائزينَ يومَ نُشُورِهْ

خَصْلَةٌ جَزْلَةٌ بها خَصَّهُ اللهُ ... لِزَيْنِ الدُّنيا ويَوْمِ سُرُورِهْ[٥]

فثمَّة بَوْنٌ شاسعٌ بين مَنْ أسقط حقَّه بترك الانتقام ـ مع قدرته عليه ـ رغبةً في الإحسان، ومكارم الأخلاق، وبين مَنْ ترك الانتقام عن عجزٍ عنه، فالأوَّل حلمه حلم اقتدار وعزَّة وشرف، والثَّاني حلمه حلم ذُلٍّ ومهانة وحقارة، فالأوَّل محمودٌ، والثَّاني مذمومٌ، بل لعلَّ الآخذ بثأره، المنتقم لنفسه أحسنُ حالاتٍ منه.

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٨٨).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) «الحلم» لابن أبي الدُّنيا (ص٦٠).

(٤) «الرُّزء»: واحد الأرزاد، وهي المصائب.

(٥) «روضة العقلاء» (ص٢٨١).

قال الشاعر:

كُلُّ حِلْمٍ أتى بغيرِ اقتدارٍ ... حُجَّةٌ لاجئٌ إليها اللِّئامُ[(١)]

والثَّالث - التَّرفُّع عن السِّباب، وذلك من شرف النَّفس، وعُلُوِّ الهمَّة:

قالت الحكماء: «شرف النَّفس أنْ تحمل المكاره، كما تحمل المكارم».

وقال الشافعيُّ - يرحمه الله -:

إذا سَبَّني نَذْلٌ تزايدْتُ رِفْعةً ... وما العَيْبُ إلاَّ أنْ أكونَ مُسَابِبُه

ولو لم تكنْ نفسي عليَّ عزيزةً ... لَمكَّنْتُها مِنْ كُلِّ نَذْلٍ تُحَارِبُه[(٢)]

والرَّابع - الاستهانة بالمسيء، وذلك عن ضربٍ من الكبر والإعجاب:

حُكِيَ عن مصعب بن الزُّبير أنَّه لَمَّا ولي العراق جلس يومًا لعطاء الجُنْد، وأمر مناديه، فنادى: أين عَمْرو بن جرموز؟. وهو الذي قتل أباه الزُّبير، فقيل له: أيُّها الأميرُ، إنَّه قد تباعد في الأرض. فقال: أويظنُّ الجاهل أنيِّ أقيده بأبي عبد الله؟!، فليظهرْ آمنًا؛ ليأخذ عطاءَه موفرًا. فعدَّ النَّاس ذلك من مستحسن الكِبْرِ.

وأكثر رجلٌ من سبِّ الأحنف، وهو لا يُجيبه، فقال - أي السَّابُّ -: «والله، ما منعه من جوابي إلاَّ هَوَاني عليه».

(١) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٦٠).

(٢) «ديوان الشافعيِّ» (ص٢٩) تحقيق وشرح البقاعي.

قال الشاعرُ:

أَوَ كُلَّمَا طَنَّ الذُّبابُ طردتُهُ؟! ∘▪∘ إنَّ الذُّبابَ ـ إذا ـ عليَّ كريمُ

وقال آخرُ:

نجاحك لُؤْمُكَ منجى الذُّبا ∘▪∘ بِ حَمَتْهُ مَقاذيرُهُ أَنْ ينالا

والخامس ـ الاستحياء من جزاء الجواب، وهذا يكون من صيانة النَّفس، وكمال المروءة:

قال لقيط بن زرارة:

وقُلْ لبني سَعْدٍ: فمالي ومالكم ∘▪∘ ترقُّون منِّي ما استطعتمْ وأعتقُ؟!

أغرَّكم أنيَّ بأحسنَ شيمة[1] ∘▪∘ بصيرٌ، وأنِّي بالفواحشِ أخْرَقُ[2]

وإنْ تَكُ فاحَشْتَني فقهرتَني ∘▪∘ هنيئًا مريئًا، أنت بالفُحْشِ أحْذَقُ[3]

والسَّادس ـ التَّفضُّل على السِّبَاب، فهذا يكونُ من الكرم، وحُبِّ التَّألفِ:

قيل للإسكندر: إنَّ فُلانًا وفلانًا ينقصانك ويثلبانك؛ فلو عاقبتهما فقال: «هما بعد العقوبة أعذرُ في تَنَقُّصي وثلبي». فكان هذا تفضُّلاً منه وتألفًا.

وحُكِيَ عن الأحنف بن قيس أنَّه قال: «ما عاداني أَحَدٌ ـ قطُّ ـ إلاَّ أخذتُ في أمره بإحدى ثلاث خصالٍ: إنْ كان أعلى منِّي عرفْتُ له قَدْرَهُ، وإنْ كان دُوني رفعتُ قدري عنه، وإنْ كان نظيري تَفَضَّلْتُ عليه». فأخذه الخليل، فنظمه شعرًا، فقال:

---

(١) «الشِّيمة»: الخُلُق، والجمع شِيَمٌ.

(٢) «أَخْرَق»: جاهل.

(٣) «احذق»: ماهر.

سألزمُ نفسي الصفحَ عن كل مذنبٍ ▫▪▫ وإن كثرتْ منه إليَّ الجرائمُ
فما النَّاسُ إلاَّ واحدٌ منْ ثلاثةٍ: ▫▪▫ شريفٌ، ومشروفٌ، ومِثْلٌ مُقاومِ
فأمَّا الذَّي فوْقي فأعرفُ قدْرَهُ ▫▪▫ وأتبعُ فيه الحقَّ، والحَقُّ لازمُ
أمَّا الذَّي دُوْني فأحْلُمُ دائبًا ▫▪▫ أصونُ بِهِ عِرْضي، وإنْ لامَ لائمُ
وأمَّا الذَّي مِثْلي فإنْ زلَّ أو هَفَا[1] ▫▪▫ تَفَضَّلْت، إنَّ الفَضْلَ بالفخرِ حاكمُ

والسَّابع - استنكاف السباب، وقطع السباب، وهذا يكون منَ الحَزْم:

حُكِيَ أنَّ رجلاً قال لضرار بن القعقاع: «والله، لو قلتَ واحدةً لَسمعتَ عَشْرًا».

فقال له ضرار: «والله، لو قلتَ عشراً لم تسمعْ واحدةً».

قال الشَّاعرُ:

وفي الحِلْمِ رَدْعٌ للسَّفيهِ عَنِ الأذى ▫▪▫ وفي الخَرْقِ[2] إغراء، فلا تَكُ أخْرَقا
فتندم إذْ لا تنفعنَّك نَدَامةٌ ▫▪▫ كما نَدِمَ المَغْبُون لمَّا تَفَرَّقا

والثَّامن - الخوف منَ العقوبة على الجواب، وهذا يكونُ منْ ضَعْفِ النَّفس، ورُبَّما أوجبه الرَّأيُ، واقتضاهُ الحَزْمُ:

قيل في منثور الحكم: «الحِلْمُ حجابُ الآفاتِ».

وقال الشَّاعرُ:

ارفُقْ إذا خِفْتَ منْ ذي هَفْوَةٍ خَرْقَا ▫▪▫ ليس الحليمُ كَمَنْ في أمرهِ خَرْقُ

---

(١) «هَفَا»: زلَّ وأخطأ.

(٢) «الخرق»: الجَهْل ضدُّ الرِّفْق.

والتَّاسع ـ الرِّعاية ليدٍ سالفةٍ، وحرمةٍ لازمةٍ، وهذا يكون من الوفاء، وحُسْن العهد:

قيل في منثور الحكم: «أكرمُ الشِّيَمِ أرعاها للذِّمَمِ».

وقال الشَّاعرُ:

إنَّ الوفاءَ على الكريم فريضةٌ ◘■◘ واللُّؤمُ[1] مَقْرونٌ بذي الإخلافِ

وترى الكريمَ لِمَنْ يُعَاشِرُ مُنْصفًا ◘■◘ وتري اللَّئيمَ مُجَانبَ الإنصافِ

والعاشر ـ المَكْر، وتوقُّع الفُرَص الخلفيَّة، وهذا يكون من الدَّهاء:

قال الشَّاعرُ:

فرقِّع الخَرْقَ بلُطْفٍ واجتهدْ ◘■◘ وامْكُرْ إذا لم ينفع الصِّدقُ وكدْ

فهكذا الحازمُ إذْ يكيدُ ◘■◘ يبلغُ في الأعداءِ ما يُريدُ[2]

وقد قيل في منثور الحكم: «مَنْ ظهر غَضَبُهُ قَلَّ كَيْدُهُ».

وقال بعض الأدباء: «غَضَبُ الجاهلِ في قوله، وغَضَبُ العاقلِ في فعله».

وقال بعض الحكماء: «إذا سكتَّ عن الجاهل، فقد أوسعته جوابًا، وأوجعتَهُ عقابًا».

وقال آياسُ بْنُ قتادةَ:

تُعَاقبُ أيدينا، ويَحْلُمُ رَأْيُنَا ◘■◘ ونَشْتُمُ بالأفعالِ لا بالتَّكَلُّمِ

---

(١) «اللُّؤم»: اسمٌ جامعٌ للخصَال المذمومة.

(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٧٩).

قال الماورديُّ - يرحمه الله -:

«فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحِلْم، وبعض الأسباب أفضلُ من بعضٍ، وليس إذا كان بعضُ أسبابه مفضولاً ما يقتضي أن تكون نتيجتُهُ من الحِلْم مذمومةً، إنَّما الأولى بالإنسان أن يدعُوَهُ للحِلْم أفضلُ أسبابه، وإنْ كان الحِلْمُ كُلُّهُ فَضْلاً، وإنْ عَرِيَ[1] عن أَحَدِ هذه الأسباب، كان ذُلاً ولم يكن حِلْمًا؛ لأنَّنا قد ذكرنا في حَدِّ الحِلْم أنَّه ضبط النَّفس عن هيجان الغضب، فإذا فقد الغضب لسماع ما يُغْضِبُ، كان ذلك من ذُلِّ النَّفس، وقلَّة الحَمِيَّة، وقد قالت الحكماء: ثلاثةٌ لا يُعْرَفون إلاَّ في ثلاثة مواطنَ: لا يُعْرَف الجَوَادُ إلاَّ في العُسْرة، والشَّجاعُ إلاَّ في الحَرْب، والحليمُ إلاَّ في الغَضَب.

وقال الشَّاعرُ:

ليست الأحلامُ في حالِ الرِّضى ... إنمَّا الأحلامُ في حالِ الغَضَبْ

وقال آخرُ:

مَنْ يَدَّعي الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ ... لا يُعْرَفُ الحِلْمُ إلاَّ ساعةَ الغَضَبِ

وأنشد النَّابغة الجَعْديُّ بحضرة النبيِّ ﷺ:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم يكنْ لَهُ ... بَوادِرُ[2] تَحْمِي صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا

ولا خيرَ في جَهْلٍ إذا لم يكنْ لَهُ ... حَلِيْمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمْرَ أَصْدَرا

فلم يُنْكِر ﷺ قولَهُ عليه.

---

(١) «عَرِيَ»: خَلاَ.

(٢) «بوَادِر»: جمع بادرة، وهي الحِدَّةُ عندَ الغَضَب..

ومَنْ فَقَدَ الغَضَبَ في الأشياء المغضبة، حتَّى استوتْ حالتاه قَبْلَ الإغضاب وبَعْدَهُ، ـ فقد عَدِمَ من فضائل النَّفس الشَّجاعةَ، والأَنَفَةَ[(١)]، والحَمِيَّة، والغَيْرَة، والدِّفاعَ، والأخذ بالثَّأر؛ لأنَّها خِصالٌ مُرَكَّبَةٌ من الغضب، فإذا عَدِمَها الإنسانُ هان بها، ولم يكن لباقي فضائله في النُّفوس موضع، ولا لوفور حلمه في القلوب موقع» إلى أن قال: «وليس هذا القولُ إغراءً بتحكُّم الغضب، والانقياد إليه عند حدوث ما يُغْضِبُ، فيكسب بالانقياد للغضب من الرَّذائل أكثر ممَّا يسلبُهُ عدمُ الغَضَبِ من الفضائل، ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم ما يُغْضِبُهُ، كفَّ سَوْرَتَهُ[(٢)] بحَزْمه، وأطفأ ثَائِرَتَهُ بحلمه، ووَكَلَ مَنِ استحقَّ المُقَابَلَةَ إلى غيره»[(٣)].

ولعلَّ من أحكم ما قيل في تدبير الحِلْم والغَضَب قولَ أبي حاتم:

إذا أَمِنَ الجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ... فَعِرْضُكَ للجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الغنم

فَعَمَّ[(٤)] عليه الحِلْمَ والجَهْلَ، والقَهُ ... بمنزلةٍ بَيْنَ العَداوةِ والسِّلْم

إذا أنتَ جازيْتَ السَّفيهَ كما جَزَى ... فأنت سَفيهٌ مِثْلُهُ غيرُ ذي حِلْمَ

ولا تُغْضِبَنَّ عِرضَ السَّفيهِ، وداره ... بحلْم، فإنْ أعيا عليكُمْ فبالصَّرْمِ[(٥)]

فيرجوك تاراتٍ، ويَخْشَاكَ تارةً ... ويأخذُ فيما بَيْن ذلكَ بالحَزْمَ

فإنْ لم تجدْ بُدّاً مِنَ الجَهْلِ فاسْتَعِنْ ... عليه بجُهَّالٍ، فذاكَ مِنَ العَزْمْ[(٦)]

---

(١) «الأَنَفَة»: عزَّة النَّفس.
(٢) «سَوْرَتَهُ»: قُوَّته.
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين (ص٢٥٥ - ٢٥٧).
(٤) «عَمِّ»: أخفِ.
(٥) «الصَّرْم»: القَطع والذَّهاب.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٧).

يقول الماورديُّ ـ يرحمه الله ـ مُعَقِّبًا على ما سبق:

«وهذا التَّدبير إنَّما يُسْتَعْمَلُ فيما لا يجدُ الإنسانُ بُدّاً من مقارنته، ولا سبيلَ إلى اطراحه ومتَارِكته، إمَّا لخوف شَرِّه، أو للزوم أمرِه، فأمَّا مَنْ أمكن اطِّراحُهُ، ولم يَضُرَّ إبعادُهُ ـ فالهوانُ به أولى، والإعراضُ عنه أصوبُ»[(١)].

واعلم ـ أخي ـ أنَّ الحِلْمَ منه طَبْعٌ، ومنه تطبُّعٌ، فمَنْ حُرِمَ الحِلْمَ طبعًا، فإنَّه يمكنه أَنْ يَنَالَهُ عَنْ سبيل التَّطبُّع، وذلك بالمجاهدة والممارسة.

قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّم، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحَلُّم، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»**[(٢)].

وقال ﷺ للأشجِّ بن عَبْدِ القَيْسِ: **«إنَّ فيك لخُلُقينِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ». قال: «أهما خُلُقانِ تَخلَّقتُ بهما، أم جَبَلَني اللهُ عليهما؟». قال: «بلْ جَبَلَكَ اللهُ عليهما». فقال: «الحَمْدُ لله الذي جَبَلَني اللهُ على خُلُقَيْنِ يُحبُّهما اللهُ ورسولُهُ»**[(٣)].

فهذا دليلٌ على أنَّ الحِلْمَ يكون طبعًا، ويكون تطبُّعًا، كما قيل:

لَعَمْرُكَ إنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ ... وما الحِلْمُ إلاَّ عادةٌ وتَحَلُّمُ[(٤)]

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٧).

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير» (١٩/ ٣٩٥) عن معاويةَ، والخطيبُ في تاريخه (٩/ ١٢٧)، عن أبي هريرةَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٣٢٨)، و«الصحيحة» (٣٤٢).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) «أقوالٌ مأثورةٌ» (ص٤٤٠).

وهذا حليمُ العَرَب الأحنفُ بْنُ قَـيْسٍ ـ يرحمه الله ـ تكلَّف الحِلْمَ، حـتَّى أصبح يُتَمثَّلُ بحلمه[١]، وهو القائل: «لستُ بحليمٍ، ولكنيٍّ أتحلَّمُ»[٢].

وإنْ كان الحِلْمُ في العوامِّ جميلاً، فهو عند حملة العِلْم أجهلُ.

قال طاوسٌ ـ يرحمه الله ـ:

«ما حُمِلَ العِلْمُ في مِثْلِ جراب[٣] حِلْمٍ»[٤].

وقال ابنُ حبَّانَ ـ يرحمه الله ـ:

«ما ضُمَّ شيءٌ إلى شَيْءٍ هو أحسنُ مِنْ حِـلْمٍ إلى عِلْمٍ، وما عُدِمَ شيءٌ في شيءٍ هو أقبحُ من عدمِ الحِلْمِ في العالمِ»[٥].

قال الشَّاعرُ:

ومِنَ الرِّجـالِ إذا زَكَتْ أَحْـلامُـهُـمْ ... مَنْ يُسْتَشارُ إذا اسْتُشِيْرَ فيطرقُ
حـتَّى يَجُـولَ بكُلِّ وادٍ قَلْبُـهُ ... فـيَرى ويَعْرِفُ مـا يقولُ فـيَنْطِقُ
إنَّ الحَـليـمَ إذا تَـفَـكَّـرَ لـم يَـكَـدْ ... يَخْـفى عليه مِنَ الأُمُـورِ الأوفقُ[٦]

---

(١) «يُتَمَثَّلُ بحلمه»: أي يُضْرَبُ بحلمه المَثَلُ.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٧٩).
(٣) جراب ـ بكسر الجيم وفتحها، والكسر أفصح ـ: وِعَاءٌ من جِلْدٍ، ويُجْمع على أَجْرِبَةٍ.
(٤) الدَّارميُّ (١/ ١٥٢).
(٥) «روضة العقلاء» (ص٣٤٩ - ٣٥٠).
(٦) المرجع السَّابق».

الكَـرَمُ

الكرم: لُبـاب الأخلاق الفـاضلة، ومـدارج الفـضيلـة، وُصِفَتِ الأخـلاقُ به، وشرفت بالانتساب إليه من باب إضافـة الصِّفة للموصوف، فكُلُّ شيءٍ يشرف في بابه يوصف به.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قـال: «**إنَّمـا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ - وفي رواية: صالحَ - الأخلاقِ**»[1].

وحَسْبُك أنَّ الكرم صفةٌ من صفات الله تبارك وتعالى.

عن سَعْدٍ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ كريمٌ، يُحِبُّ الكُرَماءَ، جَوَادٌ يحبُّ الجَوْدَةَ**»[2].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ تعالى جَوَادٌ، يحبُّ الجُوْدَ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ، ويكرهُ سفْسافَهَا**»[3].

وعن سَهْلٍ بـن سَعْدٍ السَّـاعديِّ رضي الله عنه أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ كريمٌ، يحبُّ الكَرَمَ**»[4].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) رواه ابن عسـاكر والضـياء، وصـحَّحه الألبـانيُّ في «صحـيح الجامع» (١/ ١٨٠٠) و«الصَّـحيـحة» (١٣٧٨) و (١٦٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحـلية»، وصحّـحه الألباني في «صـحيح الجـامع» (١/ ١٧٤٤)، و«الصَّحيـحة» (١٦٢٧).

(٤) رواه الطَّبَرَانـيُّ في «الكبير» وصـحَّحـه الألباني في «صـحيح الجامع» (١/ ١٨٠١)، و«الصَّـحيـحة» (١٣٧٨) و(١٦٢٦).

وعن سَلمَانَ الفارسيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ ربَّكُمْ حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عبدِهِ أَنْ يرفعَ إليه يَدَيْهِ، فيردُّهُمَا صِفرًا - وقال - خائبَتَيْنِ»[1].

والكرم - أيضًا - من سنن المرسلين.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أحسنَ النَّاس، وأَجْوَدَ النَّاس، وأشجعَ النَّاس»[2].

و«كان صلى الله عليه وسلم لا يَرُدُّ أحدًا يسأله».

عن جابر رضي الله عنه قال: «ما سُئِلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن شيءٍ - قَطُّ - فقال: لا»[3].

وأهدتْ إليه امرأةٌ بُرْدَةً[4] - وكان محتاجًا إليها - فرآها عليه رجلٌ من الصَّحابة، فقال: «يا رسولَ الله، ما أحسنَ هذهِ! فاكْسُنِيها». قال: «نَعَمْ». فلامَ الصَّحابةُ ذلك الرَّجلَ قائلين له: «أخذها مُحتاجًا إليها، ثُمَّ سألتَهُ إيَّاها، وقد عرفتَ أنَّه لا يُسألُ شيئًا فيمنعَهُ!». فقال: «رَجَوْتُ بَرَكَتَها حين لَبِسَهَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ لعليَّ أُكَفَّنُ فيها»[5].

قال الشَّاعرُ:

عَشقَ المكارمَ، فهو معتمدٌ لها ۞ والمَكْرُمَاتُ قليلةُ العُشَّاقِ

وأقام سُوقًا للثَّناءِ، ولم تكنْ ۞ وسُوقُ الثَّناءِ تُعَدُّ في الأسواقِ

بثَّ الصَّنائعَ في البلادِ، فأصبحَتْ ۞ تُجْبَى إليه مكارمُ الأخلاق

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٠٤٠) و(٦٠٣٣)، ومسلمٌ (٢٣٠٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٣٤)، ومسلمٌ (٢٣١١).

(٤) «البُرْدَةُ»: شَمْلَةٌ منسوجٌ في حاشيتها يُتلفَّفُ بها.

(٥) رواه البخاريُّ (١٢٧٧) و(٥٨١٠) و(٦٠٣٦) عن سَهْلٍ السَّاعديِّ.

والكرم مرتبطٌ بالإيمان ارتباطًا وثيقًا، فقد وصف النَّبيُّ ﷺ المؤمنَ بقوله: «المؤمنُ غِرٌّ كريمٌ، والفاجرُ خبٌّ[(١)] لئيمٌ»[(٢)].

وقال في حديث آخر: «لا يجتمعُ الشحُّ والإيمانُ في قلبِ عبْدٍ أبدًا»[(٣)].

وما ستر العُيُوبَ كالكرم والجود، كما قال الشَّافعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

وإنْ كَثُرَتْ عُيُوبُك في البَرَايَا ... وسَرَّك أنْ يكونَ لها غِطاءُ

تستَّرْ بالسَّخاءِ، فكلُّ عَيْبٍ ... يُغَطِّيْهِ ـ كما قيل ـ السَّخاءُ[(٤)]

فتحلَّ ـ أخي ـ بصفة الكرم، وليكنْ كَرَمُكَ ابتداءً عن غير مسألةٍ، تكنْ أطبعَ النَّاسِ سخاءً، وأشرفهم عطاءً.

سئل عليٌّ ـ كرَّم اللهُ وجهه ـ عن السَّخاء، فقال: «ما كان منه ابتداءً، فأمَّا ما كان عن مسألةٍ فحياءٌ»[(٥)].

وقال بعض الحكماء: «أجلُّ النَّوالِ[(٦)] ما وصل قَبْلَ السُّؤالِ»[(٧)].

---

(١) الخِبُّ ـ بفتح الخاد وكسرها ـ: اللَّئيم الخداع، فعله خَبَّ يَخَبُّ بفتح الخاء فيهما.
(٢) رواه أبو داودَ (٤٧٩٠)، والتِّرمذيُّ (١٩٦٤) عن أبي هريرة، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٦٦٥٣)، و«الصَّحيحة» (٩٣٥).
(٣) رواه النَّسائيُّ (٣١١٢) و (٣١١٣) و (٣١١٤) و (٣١١٦) و (٣١١٧) عن أبي هريرة، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٦١٦).
(٤) «ديوان الشَّافعيُّ» (ص٢٢) تحقيق وشرح البقاعي.
(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٨).
(٦) «النَّوال»: العطاء.
(٧) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٨).

وقال بعضُ الشُّعراء:

وفتىً خَلاَ مِنْ مالِهِ ◘ ومِنَ المُروءةِ غيرُ خالي
أعْطَاكَ قَبْلَ سُؤالِهِ ◘ وكَفَاكَ مَكْرُوهَ السُّؤالِ[1]

ومتى قدرْتَ ـ أخي ـ على الكرم والجود، فاغتنم هذه الفرصة، وبادرْ بتعجيله حَذَرَ فواته، وخيفةَ عجزك.

قيل لأنوشروان: «ما أعظم المصائب عندكم؟». قال: «أنْ تقدرَ على المعروف، ولا تصطنعه حتَّى يفوت»[2].

وقال عبد الحميد: «مَنْ أخَّرَ الفرصة عن وقتها، فَلْيكنْ على ثِقةٍ من فَوْتِها»[3].

وقال بعض الشُّعراء:

إذا هَبَّتْ رياحُك فاغْتَنِمْهَا ◘ فإنَّ لكُلِّ خافِقةٍ سُكُونُ
ولا تغفلْ عَنِ الإحسانِ فيها ◘ فما تَدْرِي السُّكونُ متي يكونُ
وإنْ دَرَّتْ نِياقُكَ[4] فاحتلبْها ◘ فما تَدْري الفَصِيلُ[5] لِمَنْ يكونُ[6]

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٨).
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٢).
(٣) المرجع السابق (ص٢٠٢ - ٢٠٣).
(٤) «نِيَاق»: جمع ناقة.
(٥) «الفَصيل»: الصَّغير من الإبل، والجمع فِصَالٌ.
(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٣).

■ واعلمْ ـ أخي ـ أنَّ للمعروف شروطًا لا يتمُّ إلاَّ بها، ولا يكمل إلاَّ معها[1]، فمن ذلك:

١ ـ ستره عن إذاعة يستطيل بها، وإخفاؤه عن إشاعة يستدلُّ بها:

قال بعض الحكماء: «إذا اصطنعتَ المعروفَ فاستره، وإذا صُنِعَ إليك فانشره».

وقال دِعْبِلُ الخُزَاعيُّ:

إذا انتقموا وأعلنوا أَمْرَهُم ◘■◘ وإنْ أَنْعَمُوا أَنْعَمُوا باكْتِتَام

يقومُ القُعُودُ إذا أقبلوا ◘■◘ وتقعدُ هَيْبَتُهُمْ بالقيام

على أنَّ ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره، وأبلغ دواعي نشره، لما جُبِلَتْ علسه النُّفوس من إظهار ما خُفِيَ، وإعلان ما كُتِمَ.

قال سَهْلُ بن هارون:

خِلٌّ إذا جِئْتَهُ يومًا لتسألَهُ ◘■◘ أعطاك ما مَلَكتْ كفَّاهُ واعتذرا

يُخْفي صَنَائِعَهُ، واللهُ يُظْهِرُهَا ◘■◘ إنَّ الجميلَ إذا أخفيتهُ ظَهَرا

٢ ـ تصغيره عن أن يراه مستكبرًا، وتقليله عن أن يكون مستكثرًا؛ لئلاَّ يصير به مدلاً بطرًا، ومستطيلاً أشرًا.

قال العبَّاس بن عبد المطَّلب ﷺ: «لا يتمُّ المعروفُ إلاَّ بثلاثِ خِصَالٍ: تعجيله، وتصغيرهِ، وستره، فإذا عجلْتَهُ هنأته، وإذا صغَّرتَهُ عظمته، وإذا سترته أتْمَمْتَهُ».

---

(١) انظر: المرجع السَّابق.

قال بعض الشُّعراء:

زادك المعروفُ عندي عِظَمًا ▫▪▫ إنَّه عندكَ ميسورٌ حقيرُ

وتناسيتَ كأن لم تأتِهِ ▫▪▫ وهو عندَ النَّاسِ مشهورٌ خطيرُ

٣ ـ مجانبة الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله؛ لما فيهما من إسقاط الشُّكر، وإحباط الأجر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤).

وسمع ابن سِيْرِينَ رجلاً يقول لرجل: فعلتُ إليك وفعلتُ، فقال ابن سِيْرِيْنَ: «اسكتْ، فلا خيرَ في المعروف إذا أُحْصِيَ».

وقال بعض البلغاء: «مَنْ مَنَّ بمعروفِهِ أسقط شكره، ومَنْ أُعْجِبَ بعمله أحبط أجره».

وقال بعض الفصحاء: «قُوَّةُ المِنَنِ[1] من ضعف المُنَنِ».

قال بعض الشُّعراء:

أفسدْتَ بالمَنِّ ما أسديتَ[2] مِنْ حسنٍ ▫▪▫ ليس الكريمُ إذا أسدى بمَنَّانِ

وقال أبو نُوَاسٍ:

فامْضِ لا تَمْنُنْ عليَّ يَدًا[3] ▫▪▫ مَنُّكَ المعروفَ مِنْ كَدَرِهْ

---

(١) «المِنَن»: جمع مِنَّةٍ، وهي النِّعمة.

(٢) «أسديتَ»: أعطيتَ.

(٣) «اليد»: النِّعمة والإحسان.

وقالَ الشافعيُّ رحمه الله:

لا تَحْمِلَنَّ لِمَنْ يَمُنُّ مِنَ الأنامِ عليكَ مِنَّهْ ... واخترْ لنفسِكَ حظَّها واصبِرْ، فإنَّ الصَّبرَ جُنَّهْ[1]

مِنَنُ الرِّجالِ على القلوبِ أشدُّ مِنْ وَقْعِ الأسِنَّهْ[2]

وقال ابن المعتزِّ العبَّاسيُّ:

ليس الكريمُ الذي يُعْطي عَطِيَّتَهُ ... عَنِ الثَّناءِ، وإنْ أغلى بهِ الثَّمَنَا

بل الكريمُ الذي يُعْطي عَطِيَّتَهُ ... لغَيْرِ شيْءٍ سِوَى استحسانِهِ الحَسَنَا

لا يَسْتَثيبُ[3] ببَذْلِ العُرْفِ[4] مَحْمَدَةً[5] ... ولا يَمُنُّ إذا ما قَلَّدَ المِنَنَا[6]

٤ ـ ألاَّ يحتقر منه شيئًا، وإنْ كان قليلاً نَزْرًا، إذا كان الكثيرُ معوزًا، وكنتَ عنه عاجزًا، فإنَّ مَنْ حقَّر يسيره فمنع منه، أعجزه كثيره فامتنع عنه، وفعل قليل الخير أفضلُ من تركه.

قال عبدُ الله بْنُ جَعْفَرٍ: «لا تستح مِنَ القليل، فإنَّ المنعَ منه أقلُّ منه، ولا تَجْبُنَ عنِ الكثير، فإنَّك أكثرُ منَه».

وقال الشَّاعر:

اعملَ الخيرَ ما استطعْتَ، وإنْ كا ... نَ قليلاً، فلَنْ تُحيطَ بكُلِّهِ

ومتى تفعلُ الكثيرَ مِنَ الخيـ ... ـرِ إذا كُنْتَ تاركًا لأقَلِّهِ؟!

---

(١) «جُنَّة»: وقاية.

(٢) «الأسِنَّة»: أطراف الرِّماح والمفرد سِنَانٌ.

(٣) «لا يستثيب»: لا يسأل أن يُثابَ.

(٤) «العُرْف»: المعروف.

(٥) «المَحْمَدَةُ»: الحَمْدُ.

(٦) «قَلَّدَ المِنَن»: أولاها.

قال الماورديُّ ـ يرحمه الله ـ:

«واعلمْ أنَّك لن تستطيعَ أنْ تَسَعَ جميعَ النَّاسِ معروفَك، ولا أنْ توليهم إحسانَك، فاعتمدْ بذلك أهلَ الفَضْلِ منهم والحفاظ، واقصدْ به ذوي الرِّعايةِ والودادِ؛ ليكونَ معروفُكَ فيهم ناميًا، وصنيعُكَ عندهم زاكيًا»(١).

قال حسَّانُ بن ثابتٍ الأنصاريُّ:

إنَّ الصَّنيعةَ(٢) لا تكونُ صنيعةً ▫▪▫ حتَّى يُصَابَ بها طريقُ المصنعِ

فإذا صنعْتَ صنيعةً فاعملْ بها ▫▪▫ للهِ، أو لذوي القرابةِ، أو دَعِ(٣)

وقيل في منثور الحكم: «لا خيرَ في معروفٍ إلى غيرِ عَرُوفٍ». وقد ضرَب الشَّاعر به مثلاً، فقال:

كحمارِ السُّوءِ، إنْ أشبعتَهُ ▫▪▫ رَمَحَ النَّاسَ، وإنْ جَاعَ نَهَقْ(٤)

وقال بعض الحكماء: «على قَدْرِ المغارسِ يكونُ اجتناءُ الغارسِ».

فأخذه بعض الشُّعراء، فقال:

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ في غيرِ أهلِهِ ▫▪▫ وفي أهلِهِ إلاَّ كبعضِ الودائعِ

فمستودعٌ ضاع الذي كان عندَهُ ▫▪▫ ومستودَعٌ ما عندَهُ غيرُ ضائعِ

وما النَّاسُ في شُكْرِ الصَّنيعةِ عندَهُم ▫▪▫ وفي كُفْرِها إلاَّ كبعضِ المَزَارعِ

فمَزْرَعَةٌ طابتْ، وأضعفَ نَبْتُها ▫▪▫ ومَزْرَعةٌ أُكْدَتْ(٥) على كُلِّ زارعِ(٦)

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٥).

(٢) «الصَّنيعة»: اليد والإحسان.

(٣)، (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٦).

(٥) «أُكْدَتْ»: قلَّ نبتها.

(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠٦).

وقال آخرُ:

ولا تصطنعْ إلاَّ الكرامَ؛ فإنَّهم ▫▪▫ يُجازُونَ بالنَّعْماءِ مَنْ كان مُنْعِمَا
ومَنْ يَتَّخِذْ عندَ اللئامِ صنيعةً ▫▪▫ تجدْهُ على آثارِها مُتَنَدِّمًا

وقال آخرُ:

إذا أنت أكرمتَ الكريم مَلَكْتَهُ ▫▪▫ وإنْ أنتَ أكرمْتَ اللَّئيمَ تمَرَّدا

أخي، الأيَّام دولٌ، والدَّهر قُلَّبٌ؛ فمن المحالِ دوامُ الإنسانِ على حال، فإن مَنَعْتَ أخاك معروفَك اليومَ، فعسى أن يكونَ غَدٌ له، فيمنعك كما منعته.

قال الأضبطُ بْنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِيُّ:

لا تُهِينَ[(١)] الفقيرَ؛ علَّكَ أنْ ▫▪▫ تَرْكَعَ[(٢)] يومًا، والدَّهْرُ قدْ رَفَعَهْ

▪ واعلمْ - أخي - أنَّ الكرمَ ليس مقتصراً على بَذْلِ المال، لكنَّه أعمُّ من ذلك بكثيرٍ، وله مراتب[(٣)]، فمنها:

١ - **الجود بالنَّفس**: وهو أعلى مراتبه: كما قال الشَّاعرُ:

يَجُودُ بالنَّفسِ إذْ ضَنَّ[(٤)] البخيلُ بها ▫▪▫ والجُودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجُودِ

---

(١) «لا تُهِينَ»: أصله لا تُهِيْنَنْ من الإهانة، فخذف نون التَّوكيد الخفيفة تَخَلُّصًا من التقاء السَّاكنين، وأبقى الفتحة دليلاً عليها.

(٢) «تركع»: تذلّ وتخضع، كنَّى بالرُّكوع عن انحطاط الحال.

(٣) انظر: «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٤٣ - ٦٤٧)، و«الهديَّة الإسلامية» (ص٨٤ - ٨٩)، و«الهمَّة العالية» لمحمَّد بن إبراهيم الحمد (ص١٧١ - ١٧٧).

(٤) «ضَنَّ»: بَخِلَ.

٢ـ **الجُودُ بالنَّفْع بالجاه:** فَيُبْذَلُ في سبيل الخير: من شفاعةٍ حَسَنَة، وإحقاق حقٍّ، ونُصرة مظلومٍ، وإعانة ضعيفٍ، ومشيٍ مع الرَّجل إلى ذي سُلطانٍ، ونحو ذلك.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ (سورة النساء: ٨٥).

وعن أبي موسى الأشْعَريِّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا جاءه السَّائلُ، أو طُلبتْ إليه حاجةٌ، قال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا»[(١)].

وما أجمل ما قاله الشَّافعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

وأدِّ زكـــاةَ الجـــاهِ، واعلمْ بأنَّهـــا ... كَمِـثْلِ زكـاةِ المالِ تَمَّ بِضَـابُهَـا[(٢)]

وكتبَ الحَسَنُ بن سَهْلٍ كتابَ شفاعةٍ، فجعل الرَّجل يشكره، فقال الحَسَنُ: «يا هذا، عَلامَ تشكرنا؟!، إنَّا نرى الشَّفاعاتِ زكاة مروءتِنا».

ثُمَّ أنشأ يقول:

فُـرِضَتْ عليَّ زكـاةُ مـا مَلَكَتْ يَدِي ... وزكـاةُ جـاهي أَنْ أُعِـيْنَ وأَشْـفَـعَـا
فـإذا مَلَكْتَ فَـجُـدْ، فـإنْ لم تستطعْ ... فـاجْهَـدْ بِوُسْعِكَ كلِّهِ أَنْ تَشْـفَـعَـا[(٣)]

٣ـ **جود الإنسان براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه:** فيجود بها تعبًا وكَدًّا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولَذَّته لِمُسامره، كما قيل:

---

(١) رواه البخاريُّ (١٤٣٢) و(٦٠٢٧) و(٦٠٢٨) و(٧٤٧٦)، ومسلمٌ (٢٦٢٧).
(٢) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٢١).
(٣) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٠).

مُـتَـيَّمٌ[1] بالنَّدى[2]، لو قـال سائلُهُ: ▫▪▫ هَبْ لي جميعَ كَرَى[3] عينَيْكَ، لم يَنَمِ

٤ ـ *الجود بالعلم وبذله:* وهو من أعلى مَرَاتب الجود، والجُـود به أفضلُ من الجود بالمال؛ لأنَّ العِلمَ أشرفُ من المال.

قال الشَّاعر:

جَـعَلْتَ المالَ فَـوْقَ العلمِ جَـهْـلاً ▫▪▫ لَعَـمـرُكَ في القـضـيَّـةِ مـا عَـدَلْتَـا

وَبَيْنَهُـمَـا ـ بنصِّ الوَحْيِ ـ بَوْنٌ ▫▪▫ سَـتَـعْلَمُـهُ إذا طَهَ قَـرَأْتَا

وقال آخرُ:

العـلـمُ كَنْزٌ وذُخْـرٌ لا نفـادَ لَهُ ▫▪▫ نِعْمَ القَـرينُ إذا مـا صَـاحَبَ صَحْبَا

قَـدْ يجـمـعُ المَرْءُ مـالاً، ثُمَّ يُسْلَبُـهُ ▫▪▫ عَـمَّـا قليلٍ، فـيلقَى الذُّلَّ والحَـرَبَا

وجـامعُ العلمِ مـغـبـوطٌ بِهِ أبدًا ▫▪▫ ولا يُحَـاذِرُ مِنْهُ الفَـوْتَ والسَّلْبَـا

يا جـامعَ العلمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْـمَـعُـهُ ▫▪▫ لا تَـعْـدِلَـنَّ بِـهِ دُرًّا، ولا ذَهَبَـا

والنَّاس في الجود به على مراتبَ متفاوتةٍ، وقـد اقتضتْ حكمة الله وتقديره النَّافذ ألاَّ ينفعَ به بخيلاً أبدًا.

ومن الجود به أن تبذلَهُ لمن لم يسألْك عنه، بل تطرحَهُ عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم أنَّ السَّائل إذا سـألك عن مسألةٍ، استقصيـت له جوابها جوابًا شافيًـا، لا يكون جوابُك له بقَدْر ما تَدْفعُ بـه الضَّرورة، كما كان بعـضُهم يكتب في جواب الفُتيا (نَعَمْ) أو (لا) مُقْتَصِرًا عليها.

---

(١) «مُتَيَّمٌ»: مُستَعْبَدٌ ذليلٌ.

(٢) «النَّدى»: الجود والكرم.

(٣) «الكَرَى»: النَّوم.

فمن جود الإنسان بالعلم أنَّه لا يقتصر على مسألة السَّائل، بل يذكر له نظائرها، ومُتَعلِّقَها. ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصَّحابة رضي الله عنهم النَّبيَّ ﷺ عن المتوضِّئ بماء البحر، فقال: **«هو الطَّهُورُ ماؤهُ، الحِلُ مَيْتَتُهُ»**[1] فأجابهم عن سؤالهم، وجاء بما لعلَّهم في بعض الأحيان إليه أحوجُ ممَّا سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحُكْمُ، نَبَّهَهُم على علَّتِه وحكمته، مثل قوله: **«أنْ بِعْتَ من أخيك ثمرةً، فأصابتها جائحةٌ، فلا يَحِلُ لك أنْ تأخُذَ من مال أخيك شيئاً؛ بِمَ يأخذُ أحدُكم مالَ أخيه بغير حقٍّ؟!»**[2].

٥ ـ الجود بنَفْعِ البَدَن على اختلاف أنواعه:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلُّ سُلاَمَى[3] من النَّاس عليه صدقةٌ، كُلَّ يوم تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ: تَعْدلُ بَيْنَ الاثنين صدقةٌ، وتُعينُ الرَّجلَ في دابَّتِه، فتحملُهُ عليها، أو ترفعُ لَهُ عليها متاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطَّيِّبةُ صدقةٌ، وكُلُّ خَطْوَةٍ تمشيها إلى الصَّلاة صدقةٌ، وتُميطُ[4] الأذى عن الطَّريقِ صدقةٌ»**[5].

---

(١) رواه أبو داود (٨٣)، والتِّرمذيُّ (٦٩)، عن أبي هريرةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٠٤٨)، و«الصَّحيحة» (٤٨٠).

(٢) رواه مسلمٌ (١٥٥٤) عن جابر بن عبد الله.

(٣) «سُلامى»: أصله عظام الأصابع وسائر الكفِّ، ثم استعمل في سائر عظام البدن ومفاصله.

(٤) «تُميط»: تُزيل وتُنحِّي.

(٥) رواه البخاريُّ (٢٧٠٧) و(٢٨٩١) و(٢٩٨٩)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (١٠٠٩).

٦ . ويدخل في الجود مَنْ يسعى في حوائج النَّاس، وتفريج كُرُباتهم:

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أحبُّ النَّاسِ إلى الله أنفعُهُمْ، وأحبُّ الأعمالِ إلى الله عزَّ وجلَّ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مسلم، أو تكشفُ عنه كُرْبَةً، أو تقضي عنه دَيْنًا، أو تطردُ عنه جُوعًا، ولأن أمشيَ مع أخي المسلم في حاجةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتكفَ في المسجدِ شهْرًا، ومَنْ كفَّ غضبَهُ سترَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غيظًا ـ ولو شاء أن يُمْضِيَهُ أمضاهُ ـ ملأ اللهُ قَلْبَهُ رضيً يومَ القيامةِ، ومَنْ مشى مع أخيهِ المسلمِ في حاجتِهِ حتَّى يُثْبِتَهَا[(١)] لَهُ، أثبت اللهُ تعالى قَدَمَهُ يومَ تَزِلُّ الأقدامُ»**[(٢)].

٧ . ويدخل في الجود مَنْ يستحقُّ على عملٍ أجرًا، فيتركُ الأجرَ من تِلْقَاءِ نفسِهِ.

٨ . ومن جميل الجود جود الإنسان بالنُّصحِ والإرشاد.

قال الشَّاعرُ:

أنت كَنْزُ الدُّرِّ واليـاقـوت في ❊ لجُـةِ الدنيـا، وإنْ لم يَعْـرِفُـوكْ

مَـحْـفِلُ الأيَّامِ في شـوقٍ إلى ❊ صَوتِكَ العـالي، عَسَاهم يَسْمَعُوكْ

٩ . جود الإنسان بعِرْضِهِ لمن نال منه، أو استطال عليه:

كمـا في خبر أبي ضَمْضَمٍ قال النَّبيُّ ﷺ: **«أيَعْجَزُ أحدُكم أنْ يكونَ مثْلَ أبي ضيغمٍ** - أو ضَمْضَمٍ، شكَّ ابنُ عُبَيْدٍ[(٣)] - **كـان إذا أصبح قـال: اللهُمَّ، إنيِّ قد تصدَّقتُ بعِرْضي على عِبَادِك»**[(٤)].

---

(١) «يثبتها»: ينجزها.

(٢) رواه الطَّبَرَانيُّ في «الكبير»، وابن أبي الدُّنيا في «قضاء الحوائج»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٧٦)، و«الصَّحيحة» (٩٠٦).

(٣) هو محمَّد بن عبيد بن حساب.

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨٨٦)، والعقيليُّ في «الضُّعفاء» (٤/ ١٨٠)، وابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (٦٥)، وضعَّفه العـراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٦٣)، وكذلك الألبانيُّ في «الإرواء» (٨/ ٣٢)، ولكن له شاهدٌ عند أبي هريرةَ، أخرجه ابن بشكوال في كتابه «الغوامض والمبهمات» (٤٤٩)، ونصُّه: **«أنَّ رجلاً من المسلمين قال: اللهُمَّ، إنَّه ليس لي مالٌ أتصدَّقُ به؛ فأيُّما رجلٍ من المسلمين أصاب من عِرْضي شيئًا، فهو له صدقةٌ، فأوصى اللهُ إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّه قد غفر له»**. صحَّحه ابنُ حجرٍ في «الإصابة» (٢/ ٥٠٠).

وقيل للشَّعبيِّ: فُلانٌ يتنقَّصُكَ ويشتِمُكَ. فتمثَّل الشَّعبيُّ بقَوْلِ كُثَيِّرِ عَزَّةَ[1]:

هَنِيْئًا مَرِيئًا غيرَ داءٍ مُخامرٍ[2] ❊ لعَزَّةَ مِنْ أَعْراضِنا ما اسْتَحلَّتِ
أَسيئي بنا، أو أَحْسِني لا ملومةً ❊ لَدَيْنَا، ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقلَّتِ[3]

١٠ ـ *الجود بالصَّبر، والاحتمال والإغضاء:* وهذه مرتبةٌ شريفةٌ من مراتبه، وهي أنفعُ لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصرُ، وأملكُ لنفسه، وأشرفُ لها، ولا يقدر عليها إلاَّ النُّفوسُ الكِبارُ.

وفي هذا الجود قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشورى: ٤٠).

قال الشَّاعر:

هُمُ النَّاسُ والدُّنيا، ولابُدَّ مِنْ قَذًى[4] ❊ يُلِمُّ[5] بعَيْنٍ، أو يُكَدِّرُ مَشْرَبا
ومِنْ قِلَّةِ الإنصافِ أنَّكَ تَبْتَغي الـ ❊ ـمُهَذَّبَ في الدُّنيا، ولَسْتَ المُهَذَّبا

---

(١) شاعرٌ متيَّمٌ مشهورٌ من أهل الحجاز، معروفٌ بابن أبي جمعةَ، كان دميمَ الخُلُقِ قصيرًا، طوله ثلاثة أشبار؛ فلهذا صُغِّرَ اسْمُهُ وفد علي عبد الملك بن مروان، فازْدَرى منظرَهُ إلى أنْ عَرَفَ أَدَبَهُ، فرفع مجلسَهُ، وعَزَّةُ هذه المشهورُ بها المنسوب إليها ـ لتَغَزُّلِه فيها ـ هي عَزَّةُ بنتُ جميلٍ أُمُّ عَمْرٍو الضَّمْريَّة، وأخباره معها كثيرةٌ، وكان عفيفًا في حبِّه، تُوُفِّيَ بالمدينة سنة ١٠٥ هـ.

(٢) «الدَّاءُ المُخَامِرُ»: الدَّفينُ المُسْتَتِرُ. أي أنَّ ما استحلَّتْهُ عزَّةُ من ثَلْبِ أعراضِنَا يَحِلُّ لها حالَ كَوْنِه هنيئًا غيرَ مسبِّبٍ لها داءً ولا ألمًا.

(٣) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٣٦).

(٤) «القَذَى»: جمع قَذَاةٍ، وهي ما يقع في العين والشَّراب والماء من تُرَابٍ ووَسَخٍ وغير ذلك.

(٥) «يُلِمُّ»: ينزل.

١١ ـ الجود بالخُلُق، والبِشْر والبَسْطَة، ومقابلة النَّاس بالطَّلاقة: وهو فوقَ الجود بالصَّبر، والاحتمال والعَفْوِ، وهو الذي بَلَغَ بصاحبِهِ دَرَجَةَ الصَّائم القائم، وهو أثقلُ ما يُوضعُ في الميزان.

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قال ليَ النَّبيُّ ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[(١)].

وفيه من أنواع المنافع والمسارِّ، وأنواعِ المصالح ما فيه.

قال الشَّاعرُ:

لله تلك الدَّارُ أيُّ محلَّةٍ ... للجُودِ، والإفضالِ، والتَّكريمِ!

هُمْ كالشُّموسِ مهابةً وجلالةً ... أخْلاقُهُمْ في الحُسْنِ كالتَّسْنيمِ

١٢ ـ ويدخل في قبيل الأجْوَاد مَنْ يكون له دينٌ على آخرَ، فيطرحه عنه، ويخلي ذمَّته منه، وهو يستطيع الوصول إليه دونَ عَناءٍ، ولا تَعَبٍ.

كان قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادةَ رضي الله عنهما من الأَجْوَاد المعروفين، حتَّى إنَّه مرض مرَّةً، فاستبطأ إخوانَهُ في العِيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون ممَّا لك عليهم من الدَّيْن، فقال: أخزى اللهُ مالاً يمنعُ الإخوانَ من الزِّيارة، ثُمَّ أمر مناديًا ينادي: مَنْ كان لقَيْسٍ عليه مالٌ، فهو منه في حِلٍّ. فما أمسى حتَّى كُسِرَتْ عَتَبةُ بابه لِكَثْرَةِ مَنْ عَادَه[(٢)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٦).

(٢) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٤٢).

قال الشاعر:

كـــأنك في الكتـــابِ وَجَــدْتَ لاءً ▫▪▫ مُـــحَـــرَّمَـــةً عليك فـــلا تحلُّ

إذا حــضــر الشِّــتــاءُ فــأنت شــمسٌ ▫▪▫ وإنْ حَلَّ المصـــيفُ فـــأنت ظِلُّ

ومـــا تـدري إذا أنفـــقتَ مـــالاً ▫▪▫ أيكثـــرُ في عطائِكَ أم يقلُّ

جُـــزيتَ عَنِ البـــريَّةِ كُلَّ خـــيرٍ ▫▪▫ فـــأنت الماجـــدُ البَطَلُ الأجلُّ

١٣ . ومن الجود حضُّ النَّاس على الخير، وحثُّهم على الجود والإنفاق في وجوه البرِّ: ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ (سورة الماعون: ١-٣).

فذكر الله عزَّ وجلَّ مَنْ لا يحضُّ على طعـام المسكين في معرضِ الذَّمِّ، وفي هذا أمرٌ للعبد بأن يحضَّ على طعامِ المسكين، إن لم يستطع إطعامه بنفسه.

١٤ . ويدخل في الجود دلالةُ النَّاس على وجوه الخير، وتذكيرهم بطرقه.

عن أبي مسـعودٍ عُقبةَ بن عَـمْرٍو الأنصاريِّ ﵁ قال: قـال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَلَّ على خيرٍ، فلَهُ مِثْلُ أجرِ فاعلِه**»[١].

١٥ . ويدخل في الجود شكرُ الأجواد، والدُّعاءُ لهم، وتشجيعُهم على مزيدٍ من البَذْلِ: ولهذا لمَّا أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بأخذ الصَّـدقة من الأغنياء ـ أمره بالدُّعاء لهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ (سورة التوبة: ١٠٣).

---

(١) رواه مسلمٌ (١٨٩٣).

فقوله تعالى: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: ادعُ لهم. وقوله: ﴿**إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾ أي: طُمَأنينةٌ لقلوبهم، واستبشارٌ لهم[1].

قال الشَّاعرُ:

أَنفقْ ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً ۞ ولا تُطِعْ في سبيل الجودِ عُذَّالا[2]

مَنْ جَادَ جَادَ عليه اللهُ، واستترتْ ۞ عُيُوبُهُ، وكفى بالجودِ سِرْبَالا[3]

١٦ ـ *الجود بتركه ما في أيدي النَّاس عليهم:* فلا يتلفَّتُ إليه، ولا يستشرفُ له بقلبه، ولا يتعرَّضُ به بحاله ولا لسانه، وهذا الذي قال عنه عبد الله بن المبارك: «أنَّه أفضلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفس بالبَذْلِ».

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«فلسانُ حال القَدَر يقول للفقير الجَوَاد: وإنْ لَمْ أُعْطِكَ ما تجودُ به على النَّاسِ، فَجُدْ عليهم بزُهْدك في أموالهم، وما في أيديهم، تَفْضُلْ عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالرَّاحة»[4].

وقال ابن المقفَّع:

«عَوِّدْ نَفْسَكَ السَّخَاءَ، واعْلَمْ أنَّه سَخَاءانِ: سَخَاوةُ نفسِ الرَّجل بما في يَدَيْهِ، وسخاوتُهُ عمَّا في أيدي النَّاس».

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (٢/ ٢٨٣).

(٢) «عُذَّال»: جمع عاذل، وهو اللائم.

(٣) «السِّربال»: القميص السَّابغ، والجمع سرابيل.

(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٤٧).

وسخاوة نفس الرَّجُل بما في يَدَيْهِ أكثرهما، وأقربهما من أنْ تدخل فيه المفاخرةُ، وتركُهُ ما في أيدي النَّاس أمحضُ[١] في التَّكرُّم، وأبْرَأُ من الدَّنَسِ، فإنْ هو جمعهما، فبذل وعفَّ، فقد استكمل الجودَ والكرمَ»[٢].

١٧ . ومن الجود معاملة الكرام بما يستحقون:

عن ابن عُمَرَ ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكْرِمُوهُ»**[٣].

هذا ما تيسَّر الوقوف عليه، والله سبحانه وتعالى قد ضَمِنَ المزيدَ للجَوَادِ، والإتلافَ للمُمْسِكِ.

عن أبي هريرةَ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما مِنْ يوم يُصْبِحُ العبادُ فيه، إلاَّ مَلَكَان يَنْزِلاَنِ، فيقولُ أحَدُهُمَا: اللهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقول الآخرُ: اللهُمَّ، أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**[٤].

والكريم ـ حقًّا ـ مَنْ يُلاقي خدمهُ الزَّائرين والمُسْتَجْدِين[٥] بأدبٍ جميلٍ، ويستقبلهم هو بالبِشْر والتَّرحاب؛ حتَّى يحفظ لهم عزَّتهم.

قال ابنُ هرمةَ ـ يمدح رجلاً ـ:

هَشٌّ إذا نَزَلَ الوُفُودُ ببابِهِ ... سَهْلُ الحِجَابِ، مُؤَدَّبُ الخُدَّامِ[٦]

---

(١) «امحض»: أخلص.
(٢) «الأدب الصَّغير والأدب الكبير» (ص١١١-١١٢).
(٣) رواه ابنُ مَاجَهْ (٣٧١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٢٦٩)، و«الصَّحيحة» (١٢٠٥).
(٤) رواه البخاريُّ (١٤٤٢)، ومسلمٌ (١٠١٠).
(٥) «المُسْتَجْدين»: جمع مُسْتَجْدٍ، وهو السَّائل.
(٦) «عيون الأخبار» (١/ ٨٩).

وارفع درجات الكرم أن يجود الرَّجل بما يحبُّ، وبما هو بحاجةٍ إليه، فَيَدَعْ حاجته في وجوه الخير، وذلك يُسَمَّى الإيثار.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٩٢).

وقال جلَّ شأنُهُ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (سورة الحشر: ٩).

وحين سأل أبو هريرةَ رسول الله ﷺ: «أيُّ الصَّدقةِ أفضلُ؟». قال: «جُهْدُ المُقِلِّ»[١].

وعنه قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «يا رسول الله، أيُّ الصَّدقةِ أعظمُ أجرًا؟». قال: «أنْ تصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ[٢]، تخشى الفقرَ، وتأملُ الغنَى»[٣].

قال ابن حجر ـ يرحمه الله ـ:

«ولمَّا كانت مجاهدة النَّفس على إخراج المال مع قيام مانع الشُّحِّ دالاً على صحَّة القصد، وقوَّة الرَّغبة في التَّربة[٤] ـ كان ذلك أفضلَ من غيره، وليس المراد أنَّ نفس الشُّحِّ هو السَّببُ في هذه الأفضلية»[٥].

قال دِعْبِلٌ الخُزَاعيُّ:

وليس جودُ المعطي على اليُسْرِ وَحْدَهُ ... ولكنَّهُ المعطي على اليُسْرِ والعُسْرِ[٦]

---

(١) رواه أبو داودَ (١٦٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٧١).

(٢) «شحيح»: حريص.

(٣) رواه البخاريُّ (١٤١٩) و(٢٧٤٨)، ومسلمٌ (١٠٣٢).

(٤) «التربة»: الفقر الشَّديد.

(٥) «فتح الباري» (٣/ ٢٨٥).

(٦) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).

وقال آخـرُ:

ليس جـودُ الـفـتـيـانِ مِنْ فَـضْلِ مـالٍ ... إنمَّا الجـودُ للمُـقِلِّ المواسي[١]

وضِدُّ الكرم البُخْلُ، وهو خُلُقٌ مرذولٌ يدعو إلى مساوئ الأخلاق.

عن عبد الله بن عُمْرٍو قال: خطب رسولُ الله ﷺ فقال: «**إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هَلَكَ مَنْ ان قبلَكُمْ بالشُّحِّ: أَمَرَهُمْ بالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وأمرهم بالقطيعة فَقَطَعُوا، وأمرهم بالفُجُورِ فَفَجَرُوا**»[٢].

قال الماوَرديُّ ـ يرحمه الله ـ:

«وقد يحدث عن البخلِ من الأخلاق المذمومة ـ وإنْ كان ذريعةً إلى كُلِّ مذمَّةٍ ـ أربعةُ أخلاقٍ ناهيك بها ذمّاً، وهي: الحِرْصُ، والشَّرَهُ، وسوءُ الظَّنِّ، ومنعُ الحقوقِ.

فأمَّا الحِرْص فهو شدَّة الكدح، والإسراف في الطَّلب، وأمَّا الشَّرَهُ فهو استقلال الكفاية، والاستكثار لغير حاجةٍ، وأمَّا سوء الظَّنِّ فهو عدم الثِّقة بمن هو لها أهلٌ، فإنْ كان بالخالق كان شكّاً يَئُوْل إلى ضلالٍ، وإن كان بالمخلوق كان استخانةً يصير بها مختانًا وخوَّانًا، لأنَّ ظنَّ الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه، فإنْ وجد فيها خيرًا ظنَّه في غيره، وإنْ رأى فيها سوءًا اعتقده في النَّاس، وقد قيل في المثل: كُلُّ إناءٍ ينضح بما فيه، وأمَّا منعُ الحقوق فإنَّ نفس البخيل لا تسمحُ بفراق محبوبها، ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها، فلا تذْعن لحقٍّ، ولا تجيبُ إلى إنصافٍ.

---

(١) المرجع السَّابق.

(٢) رواه أبو داودَ (١٦٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في«صحيح الجامع» (١/ ٢٦٧٨)، و«الصَّحيحة» (١٤٦٢).

وإذا آلَ البخيلُ إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة، والشِّيَم اللئيمة ـ لم يبقِ معه خيرٌ مرجوٌ، ولا صلاحٌ مأمولٌ»[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يتعوَّذ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ من البخل، فكان من دعائه: **«اللهُمَّ، أنيِّ أعوذُ بك مِنَ البُخْلِ، وأعوذُ بك مِنَ الجُبْنِ»**[(٢)].

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ يرحمه الله ـ:

«إنَّ الجميع يتمادحون بالشَّجاعة والكرم، حتَّى إنَّ ذلك عامَّة ما تمدحُ به الشُّعراءُ ممدوحهم في شعرهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخْل والجُبْن».

ثم قال: «ولمَّا كان صلاح بَني آدمَ لا في دينهم ودنياهم إلاَّ بالشَّجاعة والكرم ـ بيَّن الله سبحانه أنَّه مَنْ تولَّى عنه بترك الجهاد بنفسه، أبدل اللهُ به مَنْ يقوم بذلك، ومَنْ تولَّى عنه بانفاق ماله، أبدل الله به مَنْ يقوم بذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ (سورة محمد: ٣٨).

ثُمَّ قال ـ يرحمه الله ـ:

«وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضَّل اللهُ السَّابقين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٥ - ١٨٦) بتصرُّف.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٦٥)، و(٦٣٧٠) و(٦٣٧٤) و(٦٣٩٠) عن سَعْد بن أبي وقَّاصٍ.

وقد ذكر الجهاد بالمال والنَّفس في سبيله، ومَدَحه في غير آيةٍ من كتابه، وذلك هو الشَّجاعة والسَّماحة في طاعة الله سبحانه وتعالى، وطاعة رسوله»[١].

وكما أنَّ الشَّجاعة والكرم صِنوان لا يفترقان، فالبُخْلُ والجُبْنُ قرينان.

قال الإمام ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

«الجُبْنُ والبُخْلُ قرينان، فإنْ عدم النَّفع منه، إنْ كان ببَدَنِه فهو الجُبْنُ، وإنْ كان بماله فهو البُخْلُ»[٢].

والبخل يُبرز ما استتر من عيوب صاحبه.

قال صالح بن عبد القدُّوس:

ويُظْهِرُ عيبَ المَرْءِ في النَّاسِ بُخْلُهُ ... ويَسْتُرُهُ عنهمْ ـ جميعًا ـ سَخَاؤُهُ
تَغَطَّ بأثوابِ السَّخَاءِ، فإنَّني ... أرى كُلَّ عيبٍ فالسَّخاءُ غِطاؤُهُ

والبخل يكسي صاحبه جلبابَ المَسْكَنَةِ والفقرِ.

قال أبو العَتَاهِيَة:

إنَّ البخيلَ ـ وإنْ أفادَ غِنَىً ـ[٣] ... لَتُرى عليه مَخَايِلُ[٤] الفَقْرِ

والبخيل لا يَسُودُ قومَهُ.

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٦٣ - ٢٧٠) باختصارٍ.

(٢) «الجواب الكافي» (ص٨٥).

(٣) «أفاد غِنَيً»: استفاده.

(٤) «المَخَايِل»: العلامات.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَيِّدُكُمْ، يا بَنِي سَلِمَةَ؟». قلنا: «جَدُّ بن قيسٍ على أنَّا نُبخِّلُهُ». قال: «وأيُّ داءٍ أدْوَى من البخل؟!، بَلْ سَيِّدُكم عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ»**[1].

وفي هذا قال شاعرُ الأنصار:

وقال رسولُ الله ـ والحقُّ قولُهُ ـ ▫▪▫ لِمَنْ قال مِنَّا: مَنْ تُسَمُّونَ سَيِّدا؟
فقالوا هو الجَدُّ بْنُ قَيْسٍ على التي ▫▪▫ نُبخِّلُهُ فيها، وإنْ كان أَسْوَدَا
فتىً ما تَخَطَّى خُطْوَةً لريْبَةٍ[2] ▫▪▫ ولا مَدَّ في يوم إلى سَوْءَةٍ[3] يَدَا
فَسُوِّدَ عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ بجُودِهِ ▫▪▫ وحُقَّ لِعَمْرٍو بالنَّدى أَنْ يُسَوَّدَا
إذا جاءَهُ السُّؤالُ أَذْهَبَ مالَهُ ▫▪▫ وقال: خُذُوه، إنَّهُ عائدٌ غَدَا

والبخيل ليس له خليل، فبخلُهُ يُبَغِّضُهُ إلى النَّاس حتَّى أولاده.

ولله دَرُّ أبي محمَّد إسحاق الموصليِّ ـ يرحمه الله ـ حيث قال:

وآمِرَةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لها: اقْصُري ▫▪▫ فليس إلى ما تَأمُرِينَ سَبِيلُ
أرى النَّاسَ خُلاَّنَ الجَوَادِ، ولا أرى ▫▪▫ بخيلاً لهُ في العالمينَ خَلِيلُ
وإنِّي رأيتُ البُخْلَ يُزْري بأهْلِهِ ▫▪▫ فأكرمتُ نفسي أَنْ يُقالَ بخيلُ
ومِنْ خيرِ حالاتِ الفتى لو علمتَهِ ▫▪▫ إذا نالَ شيئاً أنْ يكونَ يَنِيلُ[4]

---

(١) رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧١٠٤).
(٢) «رِيبَة»: شبهة وتهمة، والجمع رِيَبٌ.
(٣) «السَّوْءَة»: الفاحشة، جمعها سَوْءَات.
(٤) «ينيل»: يعطي.

عطائي عطاءُ المُكْثِرينَ تَكَرُّمًا ▫▪▫ ومالي ـ كما تَعْلَمينَ ـ قليلُ

وكيف أخافُ الفقرَ، أو أُحْرَمُ الغِنَى ▫▪▫ ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جَليلُ؟![1]

والبخيل إذا مات خلَّف ما جمعه لوارثه، وذهب هو بسُوْء الثَّناء.

قال بعضُ البلغاء: «البخيلُ حارسُ نعمتِه، وخازنُ ورثتِه»[2].

وقال حاتمُ الطَّائيُّ:

إنَّ البخيلَ إذا ماتَ يَتْبَعُهُ ▫▪▫ سُوْءُ الثَّناءِ، ويَحْوي الوارثُ الإبِلا

وقال آخرُ:

إذا كُنْتَ جَمَّاعًا، لمالِكَ مُمْسِكًا ▫▪▫ فأنتَ عليهِ خازنٌ وأمينُ

تؤدِّيْهِ مذمومًا إلى غيرِ حامدٍ ▫▪▫ فيأْكُلُهُ عَفْوًا وأنت دفينُ[3]

وقال محمَّد بن الحسين:

يَفْني البخيلُ بجمعِ المالِ مُدَّتَهُ ▫▪▫ وللحَوَادثِ والوارثِ ما يَدَعُ

كدُودَةِ القَزِّ ما تَبْنِيهِ يخنقُها ▫▪▫ وغيرُهَا بالذي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ[4]

وقال آخرُ:

وذي حِرْصٍ تراهُ يَلُمُّ وفرًا ▫▪▫ لوارثِهِ، ويدفَعُ عَنْ حِمَاهُ

كَلْبُ الصَّيدِ يُمْسِكُ ـ وهو طاوٍ ـ[5] ▫▪▫ فريسَتَهُ ليأْكُلَهَا سِوَاهُ[6]

---

(١) «وفيات الأعيان» (١/ ٢٠٤)، والبيتان الأخيران ذكرهما الذَّهبيُّ في «السِّيَر»، وذكر أنَّه أنشدهما الرَّشيد، فأمر بمائة ألف درهم (١١/ ١١٨ - ١٢١).

(٢)، (٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٥).

(٤) «البداية والنِّهاية» (١٢/ ٥٠٢).

(٥) «طاوٍ»: اسم فاعل للفعل طَوَى يَطْوَي طوىً، إذا جاعَ وضمر بَطْنُهُ من الجُوعِ.

(٦) «جواهر الأدب» (ص٧١٤ - ٧١٥).

نعوذُ باللهِ مِنْ مَثَلِ السَّوْءِ!.

والبخيل إن مات عزَّتْ ورثتَهُ عنه كَثْرَةُ ماله.

قال ابْنُ الرُّوِيِّ:

أَبْقَيْتَ مالَكَ ميراثًا لوارثِهِ ... فَلَيْتَ شِعْري[1] ما أبقى لَكَ المالُ

القومُ بَعْدَكَ في حالٍ تَسُرُّهُم ... فكيف بَعْدَهُمْ حَالَتْ بكَ الحالُ؟!

مَلُّوا البُكَاءَ، فما يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ ... واستحكم القولُ في الميراثِ والقالُ

ولَّتْهُمْ عَنْكَ دُنْيا أَقبلتْ لهم ... وأدبرتْ عَنْكَ، والأيَّامُ أحوالُ[2]

---

(١) «ليت شعري»: ليتني أعلمُ.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٢٣).

إكرامُ الضَّيفِ

إكرامِ الضَّيف من مكارم الأخلاق، وجميل الخصال، تحلَّى به الأنبياء، وحثَّ عليه المرسلون، مَنْ عُرِفَ بالضِّيافة عُرِفَ بشرف المنزلة، وعُلُوِّ المكانة، وانقاد له قومُه، فما من أحَدٍ ساد في الجاهليَّة والإسلام، لم يكن كمال سُؤْدَدِهِ إلاَّ بإطعامِ الطَّعام، وإكرام الضَّيف، كما قال ابنُ حِبَّانَ - يرحمه الله -:

«والعربُ لم تكن تُعِدُّ الجودَ إلا قِرَى الضَّيف، وإطعام الطَّعام، ولا تُعِدُّ السَّخيَّ مَنْ لم يكن فيه ذلك»[(١)].

وقد حثَّنا نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ على إكرام الضَّيف.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كان يؤمنُ باللهِ، واليوم الآخرِ، فَلْيُكْرِمْ ضيفَهُ»**[(٢)].

وعن أبي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قال: **أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ رسولَ اللهِ ﷺ، وسمعَتْهُ أُذُنايَ حِيْنَ تكلَّم بِهِ، قال: «مَنْ كان يؤمنُ باللهِ، واليومِ الآخرِ، فَلْيكرمْ ضيفَهُ جَائِزَتَهُ»، قَالوا: ومَا جَائِزَتُه؟ قال: «يَوْمٌ ولَيلةٌ، والضِّيافةُ ثلاثةُ أيَّامٍ، وما كان بَعْدَ ذلك فهو صَدَقَةٌ عليه»**[(٣)].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٤٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠١٩) و(٦١٣٥) و(٦٤٧٦)، ومسلمٌ (٤٨).

وفي رواية أخرى عنه ـ أيضًا ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الضِّيافةُ ثلاثةُ أيَّام، وجائزتُهُ يومٌ وليلةٌ، ولا يَحلُّ لرجلٍ مسلمٍ أنْ يُقيمَ عندَ أخيه حتَّى يُؤْثِمَهُ[١]». قالوا: «يا رسولَ اللهِ، وكيفَ يُؤْثِمُهُ؟». قال: «يُقيمُ عندَهُ ولا شيءَ لَهُ يَقْرِيْهِ بِهِ»[٢].

وقال النَّبيُّ ﷺ لعَبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما: «إنَّ لزَوْرِكَ[٣] عليكَ حقًّا»[٤].

ويقرُّ النَّبيُّ ﷺ سَلْمَانَ الفارسيَّ على قوله لأبي الدَّرْداءِ: «إنَّ لضَيفِكَ عليك حقًّا»[٥].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: خَطَبَ رسولُ الله ﷺ يومَ تَبُوكَ، فقال: «ما مِنَ النَّاسِ مِثْلُ رجلٍ آخذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ[٦]، فيجاهدُ في سبيلِ اللهِ، ويجتنبُ شرورَ النَّاسِ، ومثل رجلٍ في غنمِهِ، يَقْرِي ضيفَهُ، ويؤدِّي حقَّهُ»[٧].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنِّي مَجْهُودٌ»[٨]. فأرْسَلَ إلى بعض نسائِهِ، فقالتْ: «والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما عندي إلاَّ ماءٌ، ثمَّ أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: «لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ». فقال: «مَنْ يُضيفُ هذا اللَّيلةَ،

---

(١) «يُؤْثِمه»: يُخْرِجه، والحَرَجُ: هو الضِّيق، أي: حتَّى يُضيِّقَ عليه.

(٢) رواه مسلمٌ (٤٨)، قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «معناه الاهتمامُ به في اليوم الأوَّل واللَّيلة، وإتحافه بما يمكنُ من برٍّ وألطاف، وأمَّا في اليوم الثَّاني والثَّالث فيُطعمه ما تيسَّر، ولا يزيد على عادته، وأمَّا ما كان بعدَ الثَّلاثة فهو صَدَقَةٌ، إنْ شاء فعل، وإنْ شاء ترك».

(٣) «الزَّوْرُ»: الضَّيْفُ.

(٤) رواه البخاريُّ (١٩٧٤) و (١٩٧٥) و (٦١٣٤)، ومسلمٌ (١١٥٩).

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٣) بإسناد صحيح.

(٦) «عِنَان الفرس»: اللِّجام الذي يُوضع في رأسِه.

(٧) رواه أحمدُ في «مسنده» (١/٣١١) بإسناد صحيح.

(٨) «مجهودٌ»: أصابني الجَهْد: وهو المشقَّةُ، والحاجة، وسوءُ العيش والجوع.

رَحِمَهُ اللهُ؟». فقال رجلٌ من الأنصار، فقال: «أنا، يا رسولَ الله». فانطلق بِهِ إلى رَحْلِهِ[1]. فقال لامرأتِهِ: «هَلْ عندَكِ شيءٌ؟». قالتْ: «لا، إلاَّ قُوتُ صِبْيَاني». قال: «فَعَلِّلِيهِمْ بشيءٍ، فإذا دخلَ ضيفُنا، فاطفئِي السِّراجَ، وأَرِيْهِ أنَّا نأكلُ، فإذا أهوى ليأكلَ فقومي إلى السِّراجِ حتَّى تُطْفِئِيهِ». قال: فقعدوا وأكلَ الضَّيفُ، فلمَّا أصبحَ غدا على النَّبيِّ ﷺ فقال: «قد عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيْعِكُما بضَيفِكُما اللَّيْلَةَ!»[2].

هل رأيت ـ أخي في الله ـ إيثاراً كهـذا؟!، وحَسْبُكَ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى تعجَّب من صَنِيْعِهِما!

قال الشَّاعرُ:

أولئكَ قـومٌ، إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البِنَا ▫▪▫ وإنْ عاهَدُوا أَوْفَوْا، وإنْ عقدُوا شدُّوا

وإنْ كانتِ النَّعْمَاءُ فيهِمْ جَزَوْا بها ▫▪▫ وإنْ أَنْعَمُوا لا كدَّروها، ولا كدُّوا[3]

وعلى المضيف عدم احتقار القليل، بل يجود بالموجود ولو بشِقِّ تمرةٍ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن احتقار القليل.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: **كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «يا نساءَ المسلمات، لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارَتِها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ»[4].**

(١) «الرَّحْل»: ما يُجْعَلُ على ظَهْرِ البعير للرُّكوب، مثل السَّرْج للفرس، وإلا كاف والبرذعة للحمار، وجمع رَحْلٍ: رِحَال.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٧٩٨) و (٤٨٨٩)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٠٥٤).

(٣) «الحلم» لابن أبي الدُّنيا (ص٥٦).

(٤) تقدَّم تخريجه.

وعنه ـ أيضًا ـ قال: «**خيرُ النَّاسِ للمساكين جَعْفَرُ بْنُ أبي طالب، يَنْقَلِبُ**[1]، **فيطعمُنا ما كان في بيتِه، حتَّى إنْ كان لَيُخْرِجُ العُكَّةَ**[2]، **ليس فيها شيءٌ، فَنَشُقُّها، فَنَلْعَقُ ما فيها**»[3].

قال ابن حبَّان ـ يرحمه الله:

«يجبُ على العاقل ابتغاء الأضياف، وبذل الكِسَر؛ لأنَّ نعمة الله إذا لم تُصَنْ بالقيام في حقوقهما، ترجع من حيثُ بدأتْ، ثُمَّ لا ينفع مَنْ زالتْ عنه التَّلهُّفُ عليها، ولا الإفكار في الظَّفَر بها، وإذا رأى حقَّ الله فيها، استَجْلَبَ النَّماء والزِّيادة، واستأخر الأجرَ في القيامة، واستصغر إطعام الطَّعام.

وعنصر قِرَى الضَّيف هو تركُ استحقار القليل، وتقديم ما حضر للأضياف؛ لأنَّ مَنْ حقر منع من إكرام الضَّيف بما قدر عليه، وترك الادخار عنه، وقد سئل الأوزاعيُّ ـ رحمه الله ـ ما إكرامُ الضَّيف؟ قال: طلاقةُ الوَجْهِ، وطيبُ الكلامِ»[4].

قلتُ: انظر ـ أخي في الله ـ إلى فقه هذا الإمام الذي جعل إكرام الضَّيف في طلاقة الوَجْهِ، وطيب الكلام، وقارنْ ذلك بحال أهل زمانك، فالضِّيافة عندَ أكثرهم هي بتكثير الطَّعام، حتَّى إنَّك تجد كثيرًا من النَّاس مَنْ يمتنع عن القِرَى لعدم وجود اللَّحم في حال وجود الضَّيف، والقاصد لوجه الله يجود بالموجود، ولا يتكلَّف التَّكلُّفَ الذي هو فوق الطَّاقة، وأمَّا ما دونَ ذلك فلا بأسَ به، بل هو محمودٌ لقول

---

(١) «ينقلب»: يرجع.
(٢) «العُكَّة»: وعاءٌ مِنْ جلدٍ مستديرٌ مختصٌ بالسَّمْنِ والعَسَلِ، وهو بالسَّمْن أخصُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٣٧٠٨) و(٥٤٣٢).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٦١).

الله سبحانه وتعالى - في شأن إبراهيم خليله لَّما أتاه الأضياف -: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (سورة الذاريات: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (سورة هود: ٦٩).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: خرج رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكرٍ وعُمَرَ، فقال: «ما أخرجَكُما من بُيُوتِكما هذهِ السَّاعةَ؟». قالا: «الجوع، يا رسولَ اللهِ». قال: «وأنا والذي نفسي بيَدِهِ، لأخرجني الذي أخْرَجَكُما، قوموا». فقاموا معَهُ، فأتى رجلاً من الأنصارِ، فإذا هو ليس في بيتهِ، فلمَّا رأتْهُ المرأةُ قالتْ: «مَرْحبًا وأهلاً وسهلاً!» فقال رسول الله ﷺ: «أيْنَ فُلانٌ؟». قالتْ: «ذهب يستَعذِبُ[1] لنا منَ الماءِ. إذْ جاءَ الأنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبَيْهِ، ثُمَّ قال: «الحَمْدُ للهِ، ما أحَدٌ اليومَ أكْرَمَ أضيافًا منِّي». قال: فانطلق فجاءهم بِعذْقٍ[2]، فيه بُسْرٌ، وتَمْرٌ، ورُطَبٌ، فقال: «كلوا من هذهِ» وأخَذَ المُدْيَةَ[3]، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «إيَّاك والحَلُوبَ[4]!»، فذبح لهم، فأكلوا منَ الشَّاةِ، ومن ذلك العذْقِ وشربوا»[5].

ومن تمام الضيافة أنْ تفرح بمقدم ضيفك، وتظهر له البشر، وأن تلاطفَهُ بحسن الحديث، وتشكرَهُ على تفضُّلِهِ ومجيئه، وتقوم بخدمته، وتظهر له الغِنى وبشاشةَ الوجه فقد قيل البشاشة في الوجه خير من القِرى وقد نظم بعضهم هذا الكلام بأبيات فقال:

---

(١) «يَسْتَعْذِبُ»: يطلبُ الماءَ العَذْبَ، وهو الطَّيِّبُ.
(٢) «العذْق»: هو الغُصْنُ منَ النَّخْلِ، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب.
(٣) «المُدْية»: السِّكِّين، والجمع مُدًى.
(٤) «الحَلُوب»: ذات اللَّبَنِ.
(٥) رواه مسلمٌ (٢٠٣٨).

إذا المرءُ وافى منزلاً منك قاصداً

قِراكَ وأَرمتُهُ لديكَ المسالكُ

فكُن باسِمًا في وجهِهِ مُتهلِّلاً

وقُل مرحبًا أهلاً ويوم مُباركُ

وقَدِّم له ما تستطيعُ مِنَ القِرَى

عَجولاً ولا تبخَل بما هو هَالِكُ

فقد قيل ببيتٍ سالفٍ مُتقدِّمٍ

تَداولَهُ زَيْدٌ وعَمرو ومَالكُ

بَشاشَةُ وَجْهِ المَرْءِ خَيْرٌ مِن القِرَى

فكيفَ بِمَن يأتي وهُو ضَاحِكُ

وقال آخرُ:

الله يعلم أنه ما سرني ◘ شيء كطارقة الضيوف النزل

ما زلت بالترحيب حتى خلتني ◘ ضيفًا لهم والضيف رب المنزل

أخذها من قول بعضهم:

يا ضيفنا لوزرتنا لوجدتنا ◘ نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وقال سيف الدولة ابن حمدان:

منزلنا حب لمن زاره ◘ نحن سواء فيه والطارق

وكل ما فيه حلال له ◘ إلا الذي حرمه الخالق

وقال آخرُ:

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام نازلاً ◘◘◘ وما فيَّ إلا تلك مِنْ شيمةِ العَبْدِ

قال ابن حبان ـ يرحمه الله ـ:

«ومنَ إكرام الضيف طيبُ الكلام، وطلاقة الوَجْهِ، والخدمةُ بالنَّفس فإنَّه لا يَذِلُّ من خَدَمَ أضيافَهُ، كما لا يَعِزُّ مَنِ استخدمهم، أو طلب لِقراه أجرًا»[١].

وكرام الناس وسادتهم يقضون هذا الحقَّ، فيقبلون على ضيوفهم، ويرفعون من قَدْرِهِم، ويُعْلون مِنْ منزلتهم، والتقربُ تَجَمُّلُ الحديث، والبَسْطُ، والتأنيسُ، والتَّلَقِّي بالبِشْرِ ـ من حقوق القِرَى، ومن تمام الإكرام.

وقالوا: «من تمام الضِّيافة الطلاقة عند أوَّلِ وَهْلَةٍ، وإطالةُ الحديثِ عندَ المأكلة»[٢].

وقال حاتم الطائيُّ:

سَلِي الجائعَ الغَرْشَانَ[٣] يا أُمَّ مُنْذِرٍ
إذا ما أتاني بَيْنَ ناري ومَجْزِري[٤]
هل أبسطُ لهُ وجْهي، إنَّهُ أوَّلُ القِرَى
وأبذُلُ معروفي لَهُ دُوْنَ مُنْكَرِي[٥]

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٦١).

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ١٠).

(٣) «الغَرْشان»: الجائع، والجمع: غَرْشَى.

(٤) «المَجْزِر»: مكان ذبح الإبل.

(٥) «شرح حماسة أبي تمام» (٢/ ٩٧٦).

وقال مسكينُ الدَّارميُّ:

لحَافي [١] لحَافُ الضَّيفِ، والبيتُ بيتُهُ ▫▪▫ ولَمْ يلهني عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ [٢]

أُحَادثُه، إنَّ الحديثَ منَ القِرَى ▫▪▫ وتعلمُ نفسٌ أنَّه سوف يَهْجَعُ [٣] [٤]

وقال آخرُ:

وإنِّي لطلقُ الوَجْهِ للمبتغي القِرَى ▫▪▫ وإنَّ فِنَائي [٥] للقِرَى لَرَحيبُ [٦]

أضاحك ضَيفي قَبْلَ إنزالِ رَحْلِهِ ▫▪▫ فيخصبُ عندي، والمكانُ جديبُ

وما الخَصْبُ للأضيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى ▫▪▫ ولكنَّما وَجْهُ الكريمِ خَصيبُ [٧]

وإذا كان معك أكثر من ضيفٍ، فأقبل على كُلِّ واحدٍ منهم بوجهك، ولا تَخصَّ أحدًا دون الآخر بحديثك، أو شيءٍ من ضيافتك، وخاول أن تلتمس رضى كُلِّ واحدٍ منهم، فقد كان رسول الله ﷺ أكرمَ النَّاسِ لضيوفه، فقد كان يعطي كُلَّ واحدٍ من ضيوفه نصيبَهُ، ولا يحسبُ ضيفُهُ أنَّ أحدًا أكرمُ عليه منه [٨].

---

(١) «اللِّحاف»: الفراش، والجمع: أَلْحِفَةٌ ولُحُفٌ.

(٢) «غزال مُقَنَّع»: يعني به الزَّوجةَ.

(٣) «يهجع»: ينام ويرقد

(٤) «البيان والتَّبيين» (١/ ١٠). ويروى البيت: طعامي طعامُ الضَّيفِ، والرَّحْلُ رَحْلُهُ . . . قاله ابن عبد البرِّ، قالوا: وهو أحسنُ شيءٍ في الضِّيافة. انظر: «بهجة المجالس» (١/ ٢٩٦).

(٥) «الفِنَاء»: المتَّسع أمامَ الدَّار، والجمع: أَفْنِيَةٌ.

(٦) «رَحيب»: واسع.

(٧) «روضة العقلاء» (ص٢٦١).

(٨) انظر: «دلائل النُّبُوَّة» لأبي نعيم (ص٥٥٥).

قال الشَّاعرُ:

أتاكَ رسولُ المكْرُماتِ مسلمًا ▫▪▫ يريدُ رسولَ اللهِ أعظمَ مُتَّقي
فأقبلَ يسعى في البِساطِ فما دَرَى ▫▪▫ إلى البحرِ يسعى، أمْ إلى الشَّمسِ يَرْتَقي

واعلمْ - أخي في الله - أنَّ الاكفهرارَ والعبوسَ، وكَثْرَةَ الدُّخولِ والخروجِ لغير حاجة، ونَهْرَ الأطفالِ أو الخادمِ بحضرةِ الضُّيوف - دليلُ الشُّحِّ، وأمارةُ البخل، ولَلْمَوْتُ خيرٌ من إجابة دعوة بخيلٍ، كما قيل:

ولَلْمَوْتُ خيرٌ مِنْ زيارةِ باخلٍ ▫▪▫ يلاحظُ أطرافَ الأكيلِ علي عَمْدِ

ومن أجمل ما قيل في ذمِّ البَخل، وعدم القيام بحقوق الضَّيف قولَ الشَّاعر:

وإذا أردْتَ إخاءَهُ ▫▪▫ فارفعْ يمينَكَ عَنْ طعامِهْ
فالموتُ أهونُ عندَهُ ▫▪▫ مِنْ مَضْغِ ضيفٍ والتقامِهْ
سِيَّانِ كَسْرُ رغيفِهِ ▫▪▫ أو كَسْرُ شيءٍ مِنْ عظامِهْ
وإذا مَرَرْتَ ببابِهِ ▫▪▫ فاحفظْ رغيفَكَ مِنْ غُلامِهْ

المُـرُوءة

المُرُوءة: هي جِمـاع مكارمِ الأخلاقِ، ومحـاسنِ الآدابِ، وكمالِ الرُّجـولة، فهي تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء الأعين بمهابته، ومن الحِكَم السَّائرة:

«ذو المُرُوءة يُكْرَمُ وإنْ كان مُـعْدمًا[١]، كالأسَدِ يُهَـابُ وإنْ كان رابضًا[٢]، ومَنْ لا مروءةَ له يُهَانُ وإنْ كان موسرًا، كالكلبِ يُهَانُ وإنْ طُوِّقَ[٣] وحُلِّيَ بالذَّهبِ»[٤].

وحقيقة المروءة: هي قوَّةٌ للنَّفس، مبـدأٌ لصدورِ الأفعالِ الجـميلةِ عنها، المستتبعةِ للمَدْحِ شَرْعًا، وعَقْلاً، وعُرْفًا[٥].

قيل لُسفيانَ بن عُيَيْنَةَ: «قَدِ استنبطْتَ مِنَ القرآنِ كُلَّ شيءٍ، فأين المروءةُ؟».

فقـال: «في قوله تعـالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩).

ففيه المروءة، وحسنُ الآدابِ، ومكارمُ الأخلاق.

فجـمع في قوله تـعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ صلة القـاطعين، والعَفْـو عن المذنبين، والرِّفقة بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

---

(١) «مُعْدِمًا»: فقيرًا.

(٢) «رابضًا»: مُقيمًا وساكنًا.

(٣) «طُوِّقَ»: لَبِسَ الطَّوْقَ الذي يُوضَعُ في العُنُقِ للزِّينة عادةً.

(٤) «المُرُوءة وخوارمها» للشَّيخ مشهور بن حَسَنٍ آل سليمان (ص٤١).

(٥) «التَّعريفات» للجُرجانيِّ (ص١١١).

ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحامِ، وتقوى اللهِ في الحلالِ والحرام، وغضُّ الأبصارِ، والاستعدادُ لدارِ القَرارِ.

ودخل في قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التَّخَلُّق بالحِلْمِ، والإعراضُ عن أهل الظُّلم، والتَّنَزُّه عن منازلة السُّفهاء، ومساوة الجَهْلَة والأغبياء، وغيرُ ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ، والأفعالِ الرَّشيدة»[1].

قال الشَّاعرُ:

إنَّ المُرُوءَةَ ليس يُدْرِكُها امْرُؤٌ ... وَرِثَ المُرُوءَةَ عَنْ أَبٍ فَأَضَاعَها

أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بالدَّناءَةِ والخَنَا ... ونَهَتْهُ عَنْ سُبُلِ العُلاَ فَأَطاعَها

فإذا أصابَ مِنَ الأُمُورِ عظيمةً ... يبني الكريمُ بها المُرُوءة باعَها

والمروءة لها حَدٌّ تنتهي إليه، وحَدُّها كما قال الفقهاء: «هي استعمالُ ما يُجَمِّلُ العبدَ ويَزِينُهُ، وتركُ ما يُدَنِّسُهُ ويشِينُهُ»[2].

وقيل: «المروءة: استعمالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ، واجتنابُ كُلِّ خُلُقٍ قبيحٍ»[3].

وقال ابْنُ القيِّم - يرحمه الله -:

«وحقيقة المروءة: تجنُّبٌ للدَّنايا والرَّذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللِّسانِ: حلاوتُهُ، وطيبُهُ، ولينُهُ، واجتناءُ الثِّمارِ منه بسهولةٍ ويُسْرٍ.

ومروءةُ الخُلُقِ: سَعَتُهُ، وبَسْطُهُ للحبيب والبغيض.

---

(١) «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٣٢ - ١٣٣).

(٢)، (٣) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٦٩٧).

ومروءةُ المال: الإصابةُ ببَذْلِهِ في مَوَاقِعهُ المَحْمُودَةَ عَقْلاً، وعُرْفًا، وشَرْعًا.

ومروءةُ الجاه: بذلُه للمُحْتَاجِ إليهِ.

ومروءةُ الإحسانِ: تعجيلُهُ، وتيسيرُهُ، وتوفيرُهُ، وعدمُ رؤيتِهِ حالَ وقوعه، ونسيانُه بعد وقوعه، فهذه مُرُوءَةُ البَذْلِ.

أمَّا مروءةُ التَّرْكِ: فَتَرْكُ الخِصَامِ، والمعاتبة، والمطالبةَ، والمُمَاراة، والإغضاءُ عَنْ عيبِ ما يأخذُهُ من حقِّكَ، وتَرْكُ الاستقصاءِ في طلبه، والتَّغافُلُ عن عَثَرَاتِ النَّاس، وإشْعَارُهُمْ إنَّك لا تعلمُ لأحدٍ منهم عَثْرَةً، والتَّوقير للكبير، وحفظُ حُرمةِ النَّظير، ورعاية أدبِ الصَّغير، وهي على ثلاث دَرَجات:

الدَّرجةُ الأولى - مروءةُ المرء مع نفسِهِ: وهي أَنْ يحمِلَهَا قَسْرًا على ما يُجَمِّلُ ويزينُ، وتركِ ما يُدنِّسُ ويَشِين؛ ليصيرَ لها ملكةً في العَلانية، فمَنْ أراد شيئًا في سرِّه وخُلوتِهِ، مَلَكَهُ في جَهْرِهِ وعلانيتِهِ، فلا يكشفُ عورتَهُ في الخَلاوةِ، ولا يتجشَّأُ بصوتٍ مُزْعجٍ ما وَجَدَ إلى خِلافِهِ سبيلاً، ولا يَجْشَعُ ويَنْهَمُ عندَ أكلِهِ وحدَهُ.

وبالجملة فلا يفعلُ خاليًا ما يستحي من فِعْلِهِ في الملإ، إلاَّ ما لا يحظُرُهُ الشَّرعُ والعقلُ، ولا يكونُ إلاَّ في الخُلوة: كالجماعِ، والتَّخلِّي، ونحوِ ذلك.

الدَّرجة الثَّانية - المروءة مع الخَلْقِ: بأنْ يستعمَلَ معهم شروطَ الأدبِ والحياء، والخُلُقِ الجميلِ، ولا يُظْهِرَ لهم ما يكرَهُهُ هو مِنْ غيرِهِ لنفسِهِ، ولْيَتَّخِذِ النَّاسَ مرآةً لنفسِهِ، فكُلُّ ما كَرِهَهُ ونَفَرَ عنه مِنْ قولٍ، أو فعلٍ، أو خُلُقٍ - فَلْيجتَنِبْهُ، وما أحبَّه من ذلكم واستحسَنَهُ فليفعلْهُ.

وصاحب هذه البصيرةِ ينتفع بكُلِّ مَنْ خالطَهُ وصاحَبَهُ مِنْ كاملٍ وناقصٍ، وسيِّءِ الخُلُقِ وحَسَنِه، وعديمِ المروءةِ وغزيرِهَا.

الدَّرجة الثَّالثة ـ المروءة مع الحَقِّ سبحانه وتعالى، بالاستحياءِ من نظره إليك، واطِّلاعه عليك في كُلِّ لحظةٍ ونَفَسٍ، وإصلاحِ عيوب نفسِكَ جَهْدَ الإمكان؛ فإنَّه قد اشتراها منك، وأنت ساعٍ في تسليم المبيع، وتقاضي الثَّمن، وليس مِنَ المروءة تسليمُهُ على ما فيه من العُيوب، وتقاضي الثَّمن كاملاً، أو رؤيةُ مِنَّتِه في هذا الإصلاح، وأنَّه هو المتوليِّ لَهُ لا أنت، فَيُغنيك الحياءُ منه عَنْ رُسومِ الطَّبيعةِ، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسِكَ عَنِ التفاتِكَ إلى عَيْبِ غيرِك، وشهود الحقيقةِ عن رؤيةِ فِعَالِكَ وصلاحِكَ»[(١)].

قال الشَّاعرُ:

وَمِنَ الْمُرُوءة لِلْفَتى ▫▪▫ ما عاشَ دارٌ فاخِرَهْ
فَاقْنَعْ مِنَ الدُّنيا بِها ▫▪▫ واعْمَلْ لِدارِ الآخِرَهْ[(٢)]

▪ ثلاثُ رسائلَ لحفظ المُرُوءة:

ذكر ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ ثلاث رسائل لحفظ المروءة، وهي:

الأولى ـ صون النَّفس: وهو حفظها وحمايتها عمَّا يشينها، ويعيبُها ويزرْي بها عندَ الله عزَّ وجلَّ، وملائكتِهِ، وعبادِهِ المؤمنين، وسائر خَلْقِهِ، فإنَّ مَنْ كَرُمَتْ عليه نفسُهُ، وكَبُرَتْ عندَه، صانَهَا وحماها، وزكَّاها وعَلاَّها، ووضعها في أعلى المحالِّ، وزاحم

(١) المرجع السَّابق (٢/ ٦٩٧ - ٦٩٩).
(٢) «عين الأدب والسِّياسة» (ص١٣٥).

بها أهلَ العزائم والكَمَالات، ومَنْ هانتْ عليه نفسُهُ، وصَغُرَتْ عندَهُ، أَلْقاها في الرَّذائل، وحَلَّ زِمَامَهَا وأَرْخَاهُ، ودَسَّاها ولم يَصُنْها عن قبيحٍ، فأقلُّ ما في تجنُّبِ القبائح صَوْنُ النَّفس.

وثانيها ـ توفيرُ الحسنات: ويكون ذلك من وجهين:

أحَدُهما ـ توفيرُ زَمَانِهِ على اكتساب الحسنات: فإذا اشتغل بالقبائح نَقَصَتْ عليه الحسناتُ التي كان مستعداً لتحصيلها.

والثاني ـ توفيرُ الحسناتِ المفعولة عن نِقصانها وبموازَنَة السَّيِّئات وحبوطها: وقد تستغرِقها بالكُلِّيَّة أو تُنْقِصُها، فلا بُدَّ أنْ تُضْعِفَهَا قطعًا؛ فتجنُّبُهَا يوفر ديوانَ الحسناتِ، وذلك بمنزلة مَنْ له مالٌ حاصل، فإذا استدانَ عليه، فإمَّا أنْ يَسْتَغْرِقَهُ الدَّينُ، أو يُكْثِرَهُ، أو يُنْقِصَهُ، فهكذا الحسناتُ والسَّيِّئاتَ سَوَاءٌ.

وثالثها ـ صيانة الإيمان: وذلك لأنَّ الإيمان عندَ جميع أهل السُّنَّة يزيد بالطَّاعة، ويَنْقُصُ بالمعصية، وقد حكَاهُ الشَّافعيُّ وغيرُهُ عن الصَّحابة، والتَّابعين، ومَنْ بَعْدَهم، وإضعافُ المعاصي للإيمان أمرٌ معلومٌ بالذَّوق والوجُود، فإنَّ العبدَ ـ كما جاء في الحديث ـ إذا أَذْنَبَ نُكِتَ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ، فإنْ تاب واستغفر، صُقِلَ قلبُهُ، وإنْ عَادَ فأذنبَ، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ أُخرى، حتَّى تَعْلُوَ قلبَهُ، وذلك الرَّانُ الذي قال الله تعالى: ﴿ **كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[1] (سورة المطففين: ١٤).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وابنُ ماجَهْ (٤٢٤٤) عن أبي هريرةَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٧٠).

فالقبائح تُسَوِّدُ القَلْبَ، وتُطفِئُ نُورَهُ، والإيمانُ هو نور القلب، والقبائح تَذْهَبُ بِهِ، أو تُقَلِّلُهُ قطعًا، فالحسناتُ تَزِيدُ نَورَ القلب، والسَّيِّئاتُ تُطفِئُ نُورَ القلب، وقد أخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ كَسبَ القُلُوب سببٌ للرَّانِ الذي يعلُوهَا، وأخبر أنَّه أَرْكَسَ المنافقين بما كسبوا، فقال: ﴿ **وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا** ﴾ (سورة النساء: ٨٨).

وأخبر أنَّ نَقْضَ المِيثاقِ الذي أَخَذَهُ على عبادِهِ سببٌ لتقسية القلب، فقال: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ (سورة المائدة: ١٣).

فجعل ذنب النَّقْضِ موجبًا لهذه الآثار: مِنْ تقسيةِ القلبِ، واللَّعْنةِ، وتحريف الكَلِمِ، ونِسْيانِ العِلْمِ.

فالمعاصي للإيمان كالمرض، والحمَّى للقوة سواءً بسواءٍ؛ ولذلك قال السَّلفُ: «المعاصي بريدُ الكُفْرِ، كما أنَّ الحُمَّى بريدُ الموتِ»[١].

قال شاعرُ النِّيلِ حافظُ بْنُ إبراهيمَ:

إنِّي لَتُطْرِبُني الخِلالُ[٢] كريمةً ◘■◘ طَرَبَ الغريبِ بأَوْبَةٍ[٣] وتَلاَقِ

وتَهُزُّني ذِكْرَى المُروءةِ والنَّدَى ◘■◘ بَيْنَ الشَّمائلِ هِزَّةَ[٤] المُشْتَاقِ[٥]

---

(١) «تهذيب مدارج السَّالكين» (١/ ٤٦٤ - ٤٦٦)، وانظر: «خوارم المُرُوءة» للشَّيخ مشهور بن حسن (ص٢٩٩).

(٢) «الخِلاَل»: جمعُ خَلَّةٍ، وهي الخَصْلَةُ والصِّفَةُ.

(٣) «الأوْبة»: الرُّجُوع.

(٤) «الهِزَّة»: النَّشاط والارتياح.

(٥) «ديوان المُرُوءة» لأحمدَ بركات.

الصَّبْرُ

الصَّبْرُ سيِّدُ الأخلاق[١]، ورفيقُ الدَّرْبِ، والطَّريقُ إلى الإمامة في الدِّين[٢]، والفوز العظيم، وما من خُلُقٍ من الأخلاق الفاضلة إلاَّ وهو يرجع إلى الصَّبْرِ، فالصَّبْرُ أساسُ الأخلاق الحميدة، وبَذْرُ الخير، وجماع الأمر.

وأصل كلمة الصَّبر هي المنعُ والحَبْسُ، فالصَّبر حَبْسُ النَّفس عن الجَزَع، واللِّسانِ عن التَّشكِّي، والجوَارحِ عن لَطْمِ الخُدُود، وشقِّ الجُيُوب، ونحوها[٣].

وحقيقة الصَّبر: خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاق النَّفس يُمْتَنَعُ به من فعل ما لا يحسنُ ولا يجملُ، وهو قُوَّةٌ من قوى النَّفس التي بها صلاحُ شأنها، وقوام أمرها، وحين سُئِلَ الجُنَيْدُ عن الصَّبر قال: «تجرُّع المرارةَ مِنْ غير تعبُّسٍ». وقيل «الصَّبْرُ: هو الوقوفُ مَعَ البلاءِ بحُسْنِ الأدبِ»[٤].

---

(١) قال الإمام ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ في كتابه «عدة الصَّابرين» (ص٢٧-٢٨): «الصَّبر سيِّدُ الأخلاق، وبه ترتبطُ مقاماتُ الدِّين، فما من خُلُقٍ فاضلٍ إلاَّ يَمرُّ بقنطرة من الصَّبر، وإنْ تحوَّلَ إلى اسم آخرَ، فإنْ كان الصَّبرُ عَنْ شهوة فَرْجٍ مُحرَّمة سُمِّيَ عِفَّةً، وإنْ كان عَن فُضول عُشق سُمِّيَ زُهْدًا، وإنْ كان عَنْ دواعي غَضَب سُمِّي حِلْمًا، وإنْ كان صبرًا عن دواعي الفَرار والهَرَب سُمِّيَ شجاعةً، وإنْ كان عن دواعي الانتقام سُمِّيَ عَفْوًا، وإنْ كان عن إجابة الإمساك والبُخْل سُمِّيَ جُودًا ... وهكذا بقيَّةُ الأخلاق، فله عن كُلِّ فعلٍ وتَرْك اسْمٌ يخصُّهُ بحسب متعلّقه، والاسمُ الجامع لذلك كُلِّه (الصَّبْرُ)، فأكْرِمْ به من خُلُقٍ!، وما أَوْسَعَ معناه، وأعظمَ حقيقتَهُ!»

(٢) قال ابنُ القيِّم ـ أيضًا ـ في كتابه «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٥٤): «سمعتُ شيخَ الإسلام ابْنَ تَيْمِيَّةَ يقول: بالصَّبْر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين. ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وجعلْنا منهم أئمَّةً يهْدُونَ بأمْرنا لمَّا صبَرُوا وكانُوا بآياتنا يُوقنُون﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

(٣) «عدة الصَّابرين» (ص٢٧).

(٤) المرجع السَّابق (ص٢٩).

وقد ذكر الله سبحانه وتعـالى: الصَّبر في كتابه العزيز في نَيِّفٍ[١] وتسعين موطنًا تدلُّ على وجوبه[٢]، وأضاف أكثر الدَّرجات والخيـرات إلى الصَّبر، وجعلها ثمرةً له، وجمع للصَّابرين بَيْنَ أمـورٍ يجمعها لغـيرهم، فقال سبـحانه وتعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٣] (سورة البقرة:١٥٧).

وقرنه بالصَّلاة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة:٤٥).

وقال الله سبـحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٤] (سورة البقرة:١٥٣).

وبشَّرَنَا نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ بقوله: «ما يُصيبُ المسلمَ مِنْ نَصَبٍ[٥]، ولا وَصَبٍ[٦]، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذىً، ولا غمٍّ - حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إلاَّ كفَّرَ اللهُ بها مِنْ خَطَايَاه»[٧].

والمؤمِنُ يُصيبُهُ من البلاء على قَدْرِ دينِه.

عن سَعْـدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قـال: قلتُ: «يا رسـولَ اللهِ، أيُّ النَّـاسِ أشَـدُّ بلاءً؟». قال: «الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْـثَلُ فـالأَمْـثَلُ، يُبْـتَلَى العَبْـدُ عَلَى حَسَبِ دينِهِ، فإنْ كـان في دينِهِ صُلْبًا،

---

(١) «النَّيِّفُ»: مِنَ الواحد إلى التِّسْعَة، ونَيَّفَ بمعنى زاد.
(٢) قال ابنُ القيِّم - يرحمه الله - في كتابه «مدارج السَّالكين» (٢/١٥٢): «وهو واجبٌ بإجماعِ الأُمَّة».
(٣) انظر: «عدة الصَّابرين» (ص٩٨).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تَيْمِيَّةَ (١٠/٩).
(٥) «نَصَب»: تَعَب.
(٦) «وَصَب»: مَرَض.
(٧) رواه البخاريُّ - واللفظ له - (٥٦٤١) و (٦٤٢)، ومسلمٌ (٢٥٧٣) عن أبي سعيد وأبي هُرَيْرَةَ.

اشتَدَّ بلاؤُهُ، وإنْ كانَ في دينِه رِقَّةٌ، ابتُلِيَ على حَسَبِ دينِه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلَى الأرضِ وما عليه مِنْ خطيئةٍ»[١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً»؟. قال: **«الأنبياءُ»**. قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، ثُمَّ مَنْ؟». قال: **«ثُمَّ الصَّالحونَ، لقدْ كانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بالفقرِ، حتَّى ما يجدُ إلاَّ العَبَاءَةَ، يجوبُها**[٢] **فيلبسها، ويُبْتَلَى بالقملِ حتَّى يَقْتُلَهُ، ولأَحَدُهُمْ كان أشدَّ فَرَحًا بالبلاءِ مِنْ أَحَدِكُمْ بالعطاءِ»**[٣].

قال الشَّاعرُ:

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تَأْتي خُطُوبُهُ[٤] ■ ويُحْمَدُ مِنْهُ الصَّبْرُ ممَّا يُصيبُهُ

فَمَنْ قَلَّ فيما يَتَّقيهِ اصْطِبارُهُ ■ لَقَدْ قَلَّ فيما يَرْتَجِيهِ نَصِيبُهُ[٥]

فالعبدُ إنْ لم يبلغْ ما كُتِبَ له بعمله، ابْتُلِيَ حتَّى يصلَ إلى منزلةٍ عظيمةٍ عندَ اللهِ، كما في حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: **«إنَّ الرَّجُلَ لَيَكونُ له المنزلةُ عندَ اللهِ، فما يَبْلُغُها بعَمَلٍ، فلا يزالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بما يَكْرَهُ؛ حتَّى يُبَلِّغَهُ إيَّاها»**[٦].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **«لَيَوَدَّنَّ أهلُ العافِيَةِ يَوْمَ القيامةِ أنَّ جُلُودَهُمْ قُرِضَتْ بالمَقاريضِ؛ ممَّا يَرَوْنَ مِنْ ثوابِ أهلِ البلاءِ»**[٧].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٨)، وابن ماجَهْ (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٩٩٢!)، و«الصَّحيحة» (١٤٣).

(٢) «يجوبُها»: يقطعُ وَسَطَهَا ليلبَسَهَا.

(٣) رواه ابن ماجَهْ (٤٠٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في«صحيح الجامع» (١/ ٩٩٥)، و«الصَّحيحة» (١٤٤).

(٤) «خُطُوب»: جمع خَطْب، وهو الأمرُ العظيمُ المكروهُ.

(٥) «جواهر الأدب» (ص١١٧).

(٦) رواه الحاكمُ في «المستدرك»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٦٢٥)، و«الصَّحيحة» (٢٥٩٩).

(٧) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٤٨٤)، و«الصَّحيحة» (٢٢٠٦).

قال الشَّاعرُ:

اصْبِرْ، ففي الصَّبْرِ خَيْرٌ، لَوْ علِمْتَ بِهِ ▫▪▫ لَكُنْتَ بَارَكْتَ. شُكْرًا. صَاحبَ النِّعَمِ

واعلمْ بأنَّكَ إنْ لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَمًا ▫▪▫ صَبَرْتَ قَهْرًا عَلَى ما خُطَّ بالقَلَمِ[(١)]

وقال آخـرُ:

أيا صاحبي إنْ رُمْتَ[(٢)] أَنْ تكسبَ العُلا ▫▪▫ وتَرْقَى إلى العَلْيَاءِ غَيْرَ مُزَاحِمِ

عَلَيْكَ بحُسْنِ الصَّبْرِ في كُلِّ حالةٍ ▫▪▫ فما صابرٌ فيما يَرُوْمُ بنادمِ[(٣)]

وقال اخـرُ:

اصْبِرْ قليلاً، وكُنْ باللهِ مُعْتَصِمًا ▫▪▫ لا تَعْجَلَنَّ؛ فإنَّ العَجْزَ بالعَجَلِ

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ في كُلِّ نائبةٍ[(٤)] ▫▪▫ لَكِنَ عَوَاقِبَهُ أحلى مِنَ العَسَلِ[(٥)]

وقد يظنُّ النَّاس أنَّ الصَّبر ذِلَّةٌ لصاحبه، مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ يقول مُؤَكِّدًا: **«ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عليها إلاَّ زادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عِزًّا»**[(٦)].

---

(١) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٢) «رُمْتَ»: طَلَبْتَ وأرَدْتَ.
(٣) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٤) «نائبة»: مُصيبة ، والجمع نَوَائب.
(٥) «جواهر الأدب» (ص٧١١).
(٦) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٢٥) عن أبي كَبْشَةَ الأَنْماريِّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٢٤).

وقد أُوذِيَ أنبياءُ الله ـ صلَوَاتُ الله وسلامُهُ عليهم ـ الذَّين هم أفضلُ الخَلْق وأعدلهم بأنواع من الأذى فَصَبَروا، وأُوذيَ نبيُّنا ﷺ بأشدَّ من ذلك[1] قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ[2] فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ (سورة التوبة: ٥٨).

وقال: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** ﴾ (سورة طه: ١٣٠).

قال عليُّ بنُ الجَهْم:

«هِيَ النَّفْسُ، ما حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ ⁂ وللدَّهْرِ أيَّامٌ تَجُورُ[3] وتَعْدِلُ

وعاقبةُ الصَّبرِ الجميلِ جميلةٌ ⁂ وأَحْسَنُ أخلاقِ الرِّجالِ التَّفَضُّلُ

ولا عارٌ إنْ زالتْ عَنِ الحُرِّ نِعْمَةٌ ⁂ ولكِنَّ عاراً أَنْ يزولَ التَّجَمُّلُ[4]»[5]

---

(١) قال ابنُ القيِّم ـ يرحمه الله ـ في كتابه «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٣٠١): «فإذا جئتَ إلى النَّبيِّ ﷺ وتأمَّلْتَ سيرتَهُ مع قومِهِ، وصبره في اللهِ، واحتماله ما لم يحتملْهُ نبيٌّ قَبْلَهُ، وتلوُّن الأحوال عليه من سلمٍ وخوفٍ، وغِنًى وفقرٍ، وأمْنٍ، وإقامةٍ في وطنه، وظَعْنٍ عنه، وتركه لله، وقتل أحبابِهِ وأوليائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وأذى الكفَّار له بسائر أنواع الأذى من القول، والفِعْل، والسِّحر، والكذب، والافتراء عليه والبُهْتان، وهو مع ذلك صابرٌ على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يُؤْذَ نبيٌّ ما أُوذِيَ، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يُعْطَ نبيٌّ ما أُعْطِيَهُ، فرفع اللهُ له ذِكْرَهُ، وجَعَلَهُ أقربَ الخَلْقِ إليه وسيلةً، وأعظمهم عندَهُ جاهًا، وأسمعهم عندَهُ شفاعةً، وكانت تلك المِحَنُ والابتلاءُ عَيْنَ كرامتِهِ، وهي ممَّا زادَهُ اللهُ شرَفًا وفَضْلاً، وسَاقَهُ بها إلى أعلى المقامات».

(٢) «يَلْمِزُكَ»: يعيبُكَ، وينتقدُ عليك.

(٣) «تَجُورُ»: من الجَوْر، وهو الظُّلْم.

(٤) «التَّجَمُّلُ»: التَّصبُّر.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٣٣٢).

وقال إبراهيمُ بْنُ كُنَيْفٍ النبهانيُّ:

تَعَزَّ[1]، فإنَّ الصَّبْرَ بالحُرِّ أجْمَلُ ... وليس عَلَى رَيْبِ الزَّمانِ مُعَوَّلُ[2]

فلو كان يُغْني أَنْ يُرَى المَرْءُ جازعًا ... لحادثةٍ، أو كان يُغْنِي التَّذَلُّلُ

لكان التَّعَزِّي[3] عندَ كُلِّ مُصيبةٍ ... ونائبةٍ بالحُرِّ أَوْلَى وأَجْمَلُ

فكيف وكُلٌّ ليس يَعْدُو[4] حِمَامَهُ[5] ... وما لامْرِئٍ عمَّا قَضَى اللهُ مَرْحَلُ؟!

فإنْ تَكُنِ الأيَّامُ فينا تَبَدَّلَتْ ... بِبُؤْسَى ونُعْمَى، والحَوادثُ تَفْعَلُ

فما لَيَّنَتْ منَّا قَنَاةً[6] صليبةً ... ولا ذَلَّلَتْنَا للَّتي ليس تُجَمَّلُ

ولكنْ رَحَلْنَاها نُفُوسًا كريمةً ... تُحَمَّلُ ما لا يُسْتطاعُ فَتَحْمِلُ

وَقَيْنَا بحُسْنِ الصَّبْرِ منَّا نُفُوسَنَا ... فَصَحَّتْ لَنَا الأعْراضُ، والنَّاسُ هُزَّلُ[7]

وقال رجلٌ من بني أسدٍ في الهجاء:

دَبَبْتَ[8] للمَجْدِ، والسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفوسِ، وألْقَوا دُونَهُ الأُزُرَا[9]

وكابدُوا المَجْدَ، حتَّى مَلَّ أكثرُهُمْ ... وعانقَ المَجْدَ مَنْ أوْفَى، ومَنْ صَبَرَا

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا[10]

---

(١) «تَعَزَّ»: تَصَبَّرْ وتجلَّدْ على ما يَحْدُثُ لَكَ من مصائب الحياة.

(٢) «مُعَوَّل»: من عَوَّلَ علي الشَّيْء، إذا اعتمد عليه.

(٣) «التَّعَزِّي»: التَّصبُّر والتَّسلِّي على المصائب.

(٤) «يَعْدُو»: يتجاوز ويتعدى.

(٥) «الحِمَامُ»: الموتُ.

(٦) «قَنَاة»: المراد بها هنا القامة، وبليها الضُّعف والانحلال.

(٧) «جواهر الأدب» (ص٥١٨-٥١٩).

(٨) «الدَّبيبُ»: السَّيرُ بلين وبُطْء.

(٩) «الأُزُر»: جمعُ إزار، وهو ما يُلَفُّ حَوْلَ النِّصفِ الأسفلِ مِنَ الجِسْمِ.

(١٠) «الصَّبِر»: عُصَارة شَجَرٍ مُرٍّ.

إنَّ من أجمل ما قيل في تعزية وتسلية أهل المصائب قولَ عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ للأشْعَثِ بنِ قَيْسٍ: «إنَّك إنْ صَبَرْتَ جَرَى عليك القَلَمُ وأنت مَأْجُورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عليك القَلَمُ وأنت مَأْزورٌ».

وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره، فقال:

وقال عليٌّ في التَّعازي لأشْعَثَ ▪▪▪ وخَافَ عليه بعضَ تِلْكَ المآثِمِ:
أتَصْبِرُ للبَلْوَى عَزاءً وخشيةً ▪▪▪ فَتُؤْجَرَ، أو تَسْلُو سُلُوَّ البهائِمِ؟[1]

▪ أسباب تهوين المصائب[2]:

لتسهيل المصائب، وتخفيف الشَّدائد أسبابٌ، إذا قارنتْ حَزْمًا، وصادفتْ عَزْمًا، هان وَقْعُهَا، وقَلَّ تأثيرُها وضررُها، فمنها:

١ ـ إشعارُ النَّفس بما تعلمه من نزول الفناء، وتقضي المسرِّ، وأنَّ لها آجالاً مُنْصَرِمةً[3]، ومُدَدًا[4] مُنْقَضِيَةً، إذْ ليس للدُّنيا حالٌ تدوم، ولا لمخلوقٍ فيها بقاءٌ.

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مالي وللدُّنيا، وما للدُّنيا ومالي!. والذي نفسي بيده، ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا إلاَّ كراكبٍ سار في يومٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحتَ شَجَرَةٍ ساعةً مِنَ النَّهار، ثُمَّ راح وتَرَكَهَا**»[5].

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٨).
(٢) انظر: «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٩١ ـ ٢٩٦).
(٣) «مُنْصَرِمة»: مُنْتَهِية.
(٤) «المُدَدُ»: جمع مُدَّة، وهي الفَتْرَةُ الزَّمَنِيَّة.
(٥) رواه أحمدُ في «المسند»، والحاكم في «المستدرك»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٦٩/٢)، و«الصَّحيحة» (٤٣٩).

وسئل عليٌّ بْنُ أبي طالب ﷺ عن الدُّنيا، فقال: «تفرُّ وتضرُّ وتَمُرُّ».

وقال أنو شروان: «إنْ أحببتَ ألاَّ تغتمَّ، فلا تَقْتَنِ ما به تَهْتَمُّ».

فأخذه بعضُ الشُّعراء، فقال:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الدَّهْرَ مِنْ سُوءِ فِعْلِه ▫▪▫ يُكَدِّرُ ما أعطى، ويَسْلُبُ ما أَسْدَى؟!

فَمَنْ سَرَّهُ ألاَّ يَرَى ما يَسُوْءُهُ ▫▪▫ فلا يتَّخِذْ شيئًا يخافُ لَهُ فَقْدَا

٢ ـ أنْ يتصوَّرَ انجلاء الشَّدائد، وانكشاف الهُمُوم، وأنَّها تُقَدَّرُ بأوقات لا تنصرم قَبْلَها، ولا تستديمُ بَعْدَها، فلا تقصرُ بجزَعٍ، ولا تطولُ بصبرٍ وأنَّ كُلَّ يومٍ يمرُّ بها يذهبُ منها بشَطْرٍ، ويأخذ منها بنصيبٍ، حتَّى تَنْجَلِيَ وهو عنها غافلٌ.

حُكِيَ أنَّ الرَّشيدَ حبس رجلاً، ثُمَّ سأل عنه بَعْدَ زمان، فقال للمتوكِّل به: «قُلْ له: كُلُّ يومٍ يمضي من نعمِه، يمضي من بُؤْسي مِثْلُهُ، والأمرُ قريبٌ، والحُكْمُ لله تعالى».

فأخذ هذا المعنى بعضُ الشُّعراء، فقال:

لو أنَّ ما أَنْتُمُو فيه يَدُومُ لَكُمْ ▫▪▫ ظَنَنْتُ ما أنا فِيْهِ دائمًا أَبَدَا

لكنَّني عالِمٌ أنِّي وأنَّكُمْ ▫▪▫ سَنَسْتَجْدي[1] خِلافَ الحالَتَيْنِ غَدَا

وأنشد عُمَرُ بن الخطَّاب ﷺ حين حَضَرَتْهُ الوفاةُ:

أَلَمْ تَرَ أنَّ رَبَّكَ ليس تُحْصَى ▫▪▫ أَيَادِيْهِ[2] الحديثةُ والقَدِيْمَهْ

تَسَلَّ عَنِ الهُمُومِ، فليس شيءٌ ▫▪▫ يقومُ، ولا هُمُومُكَ بالمُقِيْمَهْ

لعلَّ اللهَ يَنْظُرُ بَعْدَ هذا ▫▪▫ إليك بنظرةٍ مِنْهُ رَحِيْمَهْ

---

(١) «سَنَسْتَجْدي»: سَنَسْأل ونطلب.

(١) «الأيادي»: النِّعَم.

٣ ـ أن يعلم أنَّ فيـما وُقِيَ من الرَّزايا[١]، وكُفِيَ من الحَوَادث[٢] ما هو أعظمُ من رزيَّته، وأشدُّ من حادثته؛ ليعلمَ أنَّه ممنوحٌ بحُسْنِ الدِّفاع.

قيل للشَّعبيِّ في نائبةٍ: كيف أصبحتَ؟. قال: بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ: خيرٍ منشورٍ، وشرٍّ مستورٍ.

وقال بعض الشُّعراء:

لا تَكْرَهِ المَكْرُوهَ عندَ حصولِهِ ... إنَّ العَوَاقِبَ لَمْ تَزَلْ مُتَبَايِنَهْ[٣]

كم نعمةٍ لا تَسْتَقِلُّ[٤] بشُكْرِهَا ... للهِ في طيِّ المَكَارِهِ كَامِنَهْ

٤ ـ أن يتأسَّى بذوي الغِيَرِ[٥]، ويتسلَّى بأولي العِبَرِ، ويعلم أنَّهم الأكثرون عَدَداً، والأسرعون مَدَداً[٦]، فيستجدُّ من سَلْوَةِ الأسى، وحُسْنِ العَزَا ما يُخَفِّفُ شَجْوَهُ[٧]، ويُقِلُّ هَلَعَهُ.

قال عُمَرُ بن الخطَّاب ﷺ: «أَلْصِقُوا بذَوِي الغِيَرِ، تتَّسِعْ قُلُوبُكُم».

وعلى مثل ذلك كانتْ مَرَاثِي الشُّعراء، قالتِ الخَنْساءُ تَرْثِي أخاها لأبيها صَخْراً:

يُذْكِرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً ... وأَذْكُرُهُ لكلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

فلولا كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلي ... على إخوانِهِمْ، لقَتَلْتُ نَفْسِي

(١) «الرَّزايا»: المصائب، مفردها رزيَّة.
(٢) «الحَوَادث»: الشَّدائد والكوارث، مفردها حادثة.
(٣) «مُتَبَاينة»: مختلفة.
(٤) «تَسْتَقِلُّ»: تَنْهَضُ.
(٥) «الغِيَر»: أحوال الدَّهر المتغيِّرة، مفردها غِيْرَة.
(٦) «المَدَد»: النُّصرة والعَوْن والغَوْث.
(٧) «شَجْوه»: حزنه.

ولكنْ لا أزالُ أرَى عَجُولاً[(١)] ▪▪▪ ونائحةً تنُوحُ ليومِ نحْسِ[(٢)]

هُمَا كلتاهُمَا تَبْكي أخَاها ▪▪▪ عَشِيَّةَ رُزْئِهِ، أو غِبَّ[(٣)] أمْسِ[(٤)]

ومَا يَبْكِينَ مِثْلَ أخي، ولكنْ ▪▪▪ أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأسِّي

فَقَدْ وَدَّعْتُ يومَ فِرَاقِ صَخْرٍ ▪▪▪ أبي حَسَّانَ لَذَّاتي وأُنْسي

فيا لَهْفي[(٥)] عليه، ولَهْفَ أمِّي ▪▪▪ أيُصبحُ في الضَّريحِ[(٦)]، وفيه يُمْسي؟![(٧)]

وقال البُحْتُرِيُّ:

فَلاَ عَجَبَ لِلأُسْدِ إنْ ظَفِرَتْ بها ▪▪▪ كِلاَبُ الأعَادي مِنْ فَصِيحٍ وأعْجَمي

فَحَرْبَةُ[(٨)] وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى[(٩)] ▪▪▪ ومَوتُ عليٍّ مِنْ حُسَامِ[(١٠)] ابْنُ ملجمِ[(١١)]

---

(١) «العَجُول»: التي مات وَلَدُها صغيراً.

(٢) «نحْس»: شُؤْم.

(٣) غِبَّ كذا ـ بكسر الغين ـ عقِبَهُ.

(٤) «أمس»: هو اليوم الذي قبلَ يومك، فإذا عُرِّفَ بالألف واللام، قُصِدَ به أيُّ يومٍ مَضَى، وهذه هي الكلمة الوحيدة في اللُّغة العربيَّة التي إذا نُكِّرَتْ عُرِّفَتْ، وإذا عُرِّفَتْ نُكِّرَتْ.

(٥) «اللَّهْفَة»: الحَسْرَة.

(٦) «الضَّريح»: القبر، جمعه أَضْرِحَة.

(٧) «جواهر الأدب» (ص٣٩٧).

(٨) «الحَرْبَةُ»: واحدة الحِرَاب، وهي كالرُّمْح.

(٩) «الرَّدَى»: الهَلاك والموت.

(١٠) «الحُسَامُ»: السَّيفُ القاطعُ، وكان ابْنُ ملجمٍ ـ قَبَّحَهُ اللهُ ـ قد اشتراهُ بألفٍ، وشَحَذَهُ أَرْبعين صباحًا، وسَمَّمَهُ بألف.

(١١) «ابن ملجم»: هو عَبْدُ الرَّحمن بْنُ عَمْرٍو المعروفُ بابن ملجمٍ الحِمْيَرِيِّ، فاتكٌ ثائرٌ مِنْ أشدِّ الفُرسان، أَدْرَكَ مِنْ شيْعَة عليٍّ، وشَهِدَ مَعَهُ صِفِّينَ، ثُمَّ خَرَج عليه، فقد كان مِمَّنْ عارضُوا التَّحكيمَ، وليأخذَ بثأر إخوانه من أهلِ النَّهروان ـ والنَّهروانُ اسمٌ للموضعِ الذي دارتْ فيه المعركة بَيْنَ عليٍّ والخَوارج ـ الذين قتلهُمْ عليٌّ؛ تَرَبَّصَ لعليٍّ سَحَرَ يومِ الجُمُعَة ساعةَ خُرُوجه لصلاة الصُّبح، فضربه بالسَّيف على قرن رأسه، فسال دَمُهُ على لِحْيَتِهِ فَخَضَبَهَا وكان ذلك لِسَبْعَ عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ على الأصحِّ بسنة ٤٠ هـ.

وقال أبو نُوَاس:

المَرْءُ بَيْنَ مَصَائِبَ لا تَنْقَضِي ... حَتَّى يُوَارَى[(١)] جِسْمُهُ في رَمْسِهِ[(٢)]

فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى في أَهْلِهِ ... ومُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى في نَفْسِهِ

٥ ـ أنْ يعلم أنَّ النِّعَمَ زائرةٌ، وأنَّها ـ لا محالةَ ـ زائلةٌ، وأنَّ السُّرُورَ بها إذا أَقْبَلَتْ مَشُوبٌ[(٣)] بالحَذر من فراقها إذا أَدْبَرَتْ، وأنَّها لا تُفْرِحُ بإقبالها فَرَحًا حتَّى تُعْقِبَ بفراقها تَرَحًا[(٤)]، فعلى قَدْرِ السُّرُور يكون الحُزْنُ.

قيل في منثور الحِكَم: «المَفْرُوحُ بِهِ هو المَحْزُونُ عليه».

وقيل: «مَنْ بَلَغَ غايةَ ما يُحِبُّ، فَلْيَتَوَقَّعْ غاية ما يَكْرَهُ».

وقال بعضُ الحُكَمَاء: «مَنْ عَلِمَ أنَّ كُلَّ نائبةٍ إلى انقضاءٍ، حَسُنَ عَزَاؤُهُ عندَ نزولِ البَلاَءِ».

وقيل للحَسَنِ البِصْرِيِّ ـ يرحمه الله ـ: «كيف تَرَى الدُّنيا؟». قال: «شَغَلَنِي تَوَقُّعُ بلائها عَنِ الفَرَحِ بِرَخائها».

فأخذه أبو العَتَاهِية، فقال:

تَزِيدُهُ الأَيَّامُ إنْ أَقْبَلَتْ ... شِدَّةَ خَوْفٍ لِتَصَارِيفِهَا

كأنَّها في حالِ إِسْعَافِهَا[(٥)] ... تُسْمِعُهُ وَقْعَةَ تَخْوِيفِهَا

---

(١) «يُوَارَى»: يُدْفَن.
(٢) «الرَّمْسُ»: القبر، والجمع أَرْمَاسٌ.
(٣) «مَشُوبٌ»: مَخْلُوطٌ.
(٤) «التَّرَحُ»: الحُزْنُ، والجمع أَتْرَاحٌ.
(٥) «إسعافها»: إنجادها.

٦ ـ أنْ يعلمَ أنَّ سُرُورَهُ مقرونٌ بمساءة غيره، وكذلك حزنه مقرونٌ بسرور غيره، إذْ كانت الدُّنيا تنقل من صاحبٍ إلي صاحبٍ، وتصلُ صاحبًا بفراق صاحبٍ، فتكون سُرُورًا لِمَنْ وَصَلَتْهُ، وحُزْنًا لِمَنْ فارقتْهُ.

قال البُحْتُرِيُّ:

مَتَى أَرَتِ الدُّنيا نَبَاهةَ خَامِلٍ[1] ▫▪▫ فلا تَرْتَقِبْ إلاَّ خُمُولَ نَبِيْهِ

وقال المُتنبِّي:

بذا قَضَتِ الدُّنيا ما بَيْنَ أَهْلِهَا ▫▪▫ مصائبُ قَوْمٍ عندَ قَوْمٍ فَوائِدُ

وقال صاحبُ «العقْدِ الفَرِيد» أحمدُ بنُ عبد ربِّه القُرطُبيُّ ـ يصف الدُّنيا ـ:

أَلاَ إنَّما الدُّنيا نَضَارةُ[2] أَيْكَةٍ[3] ▫▪▫ إذا اخْضَرَّ منْها جانبٌ، جفَّ جانبُ

فلا تَفْرَحَنَّ منْهَا لشيْءٍ تُفِيْدُهُ ▫▪▫ سيذهب يومًا مِثْلَمَا أنت ذَاهِبُ

هي الدَّارُ ما الآمالُ إلاَّ فَجَائعٌ ▫▪▫ عَلَيْهَا، ولا اللَّذَّاتُ إلاَّ مَصَائبُ

فلا تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فيها بعَبْرَةٍ[4] ▫▪▫ على ذاهِبٍ مِنْهَا؛ فإنَّك ذاهِبُ

---

(١) «خامِل»: ساقط.

(٢) «النَّضارة»: الحُسْنُ والرَّونق.

(٣) «الأيْكَةُ»: الشَّجَرةُ، والجمعُ أَيْكٌ.

(٤) «العَبْرَةُ»: الدَّمعةُ قَبْلَ أنْ تَفيضَ.

٧ ـ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ طَوَارِقَ[١] الإنسان من دلائل فَضْلِه، ومِحَنَهُ من شَوَاهد نُبْلِه[٢]، ولذلك إحدى عِلَّتينِ: إمَّا لأنَّ الكمالَ مُعْوِزٌ[٣]، والنَّقْصَ لازمٌ، فإذا تواتر الفَضْلُ عليه، صار النَّقْصُ فيما سِوَاهُ، وقد قيل: «مَنْ زاد في عقلِه، نقص من رزقِه».

وقال أبو العتَاهية:

مَا جَاوَزَ المَرْءُ مِنْ أَطْرافِهِ طَرَفًا ▪ إلاَّ تَخَوَّنَهُ النُّقْصَانُ مِنْ طَرَفِ

وقال إبراهيمُ بنُ هلالٍ الكاتب:

إذا جَمَعْتَ بَيْنَ امْرِئَيْنِ صناعةً ▪ فأَحْبَبْتَ أَنْ تَدْرِي الذَّي هو أَحْذَقُ[٤]
فلا تَتَفَقَّدْ مِنْهُما غَيْرَ ما جَرَتْ ▪ بِهِ لَهُمَا الأَرْزَاقُ حِينَ تُفَرَّقُ
فَحَيْثُ يكونُ النَّقْصُ فالرِّزْقُ واسعٌ ▪ وحيثُ يكونُ الفَضْلُ فالرِّزْقُ ضَيِّقُ

وإمَّا لأنَّ الفَضْلِ مَحْسُودٌ، وبالأَذَى مَقْصودٌ، فلا يسلمُ في بِرِّهِ من مُعَادٍ، واشْتطاط[٥] مُنَاوٍ[٦].

قال الصنوبري:

مِحَنُ الفتى يُخْبِرْنَ عَنْ فَضْلِ الفَتَى ▪ كالنَّار مُخْبِرَةٌ بِفَضْلِ العَنْبَرِ[٧]

---

(١) «طوارق»: مصائب، المفرد طارقة.
(٢) «النُّبل»: الذَّكاء والنَّجابة.
(٣) «مُعْوِز»: مِنْ عَوِزَ الشَّيءُ، إذا عَزَّ وقَلَّ.
(٤) «أَحْذَق»: ماهرٌ في صَنْعته.
(٥) «اشتطاط»: جَوْر وظُلْم.
(٦) «مُنَاوٍ»: مُعَاد.
(٧) «العَنْبَر»: مادَّة صلبة تنبعث منها رائحةٌ ذكيَّةٌ إذا أُحْرِقَتْ.

وقلَّما تكون مِحْنَة فاضلٍ إلاَّ من جهة ناقصٍ، وبَلْوى عالم إلاَّ على يَدِ جاهلٍ؛ وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمُبَاينة، وحدوث الانتقام لأجل التَّقدُّمِ.

قال الشَّاعر:

فلا غَرْوَ[1] أنْ يُمنى[2] عليمٌ بجاهلٍ ▫▪▫ فمنْ ذنبِ التّنِّينِ تنكسفُ الشَّمْسُ

٨ ـ ما يَعْتاضُهُ[3] من الارتياض بنوائب عصره، ويستفيده من الحِنْكَة[4] ببلاءِ دهرِه، فيصلبُ عودُهُ، ويستقيم عمودُهُ، ويكملُ بأدني شِدَّته ورخائه، ويتَّعظ بحالتي عفوه وبلائه.

حُكِيَ عَنْ ثعلب قال: دخلتُ على عُبَيْد الله بْنِ سليمانَ بْنِ وَهْبٍ، وعليه خِلَعُ[5] الرِّضى بعدَ النَّكْبَةِ، فلمَّا مثلتُ بَيْنَ يديه، قال لي: يا أبا العَبَّاسِ، اسمعْ ما أقولُ:

نوائبُ الدهْرِ أَدَّبتني ▫▪▫ وإنَّما يُوعَظُ الأديبُ

قَدْ ذُقْتُ حُلْواً، وذُقْتُ مُرّاً ▫▪▫ كذاك عَيْشُ الفَتَى ضُرُوبُ

لَمْ يَمْضِ بُؤسٌ، ولا نَعِيمٌ ▫▪▫ إلاَّ ولي فيهما نَصِيبُ

كذاك مَنْ صاحَبَ اللَّيالي ▫▪▫ تغدُو من درِّها الخُطُوبُ

فقلتُ: لِمَنْ هذه الأبيات؟. قال: لي.

---

(١) «لا غَرْوَ»: لا عَجَبَ.

(٢) «يُمنَى»: يُبْتَلَى.

(٣) «يعتاضُ»: يَسْتَعيضُ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ.

(٤) «الحنكة»: التَّجارب.

(٥) «الخِلَعُ»: الملابس.

٩ ـ أَنْ يختبرَ أُمُورَ زمانَهَ، ويَتَنَبَّه علـى صلاح شأنه، فلا يغترَّ برخاءٍ، ولا يطمع في استواءٍ، ولا يُؤَمِّل أنْ تبـقى الدُّنيا على حالةٍ، أو تَخْلُو مِنْ تقلُّبٍ واستـحالةٍ؛ فإنَّ مَنْ عَرَفَ الدُّنيا، وخَبَرَ أحوالِهَا، هان عليه بُؤْسُهَا ونعيمُهَا.

قال أبـو العَتَاهِيَةَ:

إنِّي رأيْتُ عَـوَاقِبَ الدُّنيـا ... فَـتَـرَكْتُ مـا أَهْوَى لِمَا أَخْـشَى

فكَّرْتُ في الدُّنيـا وعَـالِمِهَـا ... فـإذا جـمـيعُ أُمُـورِهَا تَفْنَى

وبَلَوْتُ[1] أكـثـرَ أَهْلِهَـا فـإذا ... كلُّ امْـرِئٍ في شـأنِهِ يَسْـعَى

تَعْـفُـو مَسَـاوِيهـا مَـحَـاسِنَهَـا ... لا فَـرْقَ بَيْنَ النَّعْيِ والبُـشْـرَى

ولقـدْ مَـرَرْتُ على القُـبُـورِ فـمـا ... مَـيَّـزْتُ بَيْنَ العَـبْـدِ والمَوْلَى[2]

أَتُـراكَ تَـدْرِي كَـمْ رأيْـتُ مِـنَ الأ ... حـيـاءِ، ثُمَّ رأيْتُـهُمْ مَـوْتَى؟!

فإذا ظُفِـرَ المُصَاب بأحَـدِ هذه الأسبـاب، تَخَفَّفَتْ عـنه أَحْزَانُهُ، وتَسَهَّلَـتْ عليه أَشْجَانُهُ[3]، فصار وشيكَ السَّلْوَةِ، قليلَ الجَزَعِ، حَسَنَ العزَاءِ.

قال بعضُ الحُكَماء: «مَنْ حاذَرَ لَمْ يَهلَعْ، ومَنْ راقَبَ لَمْ يَجْزَعْ، ومَنْ كان مُتَوَقِّعًا لَمْ يكُنْ مُتَوَجِّعًا».

---

(١) «بَلَوْتُ»: اختبرْتُ وجَرَّبت.

(٢) «المَوْلى»: السَّيِّد والرَّئيس.

(٣) «أَشْجَان»: جمعُ شَجَنٍ، وهو الحُزْنُ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على شُجُونٍ.

وقال بعضُ الشُّعراء:

مَـا يكونُ الأمـرُ سَـهْـلاً كُلُّهُ ⁕ إنَّمـا الدُّنيـا سُـرُورٌ وحُـزُونُ
هَوِّن الأمْـرَ تَعِشْ في رَاحَـةٍ ⁕ قَلَّ مـا هَوَّنْتَ إلاَّ سَيَهُونُ
تَطْلُبُ الرَّاحَـةَ في دارِ الفَنَا ⁕ ضَلَّ مَنْ يَطْلُبُ شيئًا لا يَكُونُ

فإنْ أغفل نفسَهُ عن دواعي السَّلْوَة، ومَنَعَها من أَسْبابِ النَّصر ـ تضاعف عليه من شِدَّةِ الأَسَى، وهَمِّ الجَزَعِ ما لا يطيقُ عليه صَبْرًا، ولا يجدُ عنه سُلُوًّا.

وقال ابنُ الرُّوميِّ:

إنَّ البـلاءَ يُطَاقُ غَـيْـرَ مُـضَـاعفٍ ⁕ فـإذا تَضَـاعفَ صَـارَ غَـيْـرَ مُطَاقِ

فإذا ساعده جَزَعُـهُ بالأسباب الباعثة عليه، وأَمَدَّهُ هَلَعُهُ بالذَّرائعِ[1] الدَّاعيةِ إليه ـ فقد سَعَى في حَتْفِهِ[2]، وأعان على تَلَفِهِ، فمِنْ أسباب ذلك:

١ ـ تذكُّرُ المُصَاب حتَّى لا يتناساهُ، وتَصَوُّرُهُ. حتَّى لا يَعزُبَ[3] عنه، ولا يجدُ من التذكار سَلْوَةً، ولا يخلطُ مع التَّصَوُّرِ تَعْزِيَةً.

وقد قال عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ ﷺ: «**لا تَسْتَفِزُّوا الدُّمُوعَ بالتَّذَكُّرِ**».

٢ ـ الأسفُ وشِدَّةُ الحَسْرَةِ، فلا يَرَى مِنْ مُصَابِهِ خَلَفًا، ولا يجدُ لمفقودِهِ بَدَلاً، فيزداد بالأسفِ وَلَهًا، وبالحَسْرَةِ هَلَعًا؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ (سورة الحديد: ٢٣).

---

(١) «الذَّرائع»: الوَسَائل، مفردها ذَريعةٌ.
(٢) «الحَتْفُ»: الموتُ، والجمعُ حُتُوفٌ.
(٣) «يَعْزُبِ»: يغيب.

وقال بعضُ الشُّعراء:

إذا بُلِيْتَ فَثِقْ باللهِ وارْضَ بِهِ ▪▪▪ إنَّ الَّذي يَكْشِفُ البَلْوَى هُوَ اللهُ

إذا قَضَى اللهُ فاسْتَسْلِمْ لقُدْرَتِهِ ▪▪▪ ما لامْرِئٍ حِيْلَةٌ[١] فيما قَضَى اللهُ

اليأسُ يقطعُ أحيانًا بصاحِبِهِ ▪▪▪ لا تيأسَنَّ؛ فإنَّ الصَّانِعَ اللهُ

٣ ـ كَثْرَةُ الشَّكْوى، وبثُّ الجَزَع.

قال حسَّانُ بْنُ أبي جبلةَ في قول الله تعالى على لسانِ نبيِّهِ يَعْقُوبَ ـ عليه السلام ـ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (سورة يوسف:١٨). قال: «لا شَكْوى فيه»[٢].

وحُكِيَ أنَّ أَعْرابيَّةً دخلتْ من البادية، فَسَمِعَتْ صُرَاخًا في دارٍ، فقالتْ: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهُمْ إنسانٌ. فقالتْ: ما أراهم إلاَّ مِنْ ربِّهم يستغيثون، وبقضائه يتبرَّمون[٣]، وعن ثوابه يَرْغَبون[٤]».

وقد قيل من منثور الحِكَم: «مَنْ ضاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لسانُهُ».

وإنَّما تُنافي الصَّبْر الشَّكْوى إلى العباد لا إلى ربِّ العِبَاد، وإلاَّ فقد قال نبيُّ اللهِ يَعْقُوبُ ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي[٥] وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة يوسف:٨٦).

---

(١) «الحيْلَة»: بمعنى القُدْرةِ هنا، والجمعُ حِيَلٌ.

(٢) «عدة الصَّابرين» (ص١٢٧).

(٣) «يتَبَرَّمون»: يَتَضَجَّرون.

(٤) «رَغِبَ عن الشَّيء»: كَرِهَهُ وتَرَكَهُ. ورَغِبَ في الشَّيءِ: أحبَّه وأَرَادَهُ.

(٥) «بَثّي»: هَمّي وغَمّي.

وأنشد بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ:

لا تُكْثِرِ الشَّكْوَى إلى الصَّدِيقِ ▫▪▫ وَارْجِعْ إلى الخالِقِ، لا المَخْلُوقِ

لا يُخْرِجُ الغَرِيْقُ بالغَرِيقِ

وقال بعضُ الشُّعَرَاء:

لا تَشْكُ دَهْرَكَ ما صَححْتَ بِهِ ▫▪▫ إنَّ الغِنَى هُوَ صِحَّةُ الجِسْمِ

هَبْكَ الخليفةَ كُنْتُ مُنْتَفِعًا ▫▪▫ بغَضَارَةِ الدُّنْيا مَعَ السَّقَمِ[(١)]

فكن - أخي - كما قال المُتَنَبِّي:

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ[(٢)] ▫▪▫ ما دامَ يَصْحَبُ فيه رُوحَكَ البَدَنُ[(٣)]

٤ - اليأس من خير مصابِهِ، ودَرْكِ طِلاَبِهِ، فيقترنُ بحُزْنِ الحادثة قُنُوطُ الإياس، فلا يَبْقَى معها صَبْرٌ، ولا يتَّسعُ لَهَا صَدْرٌ، وقد قيل: «المُصيبةُ بالصَّبر أعظمُ المُصيبتين».

وأنشد شَبيبُ بْنُ شيبةَ للمَهْدِيِّ:

وَلَئِنْ تُصِبْكَ مُصِيبةٌ فاصبرْ لَهَا ▫▪▫ عَظُمَتْ مُصِيبةُ مُبْتَلٍ لا يَصْبِرُ

وقال ابنُ الرُّوميِّ:

اصْبِري - أيَّتُهَا النَّفْسُ - فإنَّ الصَّبْرَ أَحْجَى ▫▪▫

رُبَّما خَابَ رَجَاءٌ ▫▪▫ وأتَى ما ليس يُرْجَى

(١) «السَّقَمُ»: المَرَضُ، والجمعُ أسقامُ.

(٢) «مُكْتَرِث»: مُبَال ومُهتَمّ.

(٣) يقول: لا تُبالِ الزَّمانَ وصُرُوفَهُ ما دُمْتَ حيًّا؛ فإنَّ الشِّدَّةَ والرَّخاءَ يتعقبان فيه على الحَيِّ، فلا يَأْسَ مع الحَيَاة.

وقال آخرُ:

إذا يَسَّرَ اللهُ الأُمُورَ تَيَسَّرَتْ ❊ ولانَتْ قُواها، واسْتَقادَ عَسِيرُهَا

فَكَمْ طامعٍ في حاجةٍ لا يَنالُهَا ❊ وكَمْ آيسٍ مِنْهَا أَتاهُ بَشِيرُهَا

وكَمْ خائفٍ صارَ المُخيفَ، ومُقْترٍ[1] ❊ تَمَوَّلَ[2]، والأحْداثُ يَحلُو مَرِيرُهَا

وقَدْ تغْدرُ الدُّنيا، فَيُمْسِي غَنِيُّهَا ❊ فقيراً، ويغنى بَعْدَ عُسْرٍ فقيرُهَا

وكَمْ قَدْ رأيْنا مِنْ تَكَدُّرِ عِيْشَةٍ ❊ وأُخرى صَفَا بَعْدَ انْكِدارٍ غَدِيرُهَا![3]

وأنشد بعضُ أهل العلْم:

أَتَحْسَبُ أَنَّ البُؤْسَ للحُرِّ دائمٌ؟! ❊ ولو دَامَ شيءٌ عَدَّهُ النَّاسُ في العَجَبْ

لَقَدْ عَرَّفَتْكَ الحادثَاتُ بِبُؤْسِهَا ❊ وقَدْ أَدَّبَتْ، إنْ كانَ يَنْفَعُكَ الأَدَبْ

ولو طَلَبَ الإنسانُ مِنْ صَرْفِ دَهْرِهِ[4] ❊ دَوامَ الذي يَخْشَى، لأَعْيَاهُ ما طَلَبْ

٥ ـ أَنْ يُغْرَى[5] بملاحظة مَنْ حِيطَتْ سَلاَمَتُهُ، وحُرِسَتْ نِعْمَتُهُ حتَّى التَحفَ بالأَمْنِ والدَّعَةِ[6]، واستمتعَ بالثَّروةِ والسَّعة، ويَرَى أَنَّه قَدْ خُصَّ من بَيْنِهم بالرَّزِيَّة بَعْدَ أَنْ كان مساويًا، وأُفْرِدَ بالحادثةِ بَعْدَ أنْ كان مُكَافيًا، فلا يستطيع صَبْرًا على بَلْوَى، ولا يلزمُ شُكْرًا على نُعْمَى، ولو قابل بهذه النَّظرةِ مُلاحظة مَنْ شارَكَهُ في الرَّزِيَّة، وساواه في الحادثة ـ لَتَكَافَأَ الأَمْرَانِ، فهَانَ عليه الصبْرُ، وحان منه الفَرَجُ.

---

(١) «مُقْتر»: فقير.

(٢) «تموَّل»: صَار ذا مال.

(٣) «الغَديرُ»: أصله الماءُ يجتمعُ بَعْدَ السَّيل، والجمعُ غُدْرَان.

(٤) «صَرْفُ الدَّهر»: حَوَادِثُهُ ومَصَائِبُهُ، وجمعُ صَرْفٍ صُرُوفٌ.

(٥) «يُغْرَى»: يُولَع.

(٦) «الدَّعَة»: الهُدُوء والاطمئنان.

أنشدت امرأةٌ من العَرَب:

أَيُّهـا الإنسـانُ، صَبْـراً	إنَّ بَعْـدَ العُسْـرِ يُسْـرَا
كَمْ رأيْنَـا اليـومَ حُـرّاً	لَمْ يَكُـنْ بالأمْسِ حُـرَّا
مَلَكَ الصَّبْـرَ فَأضْحَى	مالِكاً خَيْـراً وشَـرَّا
اشْـرَبِ الصَّبْـرَ، وأنْ كا	نَ مِنَ الصَّبِـرِ أمَـرَّا

وأنشد بعضُ أهل الأدب:

يَرَاعُ[1] الفَتَى للخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ	فَيَأْسَى[2]، وفي عُقْبَاهُ يَأْتي سُرُورُهُ
أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّيلَ لَمَّا تَرَاكَمَتْ	دُجَاهُ[3]، بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ ونُورُهُ
فلا تَصْحَبَنَّ اليَأسَ إنْ كنْتَ عَالِمَاً	لبِيباً، فإنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

■ **والصَّبْرُ المَشْروع له ثلاثةُ شُرُوطٍ:**

■ **الأوّل ـ الإخلاص:**

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** ﴾ (سورة الرعد: ٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ ـ يرحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «أيْ عن المحارم والمآثم، فَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عنها لله عزَّ وجلَّ ابتغاءَ مَرْضاتِهِ، وجزيلِ ثوابِهِ»[4].

---

(١) «يرَاعُ»: يفْزَع.

(٢) «يأسَى»: يَحْزَنُ.

(٣) «الدُّجَى»: جمعُ دُجْيَة، وهي الظُّلْمَةُ.

(٤) «تفسير ابن كثيرٍ» (٢/٥٠٦).

وقال العلاَّمة ابنُ سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ في تفسيرها:

«﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيَّات بالانكفافِ عنها، والبُعْدِ منها، وعلى أقدار الله المُؤْلِمَةِ بعَدَمِ تَسَخُّطِهَا.

ولكن يُشْترط أَنْ يكونَ ذلك الصَّبْرُ ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإنَّ هذا الصَّبْرَ النَّافع الَّذي يحبسُ بِهِ العَبْدُ نفسَهُ طَلَبًا لِمَرْضاة ربِّه، ورجاءً للقُرب منه، والحظوةِ بثوابِهِ، وهو الصَّبْرُ الَّذي مِنْ خَصَائص أهل الإيمان، وأمَّا الصَّبْرُ المشتركُ الذي غايتُهُ التَّجَلُّدُ، ومُنْتَهَاهُ الفَخْرُ ـ فهذا يَصْدُرُ مِنَ البَرِّ والفاجرِ، والمُؤْمنِ والكافر، فليس هو المَمْدُوحَ على الحقيقة»[1].

قال الشَّاعرُ:

وإنيَ لأُغضي[2] مُقْلَتي[3] عَلَى القَذَى	وأَلْبَسُ ثوبَ الصَّبْرِ أَبْيَضَ أَبْلَجَا
وإنِّي لأدعُو اللهَ، والأمْرُ ضَيِّقٌ	عَلَيَّ، فما يَنْفَكُّ أنْ يَتَفَرَّجَا
وكمْ مِنْ فَتَى سُدَّتْ عليه وجوهُهُ	أَصَابَ لَهَا في دَعْوَةِ اللهِ مَخْرَجا!

■ ***الثَّاني ـ عَدَم شَكْوَى الله إلى العِباد:***

شَكْوَى الله إلى العِباد تُنَافي الصَّبرَ، وتُخْرِجُهُ إلى التَّسَخُّطِ والجَزَع.

---

(١) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٤١٧).

(٢) «الإغضاء»: انطباقُ الجَفْنَيْن.

(٣) «المُقْلَة»: شَحْمَةَ العين الجامعة للبياض والسَّواد، والجمعُ: مُقَلٌ.

قال رسولُ الله ﷺ فيما يَرْويه عن ربِّه: «قال اللهُ سبحانه وتعالى: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي المؤمنَ، فلَمْ يَشْكُنِي إلى عُوَّادِهِ [١]، أَطْلَقْتُهُ مِنْ أساري، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لحمًا خيرًا مِنْ لحمِهِ، ودمًا خيرًا مِنْ دمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ» [٢].

وقال الشَّاعِرُ:

وإذا عَرَتْكَ [٣] بَلِيَّةٌ فاصبِرْ لَهَا ■ صبرَ الكريمِ، فإنَّه بِكَ أَعْلَمُ

وإذا شَكَوْتَ إلى ابْنِ آدمَ إنَّما ■ تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ [٤]

وقال المُتَنَبِّي:

ولا تَشْكُ [٥] إلى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ■ شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبانِ والرَّخَمِ [٦]

وقال آخرُ:

لا تَشْكُوَنَّ إلى صديقٍ حالةً ■ تَأْتِيكَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ

فَلَرَحْمَةُ المُتَوَجِّعِينَ مَرَارَةٌ ■ في القلبِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ

---

(١) «عُوَّاده»: زُوَّاره، والمفردُ: عائدٌ.

(٢) رواه الحاكمُ (١/ ٣٤٩)، والبيهقيُّ (٣/ ٣٧٥)، وإسنادُهُ صحيحٌ، ورجالُهُ ثقاتٌ.

(٣) «عَرَتْكَ»: أصابَتْكَ.

(٤) «تهذيب مدارج السَّالكين» (٢/ ٥٦٦).

(٥) «تَشْكُ»: مُضَارِع من التَّشكِّي، أصلُهُ تَتَشَكَّى، فحُذِفَتْ إحدى التَّاءَيْنِ تخفيفًا، ثُمَّ حُذِفَ حرف العلَّة - وهو الألف - للجازم.

(٦) «الرَّخَم»: طائر. يقول: لا تَشْكُ إلى أحدٍ ما يَنْزِلُ بك من ضرٍّ؛ لئلاَّ تُشْمِتَهُ بشكواكَ، فيكون حالُكَ كحالِ الجريح الذي يَشكُو جِراحَهُ إلى الطُّيُورِ الَّتي تَرْقُبُ موتَهُ لتأكُلَهُ.

■ الثَّالث ـ أَنْ يكونَ في ساعةِ المُصيبةِ:

الصَّبْرُ المحمود المأجور عليه صاحبُهُ ما كان في أَوَانِه[١]، أمَّا إذا فات الأَوَانُ فلا فائدةَ منه.

عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يقولُ اللهُ سبحانه: ابنُ آدمَ، إنْ صبرْتَ واحْتَسَبْتَ[٢] عندَ الصَّدْمةِ الأُولى، لَمْ أَرْضَ لكَ ثَوابًا دُونَ الجنَّة»[٣] [٤].

قال الخطَّابيُّ ـ يرحمه الله ـ:

«المعنى أنَّ الصَّبرَ الَّذي يُحْمَدُ عليه صاحبُهُ ما كان عندَ مُفَاجَأَةِ المُصِيبةِ، بخلافِ ما بَعْدَ ذلك؛ فإنَّه مع الأيَّام يسلو»[٥].

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامْرأةٍ تبكي عندَ قَبْرٍ، فقال: «اتَّقي اللهَ واصْبِري». قالتْ: «إِلَيْكَ[٦] عنِّي؛ فإنَّك لم تُصَبْ بمُصِيبتي». ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقيل لها: إنَّهُ النَّبيُّ ﷺ، فأَتَتْ بابَ النَّبيِّ ﷺ فلم تجِدْ عندَهُ بوَّابين، فقالتْ: «لَمْ أعرِفْكَ». فقال: «إنَّما الصَّبْرُ عندَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[٧].

---

(١) «أَوَانه»: وَقْته، جمعُ أَوَانٍ: آوِنَةٌ كزَمَانٍ وأَزْمِنَة.

(٢) «احتسبْتَ»: رَجوتَ ثواب صبرك على مصابك من اللهِ، وادَّخَرْتَهُ عندَهُ.

(٣) رواه ابن ماجهْ (١٥٩٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سُنن ابن ماجه» (١٥٩٧).

(٤) انظر: «تسلية أهل المَصَائب» (ص٣٦).

(٥) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).

(٦) «إليك»: اسم فعل أمر بمعنى ابتعدْ وتَنَحَّ.

(٧) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (١٢٥٢) و(١٢٨٣) و (١٣٠٢) و (٧١٥٤)، ومسلمٌ (٩٢٦).

قال أحدُ العلماء:

وَلقدْ ذَكَرْتُ اللهَ ساعةَ خَوفِهِ ▫▪▫ للبَاسلينَ مَعَ القَنَا الخطَّارِ

فَنَسِيتُ كُلَّ لَذائِذِ جَيَّاشَةٍ ▫▪▫ يَوْمَ الوَغَى[1] للواحِدِ القَهَّارِ

وقال المُتَنَبِّي:

رَمَاني الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ[2] حتَّى ▫▪▫ فُؤَادي في غِشَاءٍ[3] مِنْ نِبَالِ[4]

فَصِرْتُ إذا أَصَابَتْني سِهَامٌ ▫▪▫ تَكَسَّرَتِ النِّصالُ[5] على النِّصَالِ[6]

فَعِشْتُ ولا أُبَالي بالرَّزَايَا؛ ▫▪▫ لأني مَا انْتَفَعْتُ إنْ أُبَالي

---

(١) «الوَغَى»: الحَرْب.

(٢) «الأَرْزَاء»: المَصَائب، ومفردُها: رُزْءٌ.

(٣) «الغشاء»: الغلاَف.

(٤) «النُّبال»: السِّهامُ العربيَّة، مفردُها: نَبْلٌ.

(٥) «النِّصَال»: الحَدَائدُ الَّتي في رأس السِّهام، مفردُها نَصْلٌ، وجمعُ القلَّة له أَنْصُلٌ.

(٦) يقول: كَثُرَتْ عليَّ مَصَائبُ الدَّهرِ، حتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ قلبي موضعٌ إلاَّ أصابه سَهْمٌ منها، فصار في غلاف من السِّهام، فصرتُ بَعْدَ ذلك إذا أصابتني سهامٌ مِنْ تلك المَصَائب، لا تجدُ مَوْضعًا تنفذ منه إلى قلبي، وإنَّما تقعُ نصالُها على نِصالِ السِّهام الَّتي قَبْلَها، فتنكسرُ عليها.

الانتصار

العَفْوُ ليس محموداً مطلقًا، بل منه ما يكونُ محموداً، ومنه ما يكون مذمومًا، فيكون مذموداً إذا كان في مَحَلِّهِ، ويكون مذمومًا إذا كان في غيرِ مَحَلِّهِ، وإليك التَّفصيل:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**[(١)] (٣٩) **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**[(٢)] **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**[(٣)] (٤٠) **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**﴾ (سورة الشورى: ٣٩-٤١).

فجعل الله سبحانه وتعالى العَفْوَ مقرونًا بالإصلاح، فإذا كان العَفْوَ غَيْرَ إصلاحٍ، فالانتصارُ أفضلُ.

ويُوَضِّح الإمامُ ابنُ العَرَبِيِّ هذا التَّساؤل: «إنْ كان الباغي مُعْلِنًا بالفُجُور، وقحًا في الجُمْهُور، مُؤْذِيًا بالصَّغير والكبير ـ فيكون الانتقامُ منه أفضلَ».

---

(١) «يَنْتَصِرُونَ»: أيْ يَنْتَقِمون مِمَّنْ بَغَى عليهم، ولا يَسْتَسْلِمون لظلم المعتدي.

(٢) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾: أيْ جزاءُ العُدوان أن ينتصرَ المظلوم مِمَّن ظَلَمَهُ بِمِثْلِ عُدوانه من غير زيادة.

(٣) قال العلاَّمةُ ابنُ سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: «يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وشرط اللهُ في العَفْوِ الإصلاحَ فيه؛ ليدُلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليقُ العَفْوُ عنه، وكانت المصلحةُ الشَّرعيَّة تقتضي عُقُوبَتَهُ ـ فإنَّهُ في هذه الحال لا يكونُ مأموراً به».

ـ وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: «الَّذِيْنَ يَجْنُوْنَ على غيرهم ابتداءً، أو يُقابلون الجاني بأكثرَ مِنْ جنايتِهِ، فالزِّيادةُ ظُلْمٌ». «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص ٧٦٠).

ويصفُ الحالةَ المقتضيةَ للعَفْوِ، فيقولُ: «أنْ تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممَّنْ يَعْتَرفُ بالزَّلَّةِ، ويسألُ المغفرةَ ـ فالعَفْوُ ها هنا أفضلُ»[١].

وأَكَّدَ هذا المعنى الإمامُ الطَّبَريُّ في تفسيره، ووافقه ابنُ العَرَبيِّ في أنَّ أفضليَّةَ الانتصار تُفْهَمُ من قول إبراهيمَ النَّخَعيِّ عن السَّلَف:

«كانوا يكرهون أنْ يذلُّوا أنفسَهُم، فيجترئ عليهمُ الفُسَّاقُ»[٢].

وخصَّص العفو فيما إذا كان الجاني نادمًا مُقْلِعًا.

واستحسن القُرْطُبيُّ هذا التَّفصيلَ وأقَرَّهُ، وحَمَلَ الغُفْرَانَ على غير المُصِرِّ، وقال: «فأمَّا المُصِرُّ على البَغْيِ والظُّلمِ فالأفضل الانتصارُ منه»[٣].

وها هي أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂ تنتصرُ من أُمِّ المؤمنين زَيْنَبَ ﵂ أمامَ رسول الله ﷺ لَمَّا شَعَرَتْ أنَّ رسول الله ﷺ يُقِرُّها على هذا الانتصار.

عن عائشةَ ﵂ قالتْ: **أرسل أزواجُ النَّبيِّ ﷺ فاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فاسْتَأْذَنَتْ عليه، وهو مُضْطَجِعٌ مَعِيَ في مِرْطي[٤] فَأَذِنَ لَهَا، فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ أزواجَكَ أَرْسَلْنَني إليك، يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ[٥] في ابْنَةِ أبي قُحَافَةَ. وأنا ساكتةٌ، قالتْ: فقال لها**

---

(١) «تفسير القُرطُبيِّ» (١٦/ ٣٩).
(٢) رواه البخاريُّ.
(٣) «تفسير القُرطُبيِّ» (١٦/ ٣٩).
(٤) «المِرْطُ»: واحد المُرُوط، وهي أكْسِية من صُوف أو خزٍّ ـ أي: حرير ـ كان يُؤْتَزَرُ بها.
(٥) قال بعضُ العلماء: أي يَطْلُبْنَ منك العَدْلَ في المحبَّة القَلْبيَّة، إذْ كُنَّ يَشْعُرْنَ أنَّ لها في قلبه منزلةً ليستْ لغيرها، وكُنَّ يَرَيْنَ هَدَايا النَّاسِ تأتي حينَ يكونُ في بيت عائشةَ.

رسولُ اللهِ ﷺ: «أي بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ؟». فقالتْ: «بلى». قال: «فأحِبِّي هذه». قالتْ: فقامتْ فاطمةُ حينَ سَمِعَتْ ذلك مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، فرَجَعَتْ إلى أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، فأخبَرَتْهُنَّ بالذي قالتْ، وبالذي قال لها رسولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَ لها: «ما نَراكِ أغْنَيْتِ عنَّا مِنْ شيءٍ، فارْجعي إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقولي له: «إنَّ أزواجَكَ يَنْشُدْنَكَ العَدْلَ في ابنةِ أبي قُحافةَ». فقالتْ فاطمةُ: «واللهِ، لا أُكلِّمُهُ أبداً».

قالتْ عائشةُ ﵂: فأرسل أزواجُ النَّبيِّ ﷺ زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ زوجَ النَّبيِّ ﷺ، وهي التي كانتْ تُسَامِيني[1] مِنْهُنَّ في المنزلةِ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدِّينِ من زَيْنَبَ، وأتْقَى للهِ، وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ الرَّحِمِ، وأعظمَ صَدَقةً، وأشدَّ ابْتِذالاً لنَفْسِها في العملِ الذي تَصَدَّقُ به، وتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالى، ما عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ[2] كانتْ فيها، تُسْرِعُ منها الفَيْئَةَ[3]، قالتْ: فاستأذنتْ على رسولِ اللهِ ﷺ، ورسولُ اللهِ ﷺ مَعَ عائشةَ على الحالِ التي دَخَلَتْ فاطمةُ عليها وهو بها، فأذِنَ لَهَا رسولُ اللهِ ﷺ، فقالتْ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ أزواجَكَ أرسَلْنَني إليك، يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ في ابْنَةِ أبي قُحافَةَ». قالتْ: ثُمَّ وَقَعَتْ بي[4]، فاستطالتْ عليَّ، وأنا أرْقُبُ رسولَ اللهِ ﷺ، وأرْقُبُ طَرْفَهُ[5]، هَلْ يأْذَنُ لي فيها.

---

(١) «تُسَامِيني»: أيْ تُعادِلُني وتُضاهيني في الحُظْوة والمنزلةِ الرَّفيعةِ، مأخوذٌ من السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ والارتفاعُ.

(٢) «سَوْرَة من حِدَّة»: هي شِدَّةُ الخُلُقِ وثَوَرانه.

(٣) «الفَيْئة»: الرُّجُوع مصدر فَاءَ يَفيءُ. ومعنى الكلام: أنَّها كاملةُ الأوصاف إلاَّ أنَّ فيها شِدَّةَ خُلُقٍ، وسرعةَ غَضَبٍ، تُسْرِعُ منها الرُّجوع، أي إذا وقع ذلك منها رَجَعَتْ عنه سريعًا، ولا تُصِرُّ عليه. وفي كلام عائشة ﵂ أدبُ النُّبُوَّة، فمع مُبَادأتِها بالسِّبَاب لم تتجاوزْ حدَّ العدلِ، ولمْ تغمطْها حقَّها.

(٤) «وَقَعَتْ بي»: نالتْ منِّي.

(٥) «الطَّرْفُ»: تحريكُ الجَفْنِ، أو تَحْرِيكُ العَيْنِ.

قالتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حتَّى عَرَفْتُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَكْرَهُ أنْ أنْتَصِرَ. قالتْ: فلمَّا وَقَعْتُ بها لَمْ أَنْشَبْهَا[١] حِيْنَ[٢] أَنْحَيْتُ عليها[٣]. قالتْ: فقال رسولُ اللهِ ﷺ وتَبَسَّمَ: «إنَّها ابْنَةُ أبي بَكْرٍ»[٤].

■ لابُدَّ مِنْ مُرَاعاةِ المصالح والمفاسد:

أَيْ أخي في اللهِ، اعلمْ - علَّمني اللهُ وإيَّاكَ! - أنَّ بعضَ انتصارِكَ من أخيك المسيءِ إليك قد يزيدُ الشَّرَّ، فقدِّرْ المصالحَ والمفاسدَ بقَدْرِها، فإذا عَلِمْتَ أنَّ انتصارَكَ سوف يَجْعَلُهُ يعودُ إلى رُشْدِهِ، ويقمعُ شَرَّهُ، فانتصرْ منه، وإلاَّ فعليك أنْ تَسُدَّ أبوابَ الشَّيطان.

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: أنَّ رجلاً كان يَسُبُّ أبا بَكْرٍ فآذاهُ، فَصَمَتَ عنه أبو بَكْرٍ، ثُمَّ آذاهُ الثَّانيةَ، فَصَمَتَ عنه أبو بَكْرٍ، ثُمَّ آذاهُ الثَّالثةَ، فانْتصرَ منه أبو بَكْرٍ، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ انْتَصَرَ أبو بَكْرٍ، فقال أبو بكرٍ: «أَوَجَدْتَ عليَّ[٥]، يا رسولَ اللهِ؟!». فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّماءِ يُكَذِّبُهُ بما قال لك، فلمَّا انْتصرْتَ وَقَعَ الشَّيطانُ، فَلَمْ أَكُنْ لأجلسَ إذْ وَقَعَ الشَّيطانُ»[٦].

---

(١) «لم أَنْشَبْهَا»: لَمْ أُمْهِلْهَا.

(٢) في بعض النُّسخ (حتَّى) بدل (حين)، وكلاهما صحيحٌ.

(٣) «أنحيْتُ عليها»: قَصَدْتُها واعتمدْتُها بالمُعَارضة.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٤٤٢).

(٥) «وَجَدَ»: وَجَدَ الشَّيْءَ: أصابه، و«وَجَدَ المالَ»: اسْتَغْنَى به، و«وَجَدَ عليه»: غَضِبَ، و«وَجَدَ له»: حَزِنَ عليه، و«وَجَدَ بفُلانٍ»: أحبَّه حبّاً قَوِيّاً.

(٦) رواه أبو داودَ (٤٨٩٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٦٧٥٨)، و«الصَّحيحة» (٢٣٧٦).

قال الخَطَّابيُّ ـ يرحمه الله ـ في شرح هذا الحديث:

«إنَّما وَقَعَ الشَّيطانُ حِينَ انتصر أبو بَكْرٍ؛ فإنَّ انتصارَهُ يُغري صاحِبَهُ، سيَّما وقَدْ بَدَا الشَّرُّ منه بتكَرُّرِ الإساءة بالتَّزيد والتَّمادي، فيكون ذلك سببًا في تفاقُمِ الخَطْبِ»[(١)].

قال الشَّاعرُ:

أنَّا لَقَومٌ أَبَتْ[(٢)] أَخْلاَقُنا ـ شَرَفًا ـ ۞ أَنْ نَبْتَدي بالأذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِيْنَا

بِيْضٌ صَنَائِعُنا[(٣)]، سُودٌ وَقَائِعُنا[(٤)] ۞ خُضْرٌ مَرَابِعُنا[(٥)]، حُمْرٌ مَوَاضِيْنَا[(٦)]

■ *فائِدةٌ مُهِمَّةٌ تتعلَّق بالانتصار:*

قال العلاَّمةُ محمَّدُ بْنُ صالحِ العُثَيْمين ـ يرحمه الله ـ:

«وإنِّني بهذه المُناسبةِ أَوَدُّ أنْ أُنبِّهَ على مسألةٍ يفعلُها كثيرٌ من النَّاس بقصد الإحسان، وهي: أنْ تقعَ حادثةٌ من شَخْصٍ، فيَهْلكُ بسببها شَخْصٌ آخرُ، فيأتي أولياءُ المقتولِ، فيسقطون الدِّيَةَ عن هذا الجاني الَّذي فعل الحادث، فهل إسقاطهم للدِّيَة محمودٌ، وتعتبر من حُسْنِ الخُلُق، أَمْ في ذلك تفصيلٌ؟».

---

(١) «شرح سُنن أبي داودَ معالم السُّنن» للخَطَّابيِّ (٥/ ٢٠٤).

(٢) «أَبَتْ»: كَرِهَتْ ورَفَضَتْ.

(٣) «الصَّنائعُ»: جمع صنيعةٍ، وهي النِّعمة والإحسان.

(٤) «الوقائع»: جمع وقيعةٍ، وهي المعركة.

(٥) «المَرَابعُ»: جمع مربعٍ، وهو المنزل والدَّار.

(٦) «المَوَاضي»: السُّيوفُ القاطعةُ.

في ذلك تفصيلٌ، فلابُدَّ أنْ نتأمَّلَ ونُفكِّرَ في حال الجاني الذي وقع منه الحادثُ، هل هو من النَّاس المعروفين بالتَّهوُّر، وعَدَمِ المُبالاة؟، هل هو من الطِّراز[1] الذي يقول: أنا لا أُبالي أنْ أدهسَ شَخْصًا؛ لأنَّ دِيَتَهُ في الدُّرْج[2] ـ والعِياذُ بالله ـ؟.

أم أنَّهُ رجلٌ حَصَلَتْ منه هذه الحادثةُ مع كمالِ التَّعقُّل، وكمال الاتِّزان، ولكنَّ الله قد جعل لكُلِّ شيْءٍ مقدرًا؟.

وإن كان من هذا الطِّراز الأخير، فالعَفْوُ في حقِّه أَوْلَى، ولكِنَ حتَّى وإنْ كان من هذا الطِّراز المتعقِّل المتَّزن ـ يجب قَبْلَ أنْ تَعْفُوَ عنه أنْ ننظرَ هل على الميِّت دَيْنٌ؟، فإذا كان على الميِّت دَيْنٌ، فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ تعْفُوَ، ولو عَفَوْنا فإنَّ عَفْوَنا لا يُعْتَبَرُ، وهذه مسألةٌ رُبَّما يغفلُ عنها كثيرٌ من النَّاس، ونحنُ نقولُ ذلك؛ لأنَّ الوَرَثَةَ يتلقَّون الاستحقاقَ لهذه الدِّيَةِ من الميِّت الذي أُصيبَ بالحادث، ولا يردُ استحقاقُهم إلاَّ بَعْدَ قضاء الدَّيْنِ، إنْ كان الميِّتُ مَدينًا، ولهذا لَمَّا ذكر الميراثَ قال: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ (سورة النساء: ١١).[3]

▪ فـائـدة:

قد يكون الرَّجلُ مَغْلُوبًا على أمره[4]، فهذا عليه أنْ يتأسَّى بنُوحٍ ـ عليه السلام ـ، فحينَما عجز عن قومِهِ، توجَّه بالدُّعاء إلى ربِّه، قال الله تعالى حاكيًا عنه: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**﴾ (سورة القمر: ١٠).

---

(١) «الطِّراز»: النَّوع والنَّموذج، والجمعُ أَطْرِزةٌ وطُرُزٌ.
(٢) «الدُّرْج»: الخزَانة، جمعه درَجَةٌ، وأَدْراجٌ، ودُرُوجٌ.
(٣) «مكارم الأَخْلاق» لابن عُثَيمين (ص٢٨).
(٤) «مَغْلُوبًا على أمره»: أي غير قادرٍ على الانتصار ممَّن ظَلَمَهُ.

فهذا ـ لَعَمْري ـ أعظمُ الانتصار، فالرَّجلُ المغلوبُ على أمره ينصرهُ اللهُ، ألاَ ترى كيف استجاب اللهُ دعاء نوحٍ، فآتاهُ سُؤْلَهُ بأنِ انتصر له من قومه، قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1] ﴾ (سورة القمر: ١١-١٣).

فدعوة المظلومِ ليس بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ سترٌ أو تأخيرٌ.

عن أَنَسِ بْنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا دعوةَ المظلوم، وإنْ كان كافراً[2]؛ فإنَّه ليس دُونَها حِجَابٌ**»[3].

وعن خُزَيمةَ بن ثابتٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**اتَّقُوا دعوةَ المظلومِ؛ فإنَّها تُحْمَلُ على الغَمَامِ، يقولُ اللهُ: وَعِزَّتي وَجَلالي، لأنْصُرَنَّكِ ولو بَعْدَ حِينٍ**»[4].

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا دعوةَ المظلومِ؛ فإنَّها تَصْعَدُ إلى السَّماءِ كأنَّها شرارةٌ**»[5].

---

(١) «الدُّسُرُ»: المسامير، واحدُها دِسارٌ، ويقالُ دسيرٌ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ ـ يرحمه الله ـ: «فليس كُلُّ مَنْ متَّعَهُ اللهُ برزق ونَصْرٍ ـ إمَّا إجابةً لدُعائه، وإمَّا بدون ذلك ـ يكونُ ممَّن يحبُّهُ اللهُ ويُوَالِيه، بل هو سبحانه يرزقُ المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، وقد يُجيبُ دُعاءَهُمْ، ويُعْطيهم سُؤْلَهُمْ في الدُّنيا، وما لهم في الآخرةِ مِنْ خَلَاقٍ». «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٤١٣).

(٣) رواه أحمدُ في «المسند» (٣/ ١٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١١٩)، و«الصَّحيحة» (٧٦٧).

(٤) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع»، و«الصَّحيحة» (٨٦٨).

(٥) رواه الحاكمُ في «المستدرك» (١/ ٢٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١١٨)، و«الصَّحيحة» (٨٧١).

الإنصاف

الإنصافُ خَصْلَةٌ شريفةٌ، وخَلَّةٌ كريمةٌ، يدلُّ على نفسٍ مطمئنَّة، وأُفْق واسعٍ، ونَظَرٍ في العَوَاقب بعيدٍ.

ويُعَرَّفُ بأنَّه: استيفاءُ الحُقُوقِ لأربابها[١]، واستخراجها بالأيدي العادلة، والسِّيَاسة الفاضلة.

وقال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ في إنصاف النَّاس:

«أن تؤدِّيَ حقوقَهم، وألاَّ تُطالبَهُمْ بما ليس لك، وألاَّ تَحْمِلَهُمْ فوقَ وُسْعِهِم، وأنْ تُعامِلَهُم بما تُحبُّ أنْ يُعَامِلُوك به، وأنْ تعفوهم ممَّا تحبُّ أنْ يَعْفُوك منه، وأنْ تحكمَ لهم أو عليهم بما تحكم به لنَفْسكَ أو عليها»[٢].

والإنصاف والعَدْل تَوْءَمان، نتيجتهما عُلُوُّ الهمَّةِ، وبراءةُ الذِّمَّة باكتساب الفضائل، واجتناب الرَّذائل[٣].

وقد أَمَرَنَا اللهُ سبحانه وتعالى بالإنصاف، ونَهَى أنْ يَحْمِلَنَا بُغْضُنا للكُفَّار على عَدَمِ الإنصاف، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة المائدة: ٨).

---

(١) «أرْباب»: أصحاب، مفرد رَبٌّ.
(٢) «زاد المعاد» (٢/٧ ٤٠) بتصرُّف.
(٣) «التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف» للمناوي (ص٦٤).

قال شيخ الإسلام ـ يرحمه الله ـ:

«فَنَهَى أنْ يحملَ المؤمنين بُغْضُهُمْ للكفَّار عَلَى ألاَّ يَعْدِلُوا، فكيف إذا كان البغضُ لفاسقٍ، أو مبتدعٍ، أو متأوِّلٍ من أهل الإيمان؟!، فهو أولى أنْ يجبَ عليه ألاَّ يحمله ذلك على ألاَّ يعدلَ على مؤمنٍ، وإنْ كان ظالمًا له»[١].

وقال ابنُ كثيرٍ ـ يرحمه الله ـ في تفسير هذه الآية:

«أيْ لا يحملَنَّكم بغضُ قومٍ على تركِ العدلِ؛ فإنَّ العدلَ واجبٌ على كُلِّ أحدٍ في كُلِّ أحدٍ في كُلِّ حالٍ، وقد قال بعضُ السَّلَف: ما عاملْتَ مَنْ عَصَى اللهَ فيك بمثلِ أنْ تطيعَ اللهَ فيه»[٢].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا**﴾ (سورة المائدة: ٢).

قال أبو عبيدٍ والفرَّاءُ: «أيْ لا يكسبَنَّكُمْ بُغْضُ قومٍ أنْ تعتدوا[٣] الحَقَّ إلى الباطلِ، والعدلَ إلى الظُّلمِ»[٤].

فما أجملَ أنْ يتحلَّى المَرْءُ بالإنصاف!، فهو مِنْ صفات الرَّبَّانِيِّينَ الذين لا يرجون إلاَّ الحقَّ.

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٨).

(٢) «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ» (٢/ ٧).

(٣) «تعتدوا»: تتجاوزا.

(٤) «تفسير القُرْطُبِيِّ» (٦/ ٤٥).

قال ابن القيِّم ـ يرحمه الله ـ:

وَتَعَرَّ مِنْ ثَوبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْهُمَا ❁ يَلْقَ الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وهَوَانِ[1]

ثوب مِنَ الجَهْلِ المُركَّب فَوقَهُ ❁ ثوبُ التَّعَصُّبِ، بِئْسَتِ الثَّوبانِ

وتَحَلَّ بالإنصافِ أفخرِ حُلَّةٍ ❁ زِيْنَتْ بها الأعطافُ[2] والكَتِفانِ[3]

ومن إنصاف العباد إنصافهم في الأموال والمعاملات، والحُجَجِ والمقالات، وقد عاب اللهُ سبحانه وتعالى الذين يبخسون النَّاسَ أشياءَهم، وأوعدهم بالخسار والهلاك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (سورة المطففين»: ١-٣).

قال العلاَّمة ابن سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ:

«دلَّت الآيةُ الكريمةُ على أنَّ الإنسانَ كما يأخذ من النَّاس الذي له، يجب عليه أنْ يُعْطيَهم كُلَّ ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عُمُومِ هذا الحُجَجُ والمقالات، فإنَّه كما أنَّ المتناظِرَيْنَ قَدْ جرَتِ العادةُ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يحرص على ما له من الحُجَجِ، فيجب عليه ـ أيضًا ـ أنْ يُبيِّنَ ما لخَصْمِهِ من الحُجَجِ التي لا يعلمُهَا، وأنْ ينظرَ في أَدِلَّة خَصْمِهِ كما ينظرُ في أَدِلَّتِهِ هو، وفي هذا الموضع يُعْرَفُ إنصافُ الإنسان من تَعَصُّبِهِ واعتسافِهِ[4]، وتَوَاضُعُهُ من كِبْرِهِ، وعَقْلُهُ من سَفَهِهِ»[5].

---

(١) «الهَوَان»: الخِزْيُ والعَارُ.

(٢) «الأعطافُ»: جمعُ عِطْفٍ، وهو الجانب.

(٣) «نُونيَّة ابن القيِّم» بشرحِ هراسٍ (١/ ٥٢).

(٤) «الاعتسافُ»: أشدُّ الظُّلم.

(٥) «تفسير ابن سَعْديٍّ» (ص٩١٥).

ومن الإنصاف ـ أيضًا ـ قبولُ الحقِّ من كُلِّ مَنْ قاله، كائنًا مَنْ كان، حتَّى من المبتدع بل ومنَ الكافر؛ لأنَّه إنْ ردَّ قولَهُ فقد ردَّ الحَقَّ.

أَلاَ ترى أنَّ ملكةَ سبإٍ في حالِ كونها تسجدُ للشَّمْسِ من دُوْنِ اللهِ هي وقَوْمُهَا، لَمَّا قالتْ كلامًا حقًّا صدَّقَها اللهُ فيه، ولم يكن كُفْرُها مانعًا من تصديقِها في الحقِّ الذي قالتْهُ، وذلك في قولِها فيما حكَى اللهُ عنها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قال القُرطبيُّ ـ يرحمه الله ـ:

«أيْ أهَانُوا شُرَفَاءَهَا؛ لتستقيم لهُمُ الأمور، فصدَّق اللهُ قولَها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٣٤).

قال ابنُ الأنباريِّ ـ يرحمه الله ـ: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هنا وَقْفٌ تامٌّ، فقال اللهُ سبحانه وتعالى: تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾»[1].

وعَنْ قتيلةَ بنتِ صَيْفيٍّ الجُهَيْنِيَّةِ قالتْ: أَتَى حبْرٌ من الأحبار رسولَ الله ﷺ فقال: «يا محمَّدُ، نِعْمَ القومُ أنتم، لَوْلاَ أنَّكم تُشْرِكون!». فقال رسولُ الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله، وما ذَاكَ؟!». قال: «تقولون إذا حَلَفْتُمْ: والكَعْبَةِ!». قالتْ: فأمهلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا، ثُمَّ قال: «إنَّهُ قَدْ قال، فمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ برَبِّ الكَعْبَةِ». قال: «يا محمَّدُ، نِعْمَ القومُ أنتم، لولا أنَّكم تجعلون لله نِدًّا[2]!»:

(١) «تفسير القُرْطبيِّ» (١٣/ ١٧٤).
(٢) «النِّدُّ»: المثيلُ والضَّريب، والجمعُ: أَنْدَادٌ.

قال: «سُبْحَانَ اللهِ، وما ذاكَ؟!». قال: «تقولون: ما شَاءَ اللهُ وشئْتُ». قالتْ: فأمهل رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً، ثُمَّ قال: «إنَّهُ قدْ قال، فمَنْ قال: ما شاء اللهُ، فَلْيَفْصِلْ بيْنَهُما ثُمَّ شئتُ»[(١)].

وما أجمل قول الشَّاعرِ:

لا تَحْقِرَنَّ الرَّأيَ وهو موافقٌ ◘■◘ حُكْمَ الصَّوابِ، إذا أتى مِنْ نَاقِصِ

فالدُّرُّ ـ وهو أعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى ـ ◘■◘ ما حَطَّ قيمتَهُ هَوَانُ الغائِصِ

وجاء في قصَّة أبي هُرَيْرَةَ مع الشَّيطان الذي أراد أنْ يسرقَ من طعام الزَّكاة، فأمسكه ثُمَّ أطْلَقه، ثُمَّ قال له في الثَّالثة: «لأرْفَعَنَّكَ إلى رسول اللهِ ﷺ، وهذا آخرُ ثلاثِ مَرَّاتٍ، أنَّكَ تَزْعُمُ لا تعودُ، ثُمَّ تعودُ». قال: «دَعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بها». قلتُ: «ما هُنَّ؟». قال: «إذا أوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ، فاقْرأْ آيةَ الكُرسيِّ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥). حتَّى تَخْتِمَ الآيةَ؛ فإنَّك لنْ يزالَ عليك مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصبحَ». قال أبو هُرَيْرَةَ: «فخلَّيْتُ سبيلَهُ، فأصبحتُ، فقال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «ما فَعَلَ أسيرُك البارحةَ[(٢)]؟». قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، زَعَمَ أنَّه يُعَلِّمُني كلماتٍ يَنْفَعُني اللهُ بها، فخلَّيْتُ سبيلَهُ». قال: «ما هِيَ؟». قلتُ قال لي: «إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ، فاقْرأْ آيةَ الكُرسيِّ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾. وقال لي: لَنْ يزالَ عليك مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصبحَ ـ وكانوا أحرص شيءٍ على الخير ـ فقال النَّبيُّ ﷺ: «أمَا أنَّهُ قدْ صدَقَكَ وهو كَذُوبٌ، تعلَمُ مَنْ تُخاطبُ مُنْذُ ثلاثِ ليالٍ، يا أبا هُرَيْرَةَ؟!». قال: «لا». قال: «ذَاكَ شيطانٌ!»[(٣)].

---

(١) رواه أحمدُ (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والحاكمُ (٤/ ٢٩٧)، وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢١٤)، و«الصَّحيحة» (١٣٦).

(٢) «البارحة»: اللَّيلة الماضية.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٣١١) و (٣٢٧٥) و (٥٠١٠).

وفي هذا الباب يقول شيخُ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ ـ يرحمه الله ـ:

«واللهُ أمرَنا ألاَّ نقـولَ عليه إلاَّ الحَقَّ، وألاَّ نقـولَ عليه إلاَّ بعلمٍ، وأمـرَنا بالعدل والقسط، فلا يجوزُ إذا قال يهوديٌّ أو نَصْرانـيٌّ ـ فضلاً عن الرَّافضيِّ ـ قولاً فيه حقٌّ ـ أنْ نتركَهُ، أو نَرُدَّهُ كُلَّهُ بل لا نردّ إلاَّ ما فيه من الباطل دونَ ما فيه من الحقِّ»[1].

وما أجملَ ما قاله الشَّاعرُ عبدُ الكريم العماد ـ حفظه اللهُ ـ:

أَنْصِفْ وإنْ كُنْتَ ذا جـاهٍ ومـرتبـةٍ ... وَعُدْ إلى الحَقِّ مَهْمَا كُنْتَ مُقْتَدِرَا

فَـمَنْ تَكَبَّـرَ في حَقٍّ أُهِينَ بِهِ ... ومَنْ تَوَاضَعَ في حَقٍّ فقد كَبُرَا

وقال الآخـرُ:

ولَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإنصـافِ قـاطعـةً ... بَيْنَ الرِّجـالِ، وإنْ كـانوا ذَوي رَحِمِ

(١) «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (٢/ ٣٤٢).

المُدَاراةُ

المُدَاراةُ دليلٌ على كمال العقلِ، وحُسْنِ الخُلُقِ، ومتانةِ الدِّين، بها ينالُ المَرْءُ سبيلَ الرَّاحةِ في الدُّنيا، والأجرَ والثَّوابَ في الآخرة، ولابُدَّ منها في الحياة لاتِّقاء شرِّ الأشرار، ودوامِ معاشرة الأخيار والفَرْقُ بَيْنَ المُداراة والمُداهنة: أنَّ المُداراةَ بَذْلُ الدُّنيا لصلاحِ الدُّنيا، أو الدِّين، أو هما معًا، وهي مُباحةٌ، وربَّما استُحِبَّتْ. والمُداهنة تَرْكُ الدِّين لصلاح الدُّنيا، فهي مُحَرَّمةٌ.

فالمُداراةُ ـ إذًا ـ إنَّما تكون في أمور الدُّنيا فقط.

وتُعَرَّفُ المُداراةُ بأنَّها: المُلاينة والمُلاطفة، وأصلُها المُخاتلةُ، ومنه الدِّرايةُ، وهو العلمُ مع تكلُّفٍ وحيلةٍ[١].

وقال ابنُ بطَّالٍ ـ يرحمه الله ـ:

«المُداراة: خَفْضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ، ولِيْنُ الكلامِ، وتَرْكُ الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسبابِ الأُلْفَةِ»[٢].

وقال ابنُ حَجَرٍ ـ يرحمه الله ـ:

«المُدَاراةُ: الدَّفْعُ برفْقٍ»[٣].

---

(١) «التوقيف على مهمَّات التَّعاريف» للمناوي (ص٣٠١).
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٥).
(٣) المرجع السَّابق (١٠/ ٥٢٨).

والمُداراة لابُدَّ منها في الحياة؛ وذلك لأنَّ النَّاسِ لهم طبائعُ مُختلفةٌ، هي أشبهُ ما تكونُ ببصَمْةِ اليَدِ.

وقال ابنْ حبَّانَ ـ يرحمه الله ـ:

«الواجبُ على العاقلِ أنْ يُدَارِيَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجلِ السَّابحِ في الماءِ الجاري، ومَنْ ذهب إلى عِشْرَةِ النَّاسِ من حيثُ هُو، كدَّر على نفسِهِ عيشَهُ، ولم تصفُ له مَوَدَّتُهم؛ لأنَّ ودادَ النَّاس لا يُسْتَجْلَبُ إلاَّ بمُسَاعدتهم على ما هُم عليه، إلاَّ أنْ يكونَ مأثمًا، فإذا كانتْ حالةُ معصيةٍ، فلا سمع ولا طاعة، والبَشَرُ قَدْ رُكِّبَ فيهم أهواءٌ مختلفةٌ، وطبائعُ مُتباينةٌ، فكما يَشُقُّ عليك تَرْكُ ما جُبِلْتَ عليه، فكذلك يَشُقُّ على غيرِكَ مُجانبةُ مثله، فليس إلى صَفْوِ ودَادِهِم سبيلٌ إلاَّ بمعاشرتهم من حيثُ هم، والإغضاء[1] عن مخالفتهم في كُلِّ الأوقات، إذْ أنَّ مَنْ لم يُعاشِرِ النَّاسَ على لُزُومِ الإغضاءِ عمَّا يأتون من المكروهِ، وتركِ التَّوقُّع لما يأتون من المحبوب ـ كان إلى تكديرِ عيشِهِ أقربَ منه إلى صفائه، وإلى أنْ يدفعَهُ الوقت إلى العَدَاوة والبغضاء أقربَ منه إلى أنْ ينالَ منهُمُ الودادَ وتَرْكَ الشَّحْنَاءِ، ومَنْ لم يُدَارِ صديقَ السُّوءِ، كما يُدَاري صديقَ الصِّدْقِ ـ ليس بحازمٍ، ولقدْ أحسنَ الذي يقولُ:

تجنَّبْ صديقَ السُّوءِ، واصرِمْ[2] حِبَالَهُ ▫▪▫ وإنْ لَمْ تجدْ مَحِيصًا[3] فَدَارِهِ

وأَحْبِبْ حبايبَ الصِّدْقِ، واحذَرْ مِرَاءَهُ ▫▪▫ تَنَلْ منْهُ صَفْوَ الوُدِّ ما لَمْ تُمَارِهِ

---

(١) «الإغضاء»: التَّغافُل.

(٢) «اصْرِمْ»: اقطعْ.

(٣) «مَحِيصًا»: مَفَرًّا.

وذلك لأنَّه إذا كان كُلَّما رأى من أحدٍ زَلَّةً رَفَضَهُ لزلَّته، بَقِيَ وحيدًا لا يجد مَنْ يعاشره، وفريدًا لا يجدُ مَنْ يُخَادِنُ، بل يُغْضي على الأخِ الصَّادقِ زَلاَّتِه، ولا يُناقِش الصَّديقَ السَّيِّئَ على عَثَراتِهِ، وقد قال منصورُ بن محمَّدٍ الكريزيُّ:

أُغَمِّضُ عيني عَنْ صَديقي كأنَّني ... لَدَيْهِ بما يأتي مِنَ القُبْحِ جاهلُ
ومالي جَهْلٌ غَيْرَ أنَّ خَليقتي ... تُطيقُ احتمالَ الكُرْهِ فيما أُحاوِلُ
مَتَى ما يَرِبْني[1] مِفْصَلٌ فقطعتُهُ ... بَقِيتُ ومالي في نُهُوضي مَفاصِلُ
ولكنْ أُداريهِ، وإنْ صَحَّ شَدَّني ... فإنْ هو أعيا كان فيه تَحامُلُ[2]

ولله دَرُّ بشَّار بن بُرْدٍ حين قال:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعاتِبًا ... صديقَك، لَمْ تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ
وإنْ أنتَ لم تَشْرَبْ مِرارًا على القَذَى ... ظَمِئْتَ، وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟!
فَعِشْ واحدًا، أوصِلْ أخاك، فإنَّهُ ... مُقارِفُ[3] ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ[4]

فالزم ـ أخي في الله ـ غرز المُداراة؛ فإنَّها من أخلاق المؤمنين.

عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: استأذَنَ على النَّبيِّ ﷺ رجلٌ، فقال: «ائْذَنُوا له، فَبِئْسَ ابنُ العشيرةِ[5] ـ أو «بِئْسَ أخو العَشِيرةِ» ـ». فلمَّا دخلَ ألانَ له الكلامَ، فقلتُ له: «يا رسولَ الله،

---

(١) «رابَهُ الشَّيْءُ»: رأى منه ما يَكْرَهُ ويقلق له.

(٢) «روضة العقلاء» (ص٧٢ -٧٣) بتصرّف.

(٣) «مُقارِفُ»: ذَنْب: مُرْتكبُه.

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

(٥) «العشيرة»: القبيلة، أي بِئْسَ هذا الرَّجلُ منها.

قلتَ له ما قلتَ، ثمَّ ألَنْتَ له في القولْ؟!». فقال: «أيْ عائشةُ، إنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْزلةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ مَنْ تَركَهُ ـ أو **«وَدَعَهُ» ـ النَّاسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ»**[١].

قال ابنُ بَطَّالٍ ـ يرحمه الله ـ:

«المُداراةُ من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الأُلْفَة بَيْنَهُمْ، فإنْ قال بعضُهم: إنَّ المُدَاراةَ هي المُدَاهَنَةُ، وهذا غلطٌ؛ لأنَّ المُداراة مندوبٌ إليها، والمُداهَنةُ مُحرَّمةٌ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أنَّ المُداهنة من الدِّهان، والذي يُظْهِرُ الشَّيْءَ، ويَسْتُرُ باطنَهُ، وقَدْ فسَّرها العلماءُ بأنَّها: مُعاشرةُ الفاسق في النَّهْي عن فعله، وتَرْكُ الإغلاظِ عليه حيثُ لا يظهرُ ما هو فيه، والإنكارُ عليه بلُطْفِ القولِ والفعلِ، ولا سِيَّما إذا احْتِيجَ إلى تَأْليفهِ»[٢].

وقال الخطَّابي ـ يرحمه الله ـ:

ما دُمْتَ حيّاً فَدارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فإنَّما أنتَ في دَارِ المُدَارَاتِ
مَنْ يَدْرِ دَارَى، ومَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى ... عمَّا قليلٍ نَديمًا للنَّدامَاتِ[٣]

وعلى هذا الخُلُقِ العظيمِ سار سَلَفُنا الصَّالحُ، فكانوا يُدَارون ما لابُدَّ لهم من معاشرته، أو احتاجوا إلى تأليفه.

قال معاويةُ ﷺ: **«لَوْ أنَّ بَيْنِي وبَيْنَ النَّاسِ شعرةً ما انقطعَتْ»**. قيل: «وكيف؟!». قال: **«لأنَّهم أنْ مدُّوها خلَّيْتُها، وإنْ خلَّوْا مَدَدْتُها»**[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٣٢). و (٦٠٥٤) و (٦١٣١)، ومسلمٌ (٢٥٩١).
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٥).
(٣) «الآداب الشَّرعية» (١/ ٥٤).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٧٢).

وقال أبو الدَّرْداءِ لأُمِّ الدَّرْداءِ رضي الله عنهما: «إذا غَضِبْتُ فَرَضِّيني، وإذا غَضِبْتِ رَضَّيْتُكِ، فإذا لم يكنْ هذا، ما أَسرع ما نَفْترقُ»(١).

وقال الحَسَنُ البصْريُّ ـ يرحمه الله ـ:

«وكانوا يقولون: المُداراةُ نِصْفُ العَقْلِ، وأنَا أقولُ: هي العَقْلُ كُلُّه»(٢).

قال الإمامُ الشَّافعيُّ:

«وَأَنْزَلَني طُولُ النَّوى(٣) دارَ غُربةٍ ... إذا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرأً لا أُشاكِلُه(٤)
فَحامَقْتُه(٥) حتَّى يُقالَ سَجِيَّةٌ(٦) ... ولو كان ذا عَقْلٍ كُنْتُ أُعاقِلُه(٧)»(٨)

وقال بشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

خَليلي، إنَّ العُسْرَ سَوْفَ يُفِيقُ ... وإنَّ يَساراً في غَدٍ لخَليقُ
وما أنا إلاَّ كالزَّمانِ إذا صَحا ... صَحَوْتُ، وإنْ ماقَ(٩) الزَّمانُ أَمُوقُ(١٠)

---

(١) المرجع السَّابق.
(٢) «الآداب الشَّرعية» (٣/ ٤٦٨).
(٣) «النَّوَى»: الارتحال والبُعْد والفراق.
(٤) «أُشاكِلُه»: أُشابِهُهُ وأُماثِلُهُ.
(٥) «فحامَقْتُهُ»: جارَيْتُهُ في حُمْقِه.
(٦) «السَّجِيَّةُ»: الخُلُقُ والطَّبيعةُ، والجمع: سَجَايَا.
(٧) «أُعاقِلُهُ»: أُجارِيْه في عَقْلِه.
(٨) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٠).
(٩) «المُوقُ»: الحُمْقُ في غَبَاوة.
(١٠) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٠).

الصِّـــدْقُ

الصِّدق خَصْلَةٌ محـمُودةٌ، وسَجيَّةٌ ممدوحةٌ، والصِّدق: هو أنْ يخبـرَ الإنسانُ عمَّا يعتـقد أنَّه الحَقُّ، وإنَّـه مطَابقٌ للواقع بلا زيادةٍ ولا نُقْصـانٍ، بلا وكسٍ، ولا شططٍ، وليس الإخبار ـ أيضًا ـ مقصورًا على القـول فحسب، بل قد يكون بالفعل: كالإشارة باليد، أو هَزِّ الرَّأسِ، وقد يكون بالسُّكون.

والصَّادق مـع اللهِ ومع النَّاس ظاهرُهُ كبـاطنِه؛ لذلك ذكر اللهُ المنافَق في الـصُّورة المقابـلة للصَّادق، فـقال سبـحانه وتعـالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٤).

والصِّدقَ طريقٌ إلى الجنَّة، كما أنَّ الكذبَ طريقٌ إلى النَّار.

عن ابن مسعـودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا»**[1].

والصِّدقُ طمَأْنينةٌ، وصاحِبُهُ كريمٌ عزيزٌ، والكذبُ رِيبةٌ، وصاحبُهُ مَهينٌ ذليلٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٩٤)، ومسلمٌ (٢٦٠٧).

عن الحَسَنِ بْنِ عليٍّ ﵄ قال: حَفِظْتُ مِنَ رسولِ اللهِ ﷺ: «**دَعْ ما يَرِيبُكَ**[١] **إلى ما لاَ يَرِيبُكَ، فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنينةٌ، والكَذِبَ رِيبَةٌ**»[٢].

قال الشَّاعرُ:

إذا قُلْتُ قولاً كُنْتُ للقَوْلِ فاعِلاً ▪▪▪ وكان حَيَائي كافِلي وضَمِيني

تُبشِّرُ عنِّي بالوفاءِ بَشَاشَتي ▪▪▪ ويَنْطِقُ نورُ الصِّدْقِ فَوْقَ جَبِيني

والصِّدق ـ أيضًا ـ سببٌ من أسباب البركة في الأرزاق.

عن أبي خالدٍ حكيم بْنِ حِزَامٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**البَيِّعَانِ بالخِيارِ ما لم يَتَفرَّقا، فإنْ صَدَقَا وبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا في بَيْعِهِمَا، وإنْ كَتَمَا وكَذِبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**[٣]»[٤].

والصِّدْق من أُصول الأخلاق الَّتي يتفرَّعُ عنها غيرُها.

قال الحارثُ المحاسبيُّ ـ يرحمه الله ـ:

«واعلمْ ـ رحمك اللهُ ـ أنَّ الصِّدقَ والإخلاصَ أصلُ كُلِّ حالٍ، فمِنَ الصِّدقِ يتشعَّبُ الصَّبرُ، والقَنَاعةُ، والزُّهْدُ، والرِّضى، والأُنْسُ.

وعَنِ الإخلاصِ يَتَشَعَّبُ اليقينُ، والخَوْفُ، والمحبَّةُ، والإجلالُ، والحَيَاءُ، والتَّعظيمُ.

---

(١) «ما يَرِيبُكَ»: ما تَشُكُّ في حِلِّه.

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٨)، وروى النَّسَائيُّ شَطْرَهُ الأوَّل (٥٧١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٣٧٨).

(٣) «مُحِقَتْ بركةُ بَيْعِهِما»: ذهبت البركةُ، ولم يَحْصلا إلاَّ على التَّعَب.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٠٧٩) و (٢٠٨٢) و (٢١٠٩) و (٢١١٠) و (٢١١٤)، ومسلمٌ (١٥٣٢).

فالصِّدقُ في ثلاثةِ أشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ به: صِدْقُ القَلْبِ بالإيمانِ تحقيقًا، وصدقُ النِّيَّةِ في الأعمالِ، وصدقُ اللَّفظِ في الكلامِ»[1].

قال الشَّاعرُ:

إنْ يكن في الكلامِ صِدْقٌ وكَذِبٌ ❁ ولَدَى القَلْبِ سِرُّهُ المَكْنُونُ[2]
فعلى الصِّدْقِ في العُيُونِ دَلِيْلٌ ❁ وعَلَى الوَجْهِ شاهِدٌ لا يَمِيْنُ[3]

وقال أبو حاتم ـ يرحمه الله ـ:

«إنَّ اللهَ جلَّ وعلا فضَّلَ اللِّسانَ على سائر الجَوَارِحِ، ورفع دَرَجَتَهُ، وأبَانَ فضيلتَهُ بأنْ أنطقهُ ـ من بَيْنَ سائرِ الجَوَارِحِ ـ بتوحيده، فلا يجب للعاقل أنْ يُعَوِّدَ آلةً خَلَقَها اللهُ للنُّطَقِ بتوحيده بالكذب، بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصِّدقِ، وما يعودُ عليه نَفْعُهُ في دَارَيْهِ؛ لأنَّ اللِّسان يقتضي ما عُوِّدَ، إنْ صدقًا فصدقًا، وإنْ كذبًا فكذبًا»[4].

قال الشَّاعرُ:

عَلَيْكَ بالصِّدْقِ، ولو أنَّهُ ❁ أحْرَقَكَ الصِّدْقُ بنارِ الوَعِيْدِ
وَابْغِ رِضَى اللهِ، فَأَبْغَى[5] الوَرَى[6] ❁ مَنْ أسْخَطَ المَوْلى، وأرْضَى العَبِيْدِ[7]

---

(١) «هداية المسترشدين» (ص١٧٠).
(٢) «المَكْنُون»: المَسْتُور.
(٣) «يَمِيْنُ»: يكذب منَ المَيْنِ.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٥١).
(٥) «أبْغَى»: أظْلَمُ.
(٦) «الوَرَى»: الخَلْق والنَّاس.
(٧) «جواهر الأدب» (ص٢٤٣).

وقال آخـر:

كَمْ من حسيب كريم كان ذا شَرَفٍ ▪▪▪ قَدْ شَانَهُ الكذبُ وسْطَ الحَيِّ إنْ عَمداً

وآخر كان صُعْلُوكًا[1]، فَشَرَّفَهُ ▪▪▪ صِدْقُ الحَدِيثِ، وقولُ جانبَ الفَنَدَا[2]

فَصَارَ هذا شريفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ ▪▪▪ وصار هذا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا[3]

---

(١) «صُعْلُوكًا»: فقيراً، جمعه صَعَاليك.

(٢) «الفَنَد»: الكذب.

(٣) «روضة العقلاء» (ص٥٥).

حُسْنُ الظَّنِّ بمَنْ ظاهِرُهُ الخيرُ، وَعَدَمُ التَّجسُّسِ عليه

الرَّجلُ صاحبُ الأخـلاقِ الطَّيِّبةِ لا يظنُّ بإخـوانه المسلمين إلاَّ خيرًا، فهـو يمتثل لأمر الله القـائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٢). قال بعضُ العلمـاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾: هو أنْ تظنَّ بأهلِ الخير سُوْءًا، فأمَّا أهل السُّوء والفسوق فلنا أنْ نَظُنَّ بهم مِثْلَ الذي ظهر لنا.

■ **حُكْمُ سُوءِ الظَّنِّ:**

عَدَّ الإمـامُ ابنُ حَجَرٍ سـوءَ الظَّنِّ بالمسلم من الكبائرِ البـاطنة، وذكر أنَّه ممَّا يجبُ على المُكَلَّف معرفتها (الكبيرة الحادية والثَّلاثون)، وقال:

«وهذه الكبائر ممَّا يجب على المُكَلَّف مـعرفتُها؛ ليعـالجَ زوالها؛ لأنَّ مَنْ كان في قلبه مـرضٌ منها لم يَلْقَ اللهَ ـ والـعياذ باللهِ ـ بقلب سلـيمٍ، وهذه الكبائر يُذَمُّ العـبدُ عليـها أعظمَ ممَّا يُذَمُّ على الـزِّنى، والسَّرقـة، وسُوءِ أثرها، ودوامـه، إذْ أنَّ آثارَ هذه راسخةٌ في القلب، بخـلاف آثار معاصي الجَوَارح فإنَّها سـريعةُ الزَّوالِ، تزولُ بالتَّوبة والاستغفار، والحَسَنَاتِ الماحيـة». ونقل عن ابن النَّجَّار قوله: «مَنْ أساء بأخيه الظَّنَّ، فقد أساء بربِّه؛ إنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾»[1].

■ **أقسامُ سوءِ الظَّنِّ:** قسَّم ابنُ حَجَرٍ ـ يرحمه الله ـ سوءَ الظَّنِّ إلى قسمين، كلاهما مِنَ الكبائر:

---

(١) «الزَّواجر» (ص١١٤).

١ ـ سوء الظَّنِّ بالله: قال: «وهذا أبلغُ في الذَّنب من اليَـأْسِ، والقُنُوطِ (وكلاهما كبـيرةٌ)؛ وذلك لأنَّه يَأسٌ، وقُنُوطٌ، وزيادةٌ لتجـويزه على اللهِ سبحـانه وتعالى بما لا يليقُ كرمه وجُوده».

٢ ـ سوء الظَّنِّ بالمسلمين: قال: «وهو ـ أيضًا ـ من الكبائر؛ وذلك أنَّ مَنْ حكَمَ بشرٍّ على غيره بمُجَرَّد الظَّنِّ حَمَلَهُ الشَّيطانُ على احتقاره، وعَدَمِ القيام بحقوقِهِ، والتَّواني في إكـرامِهِ، وإطالةِ اللِّسـان في عرضِـهِ، وكُلُّ هذا مهـلكاتٌ، وكُلُّ مَنْ رأيْتَهُ سـيِّئَ الظَّنِّ بالنَّاسِ، طالبًا لإظهاره مَعَايِبَهُم ـ فاعلمْ أنَّ ذلك لخبْثِ باطنه، وسُوءِ طَوِيَّتِهِ، فإنَّ المؤمنَ يطلبُ المَعَاذير لسلامةِ باطنه، والمُنَافقَ يطلبُ العيُوبَ لخُبثِ باطنِه»[١].

ولقد حذَّرَنا نبيُّنا ﷺ من الظَّنِّ السَّـيِّئِ بمن ظاهره الخير من المسلمين، وبَيَّنَ لنا أنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحـديثِ. عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: **«إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَجَسَّسُوا[٢]، ولا تَحَسَّسُوا»[٣].**

---

(١) «الزَّواجر» (ص١١٤).

(٢) «التَّجسُّسُ المنهيُّ عنه»: هو البحثُ عن عيُـوب النَّاس، والاطِّلاع على عوراتهم، وهذا هو الَّذي نَهى اللهُ عنه، وحذَّر منه رسولُ الله ﷺ كـما في حديث أبي هُرَيرةَ هذا، وكما في حـديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«مَنِ اسْتَمَعَ إلى حديثِ قومٍ وهم له كارهُون، أو يفرُّون منه ـ صُبَّ في أُذُنِهِ الآنُكُ** ـ أي: الرَّصَاصُ المُذابُ ـ **يومَ القيامة»**. رواه البخاريُّ (٧٠٤٢).

ـ ويُستَـثنَى من التَّجـسُّسِ التَّجسُّسُ على أهـل الفساد والرِّيَبِ لمنع فـسادهم، وكـذلك الأعداء لقطع دابرهم، وكفِّ شرِّهم.

ـ ومثلُهُ سُوءُ الظَّنِّ لمَنْ بَينَكَ وبَـينَهُ عداوةٌ. أو شَحْناء، ولاسيَّما بمكائـده ومكْره فقط؛ لئلاَّ يَمكُرَ بك ويصادفك على غِرَّةٍ (أي: غفلة) منْكَ.

(٣) رواه البخاريُّ (٥١٤٣) و (٦٠٦٣) و (٦٠٦٦) و (٦٧٢٤)، ومسلمٌ (٢٥٦٣).

قال الحافظ ـ يرحمه الله ـ:

«قال الخطَّابيُّ ـ رحمه اللهُ ـ: وهو تحقيقُ الظَّنِّ وتصديقُهُ دُونَ ما يهجسُ في النَّفس؛ فإنَّ ذلك لا يُمْلَكُ.

ومراد الخطَّابيِّ أنَّ المُحرَّمَ من الظَّنِّ ما يستمرُّ صاحبُهُ عليه، ويستقرُّ في قلبه، دُونَ ما يعرضُ في القلب ولا يستقرُّ؛ فإنَّ هذا لا يُكَلَّفُ به كما سبق في حديث: **«تجاوز الله تعالى عمَّا تحدَّثَتْ بِهِ الأُمَّةُ، ما لم تتكلَّمْ أو تَعْمَلْ»**[(١)]، وسبق تأويله على الخَوَاطر الَّتي لا تستقرُّ، قاله النَّوَويُّ»[(٢)].

وقال القُرْطُبيُّ ـ يرحمه الله ـ:

«المرادُ بالظَّنِّ هنا التُّهمةُ الَّتي لا سَبَبَ لها: كمَنْ يتَّهمُ رجلاً بالفاحشة من غير أنْ يظهرَ عليه ما يقتضيه ولذلك عطف عليه بقوله: **«ولا تجسَّسُوا»**، وذلك أنَّ الشَّخْصَ يقع له خاطرُ التُّهمةِ، فيريد أنْ يتحقَّقَ، فيتجسَّس ويبحث ويستمع، فَنُهِيَ عَنْ ذلك، وهذا الحديثُ يُوافقُ قولهُ تعالى: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً** ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فدلَّ سياقُ الآية على الأمر بصَوْنِ عِرْضِ المسلمِ غايةَ الصِّيانة لتقدُّمِ النَّهْي عَنِ الخَوضِ فيه بالظَّنِّ، فإنْ قال الظَّانُّ أَبحثُ لأَتحقَّقَ، قيل له: ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾، فإنْ قال: تحقَّقْتُ من غيرِ تجسُّسٍ، قيل له: ﴿ **وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً** ﴾»[(٣)].

(١) رواه البخاريُّ (٢٥٢٨) و (٦٦٦٤)، ومسلمٌ (١٢٧) عن أبي هُريرةَ مرفوعًا.

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/١٠١).

(٣) «فتح الباري» (١٠/٤٩٦).

تجنُّبُ الغَضَبِ

الغَضَبُ: نقيضُ الرِّضَى، وهو تَغَيُّرٌ يَحْصُلُ عِنْدَ فَوَرَانِ دَمِ القلب، ليحصل عنه التَّشَفِّي في الصَّدر[١].

وأسبابُ الغَضَبِ: الزَّهْوُ[٢]، والعُجْبُ، والمَزْحُ، والمُمَاراة[٣]، والمُضادة، والغَدْرُ، وشِدَّةُ الحِرْصِ على فُضُول[٤] المالِ والجَاهِ، وهذه أخلاقٌ رديئةٌ، مذمومةٌ شرْعًا[٥].

والغَضَبُ مَدْخَلٌ عظيمٌ من مَدَاخِلِ الشيطان الكُبْرَى؛ لأنَّ الشَّيطانَ يلعبُ بالغَضْبانِ كما يلعبُ بالكُرةِ الصِّبيانُ، وأكبرُ دليلٍ على ذلك المُشاهدةُ بالعيان.

قال أبو حامدٍ الغزاليُّ ـ يرحمه الله ـ:

«يتصاعدُ عند شدَّة الغضب من غَلَيانِ دَمِ القَلْب دُخَانٌ مُظْلِمٌ إلى الدِّماغ، يستولي على معادن الفكْر، وربَّما يتعدَّى إلى معادن الحِسِّ، فَتُظْلِمُ عينُهُ حتَّى لا يَرَى بها، وتَسْوَدُّ عليه الدُّنيا بأسْرها، ويكون دِمَاغُهُ مِثْلَ الكَهْفِ الذي اضْطَرَمَتْ فيه نارٌ، فاسْوَدَّ جَوُّهُ، وحَمِيَ مُسْتَقَرُّهُ، وامتلأتْ بالدُّخَان جَوَانِبُهُ، وربَّما تقوى نارُ الغَضَبِ، فَتَفْنَى الرُّطُوبة الَّتي بها حياةُ القلب، فيموتُ صاحبُهُ غيظًا.

(١) «التَّعريفات» للجرجانيِّ (ص١٧٨).

(٢) «الزَّهْوُ»: الكِبْرُ والفَخْرُ.

(٣) «المُمَاراة»: المُجَادلة.

(٤) «فُضُول»: جمعُ فَضْلٍ، وهو ما زاد عن الحاجةِ.

(٥) انظر: «منهاج القاصدين» (ص١٨٠).

ومن آثار هذا الغَضب في الظَّاهـر تَغَيُّرُ اللَّونِ، وشِدَّةُ ارتعـادِ الأطراف، وخُرُوج الأفعـالِ عن التَّرتيب والنِّظامِ، واضْطرابُ الحـركةِ والكلامِ، حتَّـى يظهرَ الزَّبَدُ[١] على الأشْداق[٢]، وتحمرَّ الأَحْداق، وتـنقلبَ المَناخِرُ، وتستحيلَ الخِلْقَةُ، ولو رأى الـغَضْبانُ في حالة غَضَبِهِ قُبْحَ صورتِهِ، لَسكَنَ غَضَبُـهُ حياءً من قُبْحِ صُورتِهِ، واستحالةِ خِلْقَتِهِ، وقُبْحُ باطنِهِ أعظمُ من قُبْحِ ظاهرِهِ؛ فإنَّ الظَّاهرَ عُنْوانُ الباطنِ، هذا أثرُهُ في الجسد.

وأمَّا أثرُهُ في اللِّسان فـانطلاقُهُ بالشَّتم والفُحْش من الكلام الذي يـستحـي منه ذو العـقل، ويَسْـتحيِ منـه قائلُهُ عنـدَ فُتُـورِ الغَـضبِ، وذلك مع تخـبُّطِ النَّظْمِ، واضْطراب اللَّفظ.

وأمَّا أثرُهُ على الأعـضاء فالضَّربُ، والتَّـهجُّمُ، والتَّمزيقُ، والقـتلُ، والجَرْحُ عندَ التَّمكُّنِ من غـير مُبالاةٍ، فـإنْ هَرَبَ منه المغضوبُ عليـه، أو فاته بسبب وعَـجزٍ عن التَّشفِّي ـ رَجَعَ الغَـضبُ على صاحبِهِ، فـمزَّق ثوبَهُ، ولَطَمَ نَفْسَهُ، وقـد يضربُ بيده على الأرض، وقد يضرب الجَمَادات، ويتعاطى أفعال المجانين.

أمَّـا أثرُهُ في القلب مع المغضـوب عليـه فالحـقْدُ، والحَـسَدُ، وإضـمارُ السُّـوء، والشَّـماتةُ بالمسـاءات، والحُزْنُ بالسُّـرور، والعَزْمُ على إفـشاءِ السِّـرِّ، وهَتْكِ السِّـتْرِ، والاستهزاءُ، وغيرُ ذلك من القبائح» ا.هـ ملخصًا[٣].

---

(١) «الزَّبَدُ»: الرَّغْوَةُ.

(٢) «الأَشْدَاق»: جمعُ: شِدْقٍ، وهو زاويةُ الفَمِ مِمَّا تحتَ الخَدِّ.

(٣) «الإحياء».

وكُلَّما فتـر غَضَبُ الإنسان وسكَن، أثاره الشَّيطانُ بمثل قوله: هو مـستهزئٌ بك، لابُدَّ أنْ تنتقمَ منه، وغـير ذلك مَّا يثيرُ الغَـضَبَ، ويُؤَجِّجُ نارَهُ، ومن هنا يجبُ على المسلم الأريب[١] العاقل أنْ يغلبَ شيطانه، ويكظمَ غيظه، ويلتمسَ العُذْرَ لأخيه.

عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ على قومٍ يصطرعـون، فقال: **«ما هذا؟». قالوا: «فلانٌ ما يصارعُ أحداً إلاَّ صرَعَهُ!». قال: «أفلا أدُلُّكم على مَنْ هو أشدُّ منه؟، رجلٌ كلمهُ رجلٌ، فكظم غيْظَهُ، فَغَلَبَهُ وغَلَبَ شيطانَهُ، وغَلَبَ شيطانَ صاحبِهِ»**[٢].

والغَضَبُ يجمع الشَّرَّ كُلَّهُ، فقد روى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: **«أَوْصِنِي». قال: «لا تَغْضَبْ». فردَّدَ مِرَارًا، قال: «لاتَغْضَبْ»**[٣].

زاد أحمدُ في روايةٍ: قال الرَّجلُ: **«ففكَّرتُ حين قال النَّبيُّ ﷺ ما قال، فإذا الغضَبُ يجمعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»**[٤].

والغَضَبُ ـ إذا كان بغير حقٍّ ـ من أخـلاق النَّاقصين الذين لا يقدرون على ضبط أعصابهم تجاه انفعالاتهم العجولة.

قـال صاحـبُ «الإحيـاء»: «ممَّا يدلُّ على أنَّ الغَـضَبَ من أخـلاق النَّاقـصين أنَّ المريضَ أسرعُ غـضبًا من الصَّـحيح، والمرأة أسرعُ غـضبًا من الرَّجل، والصَّـبيَّ أسرعُ غضبًا من الرَّجل الكبير، والشَّيخَ الضَّعيفَ أسرعُ غضبًا مِنَ الكَهْلِ، وذا الخُلُقِ السَّيِّئِ والرَّذائلِ القبيحةِ أسـرعُ غضبًا من صاحب الفضائل، فالرَّذْلُ يغـضبُ لشهوته إذا فاتَتْهُ

---

(١) «الأريب»: الحازم.

(٢) رواه البزَّارُ، وقال الحافظُ في «الفتح» (١٠/ ٥١٩): سَنَدُهُ حَسَنٌ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦١١٦).

(٤) «مسند أحمد» (٥/ ٣٧٣) بسندٍ صحيحٍ.

اللقمةُ، ولبخله إذا فاتته المحبةُ، حتَّى إنَّه يغضبُ على أهلِه، وولدِه، وأصحابِه، بل القويُّ مَنْ يَمْلِكُ نفسَهُ عندَ الغَضَبِ»[١].

▪ علاجُ الغَضَبِ وتَسْكِيْنُهُ:

يُعالجُ الغضبُ إذا هاج بأمورٍ ذكرها العلماء[٢]، منها:

١ - أنْ يذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوفُ منه إلى الطَّاعة له، فعندَ ذلك يزول الغضبُ.

قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** ﴾ (سورة الكهف: ٢٤).

قال عِكْرِمة: يعني إذا غَضِبْتَ.

وقال الله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٠-٢٠١).

ومعنى قوله: ﴿ **يَنزَغَنَّكَ** ﴾ أي: يُغْضِبَنَّكَ، وقوله: ﴿ **إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ يعني: أنَّه سميعٌ بجَهْلِ مَنْ جَهَلَ، عليمٌ بما يُذْهِبُ عنك الغضب.

وعن سُلَيْمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه قال: **اسْتَبَّ رَجُلانِ عندَ النَّبيِّ ﷺ، فَجَعَلَ أَحَدُهُما يَغْضَبُ، ويحمرُ وَجْهُهُ، وتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ[٣]، فنظرَ إليه النَّبيُّ ﷺ فقال: «إنِّي لأعْلَمُ كلمةً لو قالها لَذَهَبَ عنه ما يجدُ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ». فقام إلى الرَّجلِ رجلٌ مِمَّنْ سَمِعَ**

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٨٤) بتصرُّف.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٠ - ٢٥٢)، «الإحياء» (٣/ ١٧٣ - ١٧٥)، «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٨٠ - ١٨١)، و«نظرة النعيم» (١١/ ٥٠٧٨).

(٣) «أَوْدَاج»: جمع: وَدَجٍ، وهو عِرْقٌ في العُنُق.

النبيَّ ﷺ، فقال: «هل تدري ما قال رسولُ الله ﷺ آنفاً[(١)]؟». قال: «لا». قال: «إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجدُ: أعوذُ بالله منَ الشَّيطانِ الرَّجيم». فقال الرَّجلُ: «أمجنُونٌ تَراني؟!»[(٢)].

وقوله: ﴿طَائِفٌ﴾ فسَّره بعضُهم بالغضب، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقابَ الله، وجزيلَ ثوابه ووَعْده.

رُويَ أنَّ عبدَ الله بن مسلم بن محارب قال لهارونَ الرَّشيد: «يا أميرَ المؤمنين أسألُك بالذي أنت بَيْنَ يدَيْه أذلُّ منِّي بَيْنَ يدَيْكَ، وبالذي هو أقدرُ على عقابك منك على عقابي ـ لما عفَوْتَ عنِّي» فعفا عنه لما ذكَّره قُدْرَةَ الله تعالى.

فيا أخي، قدرة الله أعظمُ من قدرة عباده، فلو أمضَيْتَ غضبَك على أخيك لم تأمن أنْ يُمْضي اللهُ عزَّ وجلَّ غَضَبَهُ عليك يومَ القيامة، فأنت أحوجُ ما تكون إلى العَفْو.

٢ ـ أنْ يتحوَّلَ من الحالِ الَّتي كان عليها، فإنْ كان قائمًا جلَس، وإنْ كان جالسًا اضْطَجَع.

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضبَ أحدُكم وهو قائمٌ فلْيَجلِسْ، فإنْ ذهَبَ عنه الغَضَبُ، وإلاَّ فلْيَضْطَجعْ**»[(٣)].

٣ ـ أنْ يتفكَّرَ في الأخبارِ الواردةِ في فضلِ كظْمِ الغيظِ، والعفوِ، والحِلْمِ، والاحتمالِ، فيرْغبَ في ثوابِ ذلك، فتمنعه شدَّةُ الحرْصِ على ثوابِ هذه الفضائلِ عن التَّشفِّي والانتقام، ويَنْطفئُ عنه غَيْظُهُ.

---

(١) «آنفًا»: قريبًا.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٨٢) و(٦٠٤٨) و(٦١١٥)، ومسلمٌ (١٦١٠).

(٣) رواه أبو داودَ (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٦٩٤).

وقد سبق ذكر بعض تلك الأخبار في باب الحِلْم، ونذكر منها هنا الآتي:

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (سورة الشورى: ٣٧).

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ جُرْعَةٍ أعظمُ أجْرًا عندَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ، كظَمَهَا عَبْدٌ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ»[١].

٤ - أنْ يَسْكُتَ؛ لأنَّهُ يكون في هذه الحالة أقربَ إلى الخطأ، فالسُّكوتُ أسْلَمُ.

قال رسول الله ﷺ: «إذا غَضِبَ أحَدُمْ فَلْيَسْكُتْ»[٢].

٥ - أن يعلم أنَّ القُوَّة الحقيقيَّةَ هي التَّحَكُّمُ في النَّفس عندَ الغَضَبِ.

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ[٣]، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عندَ الغَضَبِ»[٤].

٦ - أنْ يعلمَ أنَّ غَضَبَهُ إنَّما كان من شيءٍ جَرَى على وَفْقِ مُراد الله سبحانه وتعالى لا على وَفْقِ مُراده، فكيف يكونُ مُراد نفسه أوْلَى من مُراد الله سبحانه وتعالى.

٧ - أنْ يتذكَّرَ أنَّ الشَّيطانَ هو الدَّافعُ له، والمعين عليه.

أسمع رجلٌ عُمَرَ بْنَ عبدِ العزيز كلامًا، فقال عُمَرُ: «أَرَدْتَ أنْ يستفزَّني الشيطانُ لعزَّة السُّلطان، فأنال منك اليومَ ما تناله منِّي غداً، انصرفْ رَحِمَكَ اللهُ».

---

(١) رواه ابنُ ماجَهْ (٤١٨٩)، وفي «الزَّوائد» إسنادُهُ صحيحٌ، ورجالُهُ ثقاتٌ.

(٢) رواه أحمدُ في «المسند» عن ابن عبَّاسٍ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» عن أبي هُرَيرَةَ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٦٩٣)، و«الصَّحيحة» (١٣٧٥).

(٣) «الصُّرَعَة»: بفتح الرَّاء: الذي يَصْرَعُ النَّاسَ ويغلبُهُمْ. و«الصُّرْعَة»: بسكون الرَّاء: الضَّعيفُ الذي يَصْرَعُهُ النَّاسُ ويغلبونه.

(٤) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلمٌ (٢٦٠٩).

٨ - أنْ يتذكَّرَ ما يَئُولُ إليه الغَضَبُ مِنَ النَّدم، ومَذَمَّةِ الانتقام، فإنَّه إنْ كان فيه رغوةُ العِزَّةِ، لكنَّها لا تَلْبَثُ حتَّى تُفْضي بصاحبِهِ إلى ذُلِّ الاعتذار. كما قيل:

وإذا ما اعْتَرَتْكَ في الغَضَبِ العِزَّةُ ... فاذْكُرْ تَذَلُّلَ الاعْتِذارِ

٩ - أنْ يحذِّرَ نفسَهُ عاقبةَ العداوةِ والانتقام، وتشمير العدوِّ في هَدْمِ أعراضه، والشَّماتة بمصائبه، فإنَّ الإنسانَ لا يخلو من المصائب، وهذا ما يُعرف بتسليط شهوةٍ على غضبٍ، ولا ثوابَ عليه، إلاَّ أن يكونَ خائفًا مِنْ أنْ يتغيَّرَ عليه أمرٌ يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

١٠ - أنْ يتذكَّرَ أنَّ القلوب تنحرفُ عنه، وتحذرُ القُرْبَ منه، فيبتعد الخَلْقُ عنه، فيبقى وحيدًا فريدًا، فإنَّ ذلك جديرٌ بصَرْفِ الغضب عنه.

وحيداً من الأهلِ والخِلان في كُلِّ بلدةٍ ... إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعِدُ

١١ - أنْ يتفكَّرَ في قُلْحِ صُورته عندَ الغضب، وأنَّه يُشْبِهُ حينئذ الكَلْبَ الضَّاريَ[1]، والسَّبُعَ[2] العاديَ، وأنَّه أبعدُ ما يكونُ مجانبةً لأخلاقِ الأنبياءِ، والعلماءِ، والفُضلاءِ في أخلاقهم.

١٢ - أنْ يذْكُرَ انعطافَ القلوب عليه، ومَيْلَ النُّفوس إليه، فلا يَرَى إضاعةَ ذلك بتنفير النَّاسِ منه، فيرعب في التَّألُّف وجميل الثَّناء، ويكفّ عن متابعة الغضب.

---

(١) «الضَّاري»: المتوحِّش.

(٢) «السَّبُع»: كُلُّ حيوانٍ مفترسٍ، وجمعه: سِبَاع.

أقسامُ الغضَبِ:

الغضَبُ ضَرْبان: غضَبٌ للنَّفْسِ، وغضَبٌ للهِ جلَّ وعلا.

فأمَّا الأوَّل فهو مذمومٌ، وقد تقدَّم بيانُهُ، وأمَّا الثَّاني فهو محمودٌ، بل مندوبٌ إليه.

عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: **«ما انْتَقَمَ رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِهِ في شيْءٍ قطُّ، إلاَّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فيَنْتَقِمُ بها للهِ»**[(١)].

فكان ﷺ إذا ما رأى مُخَالفةً شرعيَّةً غَضِبَ، واحمرَّ وَجْهُهُ، ولم يَسْكُتْ حتَّى يُغيِّرَها.

فعَن عائشة - أيضًا - قالتْ: **قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ من سَفَرٍ، وقد سَتَرْتُ سَهْوَةً[(٢)] لي بِقِرَامٍ[(٣)] فيه تَمَاثِيلُ، فلمَّا رآه رسولُ اللهِ ﷺ هَتَكَهُ[(٤)]، وتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وقال: «يا عائشةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذابًا عندَ اللهِ يومَ القيامةِ الَّذِيْنَ يُضَاهُونَ[(٥)] بخَلْقِ اللهِ»**. قالتْ: **«فقطعْنَاه، فجعلْنَا منه وِسَادةً أو وِسَادَتَيْنِ»**[(٦)].

وعن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: **بَيْنا النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، رأى في قِبْلَةِ المسْجِدِ نُخَامةً، فَحَكَّها بيدِهِ، فتَغَيَّظَ، ثُمَّ قال: «إنَّ أحدَكم إذا كانَ في الصَّلاةِ، فإنَّ اللهَ حِيَالَ[(٧)] وَجْهِهِ؛ فلا يَتَنخَّمَنَّ حِيَالَ وَجْهِهِ في الصَّلاةِ»**[(٨)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٥٦٠) و(٦١٢٦) و(٦٧٨٦) و(٦٨٥٣)، ومسلمٌ (٢٣٢٧).

(٢) «سَهْوَة»: رفًّا ذو طاقة.

(٣) «القِرَامُ»: ستَارٌ رقيقٌ.

(٤) «هتَكهُ»: أفسد الصُّورةَ الَّتي فيه.

(٥) «يُضَاهُون»: يُشَابِهُون.

(٦) رواه البخاريُّ (٢٤٧٩) و(٥٩٥٤) و(٥٩٥٥) و(٦١٠٩)، ومسلمٌ (٢١٠٦).

(٧) «حِيَالَ»: قِبَلَ.

(٨) رواه البخاريُّ (٤٠٦) و(٧٥٣) و(١٢١٣) و(٦١١١)، ومسلمٌ (٥٤٧).

تجنُّبُ الحِقْدِ

الحِقْدُ: هو تطلبُ الانتقامَ، وتحقيقه: أنَّ الغَضَبَ إذا لَزِمَ كَظْمُهُ لعَجْزٍ عَنِ التَّشفِّي في الحال، رَجَعَ إلى الباطن، واحْتَقَنَ فيه، فصار حِقْدًا[١].

وقيل: «هو سوءُ الظَّنِّ في القَلْب على الخَلاَئق لأجل العَدَاوة»[٢].

وقال الجاحظ: «الحِقْدُ: هو إضْمَارُ الشَّرِّ للجاني، إذا لم يَتَمكَّنْ مِنَ الانتقام منه، فأخفى ذلك الاعتقاد إلى وَقْتِ إمكانِ الفُرصةِ»[٣].

■ **سببُ الحِقْدِ:**

قال الغزاليُّ ـ يرحمه الله ـ:

«إنَّ مَنْ آذاهُ شَخْصٌ بسببٍ من الأسباب، وخالفه في غرضه بوَجْهٍ من الوُجُوه ـ أَبْغَضَهُ قَلْبُهُ، وغَضِبَ عليه، ورسخَ في قلبِه الحقد عليه، والحقدُ يقتضي التَّشفِّي والانتقام، فإنْ عجز المُبغِضُ (الحَقُود) أنْ يَتَشفَّى لنفسه، أحبَّ أنْ يتشفَّى من خَصْمه الزَّمانُ، وقَدْ يحقد الحِقْدَ بسبب خُبْثِ النَّفس وشُحِّهَا بالخير لعباد الله تعالى»[٤].

---

(١) «التَّعريفات» للجرجانيِّ (ص٩٥).

(٢) المرجع السَّابق (ص٩٦).

(٣) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٣٣).

(٤) «الإحياء» (٣/ ١٩٢ - ١٩٣).

■حُكْمُ الحِقْدِ:

ذكر ابْنُ حَجَرٍ الهيثميُّ الحِقْدَ مع كُلٍّ من الغَضَبِ بالباطلِ والحَسَدِ، على أنَّها جميعًا من كبائرِ الباطنِ، وعَلَّلَ جَمْعَهُ لهذه الكبَائرِ الثَّلاث بقوله: «لَمَّا كانتْ بمنزلةِ خَصلَةٍ واحدة، وذَمُّ كُلٍّ يَستَلْزِمُ ذَمَّ الآخرِ؛ لأنَّ الفَرْعَ وفَرْعَهُ يستلزمُ ذمَّ الأَصْلِ وأَصْلِه، وبالعكس»[١].

وسلامة الصَّدْرِ من الحِقْدِ والحَسَدِ هي الصِّفَةُ البَارزةُ في حياة الصَّحابة، والخَلَّةُ العظيمةُ الَّتي رفعتْ من أقدراهم، فقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلى أَحَدِ الصَّحابةِ ـ ثلاثًا ـ إلى أنَّه من أهْلِ الجنَّةِ، فذهب إليه عبدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، وبَاتَ عندَه ثلاثَ ليالٍ؛ كي ينظرَ ما هُوَ العملُ الذي بلغ بِهِ إلى هذهِ المنزلة، فلم يَرَهُ فَعَلَ كبيرَ عملٍ، فَعَجِبَ عبدُ الله من حاله، وسأله: «ما الذي بلغَ بكَ ما قالَ رسولُ الله ﷺ ؟!».

فقال الرَّجلُ: «ما هو إلاَّ ما رأيتَ، غيرَ أنِّي لا أجدُ في نفسي لأَحَدٍ من المسلمين غشّاً، ولا أَحْسُدُ أحدًا على خيرٍ أعطاهُ اللهُ إياهُ».

فقال عبدُ الله: «هذا الذي بَلَغَ بك، وهي الَّتي لا أُطيقُ؟!»[٢].

وقال سُفْيانُ بْنُ دينار لأبي بشير (وكان من أصحاب عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه): **«أخْبِرْني عَنْ أعمالِ مَنْ كان قَبْلَنا». قال: «كانوا يعملون يسيرًا، ويُؤْجَرُون كثيرًا». فقال سُفْيانُ: «ولِمَ ذلك؟!». قال: «لسلامةِ صُدُورِهِم!»[٣].**

---

(١) «الزَّواجر» (١/ ٥٢).

(٢) رواه أحمدُ في «المسند» بإسناد صحيح (٣/ ١٦٦).

(٣) رواه هَنَّاد في «الزُّهْد» (٢/ ٦٠٠).

قال المُقَنَّعُ الكِنْدِيُّ:

إنَّ الذي بَيْني وبَيْنَ بَني أَبي ▪▪▪ وبَيْنَ بَني عَمِّي ـ لَمُخْتَلِفٌ جِداً
إذا أَكَلُوا لحمي وفرتُ لحُومَهُم ▪▪▪ وإنْ هَتَكُوا مَجْدي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا
ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عَلَيْهِمُو ▪▪▪ وليس رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ

وقال آخر:

إنَّ في النَّفسِ بغضةً لأُناسٍ ▪▪▪ أَصْلِحْني وَحَبِّبْهُمْ إلَيْا
واغْسِلِ الحِقْدَ والهَوَى مِنْ فُؤَادي ▪▪▪ واجْعَلْني لكُلِّ حقٍّ وَلِيّا

والحقد إذا لم يُعالجْ قد يُفْضي إلى العَدَاوة، ما من ذلك بُدٌّ، كما قيل:

بَني عَمِّنا، إنَّ العَداوةَ شَأْنُها ▪▪▪ ضَغَائِنُ[1] تَبْقَى في نُفُوسِ الأَقَارِبِ

■ علاجُ الحِقْد:

والعلاج الأنجح يستلزمُ من المحقود عليه ـ إنْ كان عَادِياً ـ أنْ يقلع عَنْ غيِّه، ويُصْلحَ سيرتَهُ، وأنْ يعلمَ أنَّه لَنْ يستلَّ الحقد من قلب صاحبه إلاَّ إذا عاد عليه بما يُطمئنُهُ ويُرْضيه، وعليه أنْ يُصْلحَ من شَأْنِه، ويُطَيِّبَ خاطره، وعلى الطَّرَفِ الآخرِ أنْ يَلينَ ويسمعَ، ويتقبَّلَ العُذْرَ، وبهذا تموتُ الأحقادُ، وتَحِلُّ المحبَّةُ والأُلْفةُ[2].

---

(١) «ضَغَائِن»: جمع ضَغينة، وهي الحقدُ.
(٢) انظر: «نظرة النَّعيم» (١٠/ ٤٤٣٢).

قال الشَّاعرُ:

وحَيٍّ ذَوي الأَضْـغَـانِ تَسْبِ قُلُوبَهُم ▫▪▫ تَحِيَّتَكَ الحُسْنَى فقَدْ يُرْفَعُ النَّعْلْ

فإنْ دحسوا بالمَكْرِ فاعْفُو تَكَرُّمًا ▫▪▫ وإنْ حَبَسُوا عَنْكَ الحديثَ فلا تَسَلْ

فإنَّ الذي يُؤْذِيْكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ▫▪▫ وإنَّ الذي قالوا وَرَاءَكَ لم يُقَلْ(١)

والحقد مهما بلغ صاحبه في إخفائه، فلابُدَّ أنْ يظهرَ؛ فالعيون ـ كما قال ابن القيِّم ـ مغاريفُ القلوبِ، بها يُعرفُ ما في القلوب، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحبُها.

ولله درُّ القائل:

إنَّ العُيُونَ لَتُبْدِي في نَوَاظِرِها ▫▪▫ ما في القُلُوبِ مِنَ البَغْضَاءِ والإِحَنِ(٢)

وقال آخرُ ـ وأحسنَ ـ:

العَيْنُ تُبْدِي الذي في قَلْبِ صاحِبِهَا ▫▪▫ مِنَ الشَّنَاءَةِ، أو حُبٌّ إذا كَانَا

إنَّ البَغِيْضَ له عَيْنٌ بصدقُهَا ▫▪▫ لا يستطيعُ لِمَا في القَلْبِ كِتْمَانَا

فالعَيْنُ تَنْطِقُ والأفواهُ صامتةٌ ▫▪▫ حتَّى تَرَى مِنْ صَمِيْمِ القَلْبِ تِبْيَانَا

وكما يظهرُ على العُيُون، فهو يظهرُ على صفحات الوَجْهِ، وفَلَتَاتِ اللِّسان، كما قال عُثْمانُ رضي الله عنه: «ما أسرَّ أحَدٌ سَريرةً إلاَّ أظهرها اللهُ عزَّ وجلَّ على صَفَحَاتِ وَجْهِهِ، وفَلَتَاتِ لسانِهِ»(٣).

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٠١).
(٢) «الإحَن»: جمع إحْنَة، وهي الحقْدُ.
(٣) «الآداب الشَّرعيَّة» (١/ ١٣٦).

وقال ابنُ عـقيلٍ ـ يرحمه الله ـ: «للإيمـان روَائحُ، ولوَائحُ لا تخفى على إطِّلاع مُكَلَّف، وذلك بالتَّلمحِ للمتفرِّس، وقلَّ أنْ يُضمرَ شيئًا إلاَّ أظهرها الزَّمانُ على فلَتاتِ لسانِه، وصَفَحاتِ وَجْهِه»[١].

وما أجمل ما قاله عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغْنَ[٢] بعْدَ الضِّغْنِ يَغْشُو ▪▪▪ ويُخْـرجُ الدَّاءَ الدَّفِـيْنَا[٣]

ولا يحملُ الحِقْدَ إلاَّ دَنِيْءُ الهمَّةِ، مَهِيْنُ النَّفسِ، ولَنْ تجِدَ عالي الهمَّةِ، عزيزَ النَّفسِ، كريمَ السَّجايا، عريقَ الأَصْلِ ـ يحملُ الحقدَ في نفسِه، حتَّى يعودَ اللَّبن في الضَّرْعِ، وإذا وجدتَ حقودًا بهذه الصِّفات، فاعلمْ أنَّه لا ينبلُ ولا يسودُ.

قال شاعرُ الدُّنيا، وشاغلُ النَّاسِ أبو الطيِّب المتنبِّي:

لا يَحْمِلُ الحقْدَ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ ▪▪▪ ولاَ يَنَالُ العُلاَ مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

---

(١) المرجع السَّابق.

(٢) «الضِغْن»: الحقْدُ، والجمعُ: أَضْغَانٌ.

(٣) «تفسير القُرْطُبيِّ» (١٦/ ٢٥١).

تجنُّبُ الحَسَدِ

الحسدُ: هو تمنِّي زوال النِّعمة عن المُنْعَم عليه، وهو مرضٌ نفسيٌّ، لا يكاد يَسْلَمُ منه أحدٌ، ولهذا قيل: «ما خَلاَ جَسَدٌ من حَسَدٍ، ولكن اللَّئيم يُبْدِيْه، والكريم يُخْفِيْه»(١).

وقيل للحَسَنِ البِصْريِّ: «أَيَحْسُدُ المؤمنُ؟». فقال: «ما أَنْسَاكَ إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ؟!، لا أباللك، ولكن عَمِّهِ في صدرك، فإنَّه لا يضرُّك، ما لم تَعدْ به يداً ولساناً»(٢).

والحسد خُلُقٌ ذميمٌ، ناهيك به شراً، فهو أوَّلُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّماء، وأوَّلُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به في الأرض، ففي السَّماء حَسَدَ عدوُّ الله إبليسُ أبانا آدم ـ عليه السلام ـ، وفي الأرض حَسَدَ ابنُ آدمَ أخاه حتَّى قتله!.

▪ أسبابُ الحَسَدِ:

قال الماورديُّ ـ يرحمه الله ـ: «واعلمْ أنَّ دواعي الحسدِ ثلاثةٌ:

أحَدُها ـ بغضُ المحسود، فيأسَى عليه بفضيلةٍ تَظْهَرُ، أو مَنْقَبَةٍ(٣) تُشْكَرُ، فيثيرُ حَسَدًا قد خامر بغضًا.

وهذا النَّوع لا يكون عامًا ـ وإنْ كان أضرَّها ـ؛ لأنَّه ليس يبغضُ كُلَّ النَّاسِ.

---

(١)، (٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة، تحقيق وإعداد عبد الله بدران ومحمَّد عُمَر الحاجي (ص٢٤٧).

(٣) «مَنْقَبَة»: فضيلة، والجمعُ: مَنَاقبُ.

والثَّاني ـ أنْ يظهرَ من المحسود فَضْلٌ يعجزُ عنه، فيكرَهُ تقدُّمَه عليه، واختصاصَه به، فيثير ذلك حَسَدًا، لولاهُ لكَفَّ عنه.

وهذا أوسطها؛ لأنَّه لا يحُسَدَ الأكفَّاء مَنْ دَنَا، وإنَّما يختصُّ بحَسَد مَنْ عَلاَ، وقد يَمْتَزِج بهذا ضَرْبٌ من المنافسة، ولكنَّها مع عَجْزٍ؛ فلذلك صارتْ حَسَدًا.

والثَّالث ـ أنْ يكونَ في الحاسد شُحٌّ بالفضائل، وبُخْلٌ بالنِّعَم، وليستْ إليه فيمنع منها، ولا بيده فيدفع عنها، لأنَّها مواهبُ قد منحها الله مَنْ شاء، فيسخط على الله عزَّ وجلَّ في قضائه، ويحسُدُ على ما منح من عطائه وإنْ كانتْ نِعَمُ الله عزَّ وجلَّ عنده أكثرَ، ومنحُهُ عليه أظهرَ.

وهذا النَّوع من الحَسَد أعمُّها وأخبثُها، إذْ ليس لصاحبه راحةٌ، ولا لرضاه غايةٌ، فإن اقترن بشرٍّ وقدرةٍ، كان بورًا وانتقامًا، وإنْ صادف عجزًا ومهانةً، كان كَمَدًا وسقامًا، وقد قال عبد الحميد: الحسودُ من الهَمِّ كساقي السُّمِّ، فإنْ سَرَى سُمُّهُ، زال عنه غَمُّهُ»[1].

أقسامُ الحَسَدِ:

قسَّم العلماء الحسد إلى قسمين: حقيقيٌّ، ومجازيٌّ.

فالحقيقيُّ: تمنِّي زوال النِّعمة عن صاحبها، وهذا حرامٌ بإجماع الأُمَّة مع النُّصوص الصَّريحة.

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٧٠ - ٢٧١).

وأمَّا المَجَازِيُّ فهو الغِبْطَةُ: وهو أنْ يتمنَّى مِثْلَ النِّعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإذا كانتْ في أمور الدُّنيا كانت مُباحةً، وإنْ كانتْ طاعةً فهي مُسْتحبَّةٌ(١).

وقال القرطبيُّ ـ يرحمه الله ـ: «الحسدُ نوعان: محمودٌ، ومَذْمومٌ.

فالمذموم: أنْ تتمنَّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواءً تَمَنَّيْتَ مع ذلك أنْ تعودَ إليك أولا، وهذا النَّوع الذي ذَمَّهُ اللهُ في كتابه بقوله: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (سورة النساء: ٥٤).

وإنَّما كان مذمومًا؛ لأنَّ فيه تسفيهُ الحَقِّ سبحانه، وأنَّه أنعمَ على مَنْ لا يستحقُّ»(٢).

وقال الرَّازي: «إذا أنعم اللهُ على أخيك بنعمة، فإنْ أردْتَ زوالَها، فهذا هو الحَسَدُ، وإن اشْتَهَيْتَ لنفسك مثلها، فهذا هو الغِبْطَةُ والمنافسة، وأمَّا الأوَّل فحرامٌ بكُلِّ حال، إلاَّ نعمةً أصابها فاجرًا، أو كافرًا يستعين بها على الشَّرِّ والفساد، فلا يضرُّك محبَّتُكَ لزوالها؛ فإنَّك ما تحبُّ زوالها من حيثُ أنَّها نعمةٌ، بل من حيثُ إنَّها يُتوسَّلُ بها إلى الفساد والشَّرِّ والأذى»(٣).

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحَسَد.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»**(٤).

---

(١) «شرح مسلم» (٢/ ٤٦٤).
(٢) «تفسير القرطبيِّ» (٣/ ٧١).
(٣) «التَّفسير الكبير» للرَّازي (٣/ ٢٣٨).
(٤) تقدَّم تخريجه.

وعنه ـ أيضًا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتَيْن: رجلٌ علَّمه اللهُ القرآنَ، فهو يَتْلوهُ آناءَ[(١)] اللَّيل، وآناءَ النَّهار، فسَمِعَهُ جارٌ له، فقال: لَيْتَني أُوتِيْتُ مِثْلَما أُوتيَ فُلانٌ، فعملتُ مِثْلَما يعمل، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً، فهو يُهْلِكُهُ في الحقِّ[(٢)]، فقال رَجُلٌ: لَيْتَني أُوتيتُ مِثْلَما أُوتي فُلانٌ، فعملتُ مِثْلَما يعملُ»[(٣)].

قال الحافظ ابنُ حَجَر ـ يرحمه الله ـ:

«وأمَّا الحَسَدُ المذكورُ في الحديث فهو الغِبْطَةُ، وأطلق الحَسَدَ عليها مجازًا، وهي أنْ يتمنَّى له مِثْلُ ما لغيره من غير أنْ يزولَ عنه، والحِرْص على هذا يُسمَّى مُنَافسة، فإنْ كان في الطَّاعة فهو محمودٌ، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٦). وإنْ كان في المعصية فهو مذمومٌ ومنه: «ولا تنافسوا»، وإنْ كان في الجائزات فهو مُباحٌ»[(٤)].

قال الشَّاعرُ:

احْرِصْ على جَمْعِ الفَضَائِلِ واجْتَهِدْ ▪▪▪ وتجافي عَمَّنْ حَمَلَ الضَّغِينةَ والحَسَدْ
اصْبِرْ على كَيْدِ الحَسُودِ مُدَارِيًا ▪▪▪ يا صاحِ[(٥)]، بَعْدَ الموتِ ينقطعُ الحَسَدْ

والحَسَدُ غالبًا ما يوجد لمن عَظُمَتْ نعمةُ الله عليه، وأمَّا التَّافهُ المسكين فلا حُسَّادَ له، ولهذا قال شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن تيميَّةَ ـ يرحمه الله ـ: «والحَسَدُ في

---

(١) «الآناء»: السَّاعات.

(٢) أي: يُنفقُهُ في الطَّاعات.

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٦) و(٧٢٣٢) و(٧٥٢٨).

(٤) فتح الباري» (١/١٦٧).

(٥) «صاح»: مُرَخَّم صاحب، وهو مرخَّم ترخيمًا غيرَ قياسيٍّ جاز هنا للضَّرورة الشِّعريَّة؛ لأنَّه نكرة، والقياس ألاَّ يُرَخَّمَ ممَّا ليس آخره تاءً إلاَّ العَلَم.

الأصل إنَّما يقع لما يحصل للغير في السُّؤْدَد والرِّياسة، وإلاَّ فالعاملُ لا يُحْسَدُ في العادة، ولو كان تنعُّمُهُ بالأكل، والشُّرْب، والنِّكاح أكثرَ من غيره، بخلاف هذين النَّوعين، إنَّهما يُحْسَدان كثيراً، ولهذا يوجد بَيْنَ أهل العلم الذين لهم أتباعٌ من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك من له أتباعٌ بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفعُ النَّاسَ بقوتِ القلوبِ، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والنَّاسُ كُلُّهم محتاجون إلى ما يصلُحهم من هذا وهذا»[1].

ومن اللَّطائف أنَّ الإمامَ محمَّدَ بن إبراهيم الوزير ـ يرحمه الله ـ شكَا لابن عمٍّ له كَثْرَةَ الحُسَّاد، فردَّ عليه قائلاً:

وشَكَوْتَ مِنْ ظُلْمِ الحُسَّاد، ولَنْ نجد ... ذا سُؤْدَدٍ إلاَّ أُصِيبَ بحُسَّدِ

لا زِلْتَ ـ يا سِبْطَ[2] الكِرَامِ ـ مُحسَّداً ... والتَّافهُ المسكينُ غيرُ مُحَسَّدِ

وقال أبو الجويرية العبديُّ:

فما زِلْتَ تعطيني ومالِيَ حاسدٌ ... مِنَ النَّاسِ، حتَّى صِرْتُ أُرْجَى وأُحْسَدُ

وقال أبو نُوَاس:

دَعَتْني أُكْثِّرُ حَاسِدِيَّ بِرِحْلَةٍ ... إلى بَلَدٍ فِيهِ الخَصِيبُ أَمِيرُ

وقال البُحْتُرِيُّ:

وأَلْبَسْتَني النُّعْمَى الَّتي غَيَّرَتْ أخي ... عَلَيَّ، فَأَضْحَى نَازِحَ[3] الوُدِّ أَجْنَبَا

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة (ص٢٤٢).

(٢) «سِبْط»: واحد الأَسْبَاطِ، وهو ولد الولد، ويغلبُ على إطلاقه ولد البنت يقابل الحَفِيْدَ ولد الولد.

(٣) «نازح»: بعيد.

وقال أبو الطَّيِّب مُخاطبًا سيفَ الدَّولة:

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عنِّي بكَبْتِهِمْ[(١)] ▫▪▫ فأنت الَّذي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدًا[(٢)]

وكُلَّما ارتفع الإنسان في هذه الحياة، كُلَّما كَثُرَ حُسَّادُهُ، كما قيل:

وإذا الفَتَى بَلَغَ السَّماءَ بمَجْدِهِ ▫▪▫ كانتْ كأعدادِ النُّجوم عِداهُ[(٣)]

وَرَمَوْهُ عَنْ قَوسٍ بكُلِّ عظيمةٍ ▫▪▫ لا يَبْلُغُونَ بما جَنَوْهُ مَداهُ

وغالبًا ما يكون الحَسَدُ سببًا في ازدياد المحسود من الفضائل، وتخلِّيه عن الرَّذائل، كما قيل:

عُداتي لَهُم فَضْلٌ عليَّ وَمِنَّةٌ ▫▪▫ فلا أبْعَدَ الرَّحمنُ عنِّي الأعاديا

هُمْ تجثوا عَنْ سَوْءَتي فاجْتَنَبْتُها ▫▪▫ وهُمْ نافَسُوني فاكْتَسَبْتُ المَعاليا

ويكون الحَسَد ـ أيضًا ـ سببًا في نشر فضائل المحسود، كما قال الطَّائيُّ:

وإذا أراد اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ ▫▪▫ طُوِيَتْ، أتاحَ لَها لِسانَ حَسُودِ

لولا اشْتِعالُ النَّار فيما جاوَرَتْ ▫▪▫ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ[(٤)] العُودِ[(٥)]

لولا التَّخَوُّفُ للعَواقِبِ لَمْ تَزلْ ▫▪▫ للحاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ[(٦)]

---

(١) «كَبَتَهُ»: أذَلَّه.

(٢) يقول: أنت صَيَّرتهم حاسدين لي لما أَفَضْتَ عليَّ من نعمتك، فاصرفْ شَرَّ حسدهم عنِّي بإذلاهم.

(٣) «العِدَى»: الأعداء.

(٤) «العَرْفُ»: الرَّائحة، وأكثرُ استعماله في الطِّيب منها.

(٥) «العُود»: نوع من الطِّيب يُتَبَخَّرُ به، ورائحتُه طيِّبةٌ.

(٦) «عيون الأخبار» (٣/ ٤٠٤).

وأكثر ما يوجد الحَسَد بين الأقران[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ: «وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسةٍ أو مالٍ، إذا أخذ بَعْضُهم قسطًا من ذلك وفات الآخر، ويكون بين النُّظراء لكراهة أحدهما أن يفضلَ الآخرُ عليه: كحسد إخوة يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ وكحسد ابنَيْ آدمَ أحدهما لأخيه، فإنَّ حسده لكون الله تقبَّل قُرْبانَ هذا، فحَسَدَهُ على ما فضَّله الله من الإيمان والتَّقوى ـ كحسد اليهود للمسلمين ـ وقتله على ذلك»[٢].

قال الشَّاعرُ:

أيا حاسداً ليعلى نِعْمَتي ▫▪▫ أتَدْري على مَنْ أسَأْتَ الأدَبْ؟!

أسَأْتَ على اللهِ في حُكْمِهِ؛ ▫▪▫ لأنَّك لم تَرْضَ لي ما وَهَبْ

فأخْزَاكَ ربِّي بأنْ زادني ▫▪▫ وسَدَّ عليك وجُوه الطَّلَبْ[٣]

وقال ابن حبَّانَ ـ يرحمه الله ـ:

«العاقل إذا خَطَرَ ببالِهِ ضَرْبٌ من الحَسَد لأخيه أبلغ المجهود في كِتْمَانِهِ، وتَرْكَ إبداءَ ما خَطَرَ ببالِهِ، وأكثر ما يوجد الحسد بينَ الأقران، أو من تقارب الشكل؛ لأنَّ الكَتَبَةَ لا يحسدها إلاَّ الكَتَبَةُ، كما أنَّ الحَجَبَةَ لا يحسدها إلاَّ الحَجَبَةُ، ولن يبلغَ المرءُ مرتبةً من مراتب هذه الدُّنيا إلاَّ وَجَدَ فيها مَنْ يبغضه عليه، أو يحسده فيها»[٤].

---

(١) «الأقران»: جمع قِرْن، وهو النَّظير في العلم، والشَّجاعة، وغيرهما.
(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية (ص٢٤٨).
(٣) «جواهر الأدب» (ص٧٢١).
(٤) «روضة العقلاء» (ص١٣٦).

قال الشاعر:

حَسَدُوا الفَتَى إذا لم يَنَالُوا سَعْيَهُ ۞ فالنَّاسُ أعْداءٌ له وخُصُومُ

كضَرَائرِ[١] الحَسْناءِ قُلْنَ لوَجْهِهَا ۞ حَسَداً وبُغْضاً: إنَّه لَذَميمُ

▪ أسباب رفع شرِّ الحاسد عن المحسود:

يَنْدَفع شرُّ الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها ـ الاستعاذة من شرِّ هذا الحاسد: كما أمر الله بذلك، فقال: ﴿ **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ (سورة الفلق: ٥).

ثانيها ـ تقوى الله: فمَنِ اتَّقى اللهَ أنجاه من كُلِّ كَرْبٍ في الدُّنيا والآخرة، ولم يكِلْهُ إلى غيره طَرْفَةَ عَيْنٍ، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ (سورة الطلاق: ٢).

وقال الله تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠).

وقال النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: **«يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ[٢]...»**[٣].

ثالثها ـ التَّوكلُ على الله: فهو من أقوى الأسباب التي يدفع بها المحسود ما لا يطيق من أذى الحاسد، وبَغْيه وعُدوانه، فمَنْ توكَّلَ على الله كَفَاه، ومَنْ كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمعَ فيه لعدوِّه.

---

(١) «ضرائر»: جمع ضَرَّة، وهي إحدى زَوْجَي الرَّجل.
(٢) «تُجاهَكَ»: أمامك، فأينما تَوَجَّهْتَ لكان مَعَكَ بالحفظ والإحاطة، والتَّأييد والإعانة.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٩٥٧).

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (سورة الطلاق: ٣).

يقول العلاَّمةَ ابن سَعْديٍّ في تفسير هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ «أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمدَ على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضرُّه ويثق به في تسهيل ذلك: ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكَّل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالةِ الغنيِّ القويِّ العزيز الرَّحيم، فهو أقرب إلي العبد مِنْ كُلِّ شيءٍ، ولكن رُبَّما أنَّ الحكمةَ الإلهيَّةَ اقتضتْ تأخيره إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي: لابُدَّ من نفوذ قضائه وقدره، ولكنَّه: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي: وقتًا ومقدارًا لا يتعدَّاه، ولا يقصر عنه»[(١)].

رابعها ـ الصَّبر على الحاسد: فما نُصِرَ محسودٌ على حَسُودٍ بمثلِ الصَّبر عليه، والتَّوكُّلُ علي الله، فعلى المحسود أنْ يصبر على مَضَضِ[(٢)] حاسده، وألاَّ يستطيل حسد؛ فإنَّ حسده سهامٌ يرميها من نفسه وهو لا يشعر، ولو رأى المحسود ذلك لسَرَّهُ حسده له، لكن لضعف بصيرته لا يرى إلاَّ صورة الحسد دون آخره ومآله.

قال معاوية رضي الله عنه: «**ليس في خِصَالِ الشَّرِّ أعدلُ من الحَسَدِ، يقتلُ الحاسدَ قبلَ أنْ يصلَ إلى المحسود**»[(٣)].

قال ابن المعتزِّ العبَّاسيُّ:

اصبرْ على كَيْدِ الحَسُو ... دِ؛ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فالنَّارُ تأكُلُ بَعْضَهَا ... إنْ لم تجدْ ما تَأْكُلُهْ[(٤)]

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص ٨٧٠).
(٢) «المَضَضُ»: وجع المصيبة.
(٣)، (٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٧٠).

وقال الطغرائي:

اصبرْ على غيظِ الحسودِ؛ فنارُهُ ▫▪▫ ترمي حشاه[١] بالعذابِ الخالدِ
أَوَ ما رأيتَ النارَ تأكلُ نفسَها ▫▪▫ حتَّى تعودَ إلى الرمادِ الهامدِ؟!
تَضْغُو[٢] على المحسودِ نعمةُ ربِّهِ ▫▪▫ ويذوبُ مِنْ كَمَدٍ[٣] فؤادُ الحاسدِ[٤]

خامسها ـ فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد، والفِكْر فيه: فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يخطره بباله، فإذا خطَر بباله بادر إلى مَحْو ذلك الخاطر، واشتغل بما هو أنفع له وأولى به.

قال حاتم:

وكلمةِ حاسدٍ مِنْ غيرِ جُرْمٍ[٥] ▫▪▫ سمعتُ، فقلتُ: مُرِّي فانفذيني
وعابوها عليَّ، ولم تَعِبْني ▫▪▫ ولمْ يَنْدَ[٦] لها أبداً جَبِيني

وقال آخر:

دَعِ الحَسُودَ وما يَلْقَاهُ مِنْ كَمَدٍ ▫▪▫ يَكْفِيكَ مِنْهُ لَهِيبُ النَّارِ في كَبِدِهْ
إنْ لُمْتَ ذا حَسَدٍ نَفَّسْتَ كُرْبَتَهُ ▫▪▫ وإنْ سَكَتَّ فَقَدْ عَذَّبْتَهُ بِيَدِهْ[٧]

---

(١) «الحشا»: ما انضمَّت عليه الضُّلُوعُ، جمعه: أحشاء.
(٢) «تَضْغُو»: تربو وتكثر.
(٣) «الكَمَدُ»: الحزن الشَّديد.
(٤) «جواهر الأدب» (ص٧٠٤).
(٥) «جُرْم»: ذَنْب.
(٦) «لم يَنْدَ»: لم يَعْرَقْ.
(٧) «جواهر الأدب» (ص٧٢١).

سادسها - الإقبال على الله، والإخلاص له: فمن كان قلبه عـامرًا بمحبَّة الله وإجلاله، وطلب مرضاته، وذكره كما يذكر المحبُّ التَّامُّ المحبَّة محبوبَهُ المحسنَ إليه - لم يبقَ في قلبه متَّسعٌ للفِكْر في حاسده، والطَّريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه.

قـال الله تعالى: في حقِّ الصِّـدِّيق يُوسُفَ - عليه السلام -: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ (سورة يوسف: ٢٤).

سابعها - تجريد التَّوبة النُّصوح إلى الله من الذُّنوب التي سَلَّطَتْ عليه حُسَّاده: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ (سورة الشورى: ٣٠).

وقال لخـير الخلق - وهم أصحاب نبـيِّه دونه ﷺ -: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

فما سُلِّطَ على العـبد مُؤْذٍ إلاَّ بذنبٍ يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمـه العبد من ذنوبه أضعـاف أضعاف ما يعلمـه منها، وما ينساه ممَّا عـمله أضعاف ما يـذكره، فإذا عُوفيَ العبدُ من الذُّنوب عُوفيَ من موجباتها.

لقي بعضَ السَّـلف رجلٌ، فـأغلظ له، ونال منه، فـقـال له: قِفْ حـتَّى أدخلَ البيتَ، ثُمَّ أخـرج إليك، فدخل فسجـد لله، وتـضـرَّعَ إليه، وتاب وأنـاب إلى ربِّـه، ثُمَّ خـرجَ إليه. فـقـال لـه: ما صنـعتَ؟. فقـال: تبـتُ إلـى الله من الذَّنـب الذي سَلَّطك بِهِ عليَّ.

فعلى المحـسود أنْ يعكس فكره ونظره على نفـسه وذنوبه، فيشـتغل بإصلاحـها وبالتَّوبة منها، حينها لن يبقى فيـه فراغٌ لتدبُّر ما نزل به، بل يتولَّى هو التَّوبة وإصلاح عُيُوبه، والله يتولَّى نصرته وحفظه، والدَّفع عنه ولابُدَّ.

ثامنها ـ الصَّدقة والإحسان من المحسود إلى العباد ما أمكنه: فما حَرَسَ العبدُ نعمةَ الله عليه من كُلِّ ما يكون سببًا لزوالها بمثل شكرها، فالشُّكر ـ كما قال العلماء ـ قيدٌ للموجود، وصيدٌ للمفقود.

عن أنسٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**صَنَائعُ المعروفِ تقي مَصَارعَ السُّوءِ، والآفات، والهَلَكَاتِ، وأهلُ المعروفِ في الدُّنيا هُمْ أهلُ المعروفُ في الآخرةِ**»[1].

وحسد الحاسد من أقوى الأسباب لزوال النِّعم؛ فإنَّه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتَّى تزولَ النَّعمةُ عن المحسود، كما قال الطّغْرائيُّ:

«جامِلْ عَدُوَّكَ ما اسْتَطَعْتَ؛ فإنَّهُ ... بالرِّفْقِ يُطْمَعُ في صَلاحِ الفاسِدِ

واحذَرْ حَسُودَكَ ما استطعتَ؛ فإنَّهُ ... إنْ نِمْتَ عَنْهُ فليس عَنْكَ بِراقِدِ

إنَّ الحَسُودَ ـ وإنْ أراكَ تَوَدُّدًا ... مِنْهُ ـ أضرُّ مِنَ العَدُوِّ الحاقِدِ

ولَرُبَّما رَضيَ العَدُوُّ إذا رَأى ... مِنْكَ الجميلَ، فصارَ غَيْرَ مُعانِدِ

ورِضَى الحَسُودِ زوالُ نِعْمَتِكَ الَّتي ... أُوتيتَها مِنْ طارِفٍ[2]، أو تالِدِ[3]»[4]

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٣٧٩٥)، و«الصَّحيحة» (١٩٠٨).

(٢) «طارف»: الأحوال الجديدة.

(٣) «تالد»: الأحوال القديمة.

(٤) «جواهر الأدب» (ص٧٠٤).

وقال محمودُ الورَّاقُ:

أعطيتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نفسي الرِّضَى ○■○ إلاَّ الحَسُودَ، فإنَّه أعْيَاني
ما إنَّ لي ذَنْبًا إلَيْهِ علمتُهُ ○■○ إلاَّ تظاهرَ نعمةِ الرَّحمن
وأبى فما يُرْضيهُ إلاَّ ذِلَّتي ○■○ وذهابُ أمْوَالي، وقَطْعُ لِسَاني[(١)]

فعلى المحسود أنْ يكثر من صنائع المعروف؛ فإنَّ لها أثرًا عجيبًا في دفع البلاء، وشرِّ الحاسدِ، فقلَّما يتسلَّط الحسدُ على محسنٍ متصدِّقٍ، وإنْ أصابه شيءٌ من ذلك، كان معاملاً فيه باللُّطف والمعونة والتَّأييد، وكانتْ له فيه العاقبةُ الحميدةُ.

تاسعها ـ عدم إخبار الحاسد بنعمة الله عليك: لأنَّ ظهور الفَضْلِ يثيرُ الحسد، وحدوث النَّعمة يُضاعف الكَمَد؛ ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: **«استعينوا على إنجاحِ الحَوائجِ بالكِتْمانِ؛ فإنَّ كُلَّ ذي نعمةٍ مَحْسُودٌ»**[(٢)].

عاشرها ـ الإحسان إلى الحاسد: وهو من أصعب الأسباب على النَّفس وأشقِّها علينا، ولا يوفَّق له إلاَّ مَنْ عَظُمَ حظُّه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد بالإحسان إليه، فكلَّما ازداد أذىً وشرًّا، وبغيًا وحسدًا، ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً.

وممَّا يهوِّن هذا على نفس المحسود، ويطيِّبه إليها، وينعمُها به الآتي:

١ ـ أنْ يعلم أنَّ مَنْ قابلَ إساءة العباد بالإحسان إليهم قابل الله إساءته ـ وكلُّنا ذوو خطأٍ ـ بالإحسان إليه؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تُدَان.

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٧٣).
(٢) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير»، وأبو نُعَيمٍ في «الحلية» عن معاذِ بن جَبَلٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٢٩٤٣)، وهو في «الصَّحيحة» (١٤٥٣).

٢ ـ أن يعلم أنَّ ذلك سببٌ لحصوله على نصر الله، ومعيَّته الخاصَّة، كما قال النَّبيُّ ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنَّه يحسنُ إليهم، وهم يُسيئون إليه ـ: **«لا يزالُ معَكَ مِنَ اللهِ ظهيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلك»**[1].

٣ ـ أنْ يعلم أنَّ النَّاس يُثْنون على مَنْ كان هذا حاله، ويصير كُلُّهم معه على خصمه، فإنَّ كُلَّ مَنْ سمع أنَّه محسنٌ إلى ذلك الغير، وهو مسيءٌ إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمَّته مع المحسن على المسيء، وذلك أمرٌ فطريٌ فطر اللهُ عليه عبادَهُ.

ولابُدَّ للمحسود المحسن إلى حاسده من إحدى حالتين:

إمَّا أن يملكه بإحسانه فيستعبده، وينقاد له، ويذلُّ له، ويبقى من أحبِّ النَّاس إليه، كما قال أبو الفتح البُسْتيُّ:

أحسنْ إلى النَّاسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ ... فطالمَا استعبدَ الإنسانَ إحسانُ[2]

وإمَّا يفتِّتَ كبده، ويقطع دابره، إنْ أقام على إساءته إليه، فإنَّه يذيقه بإحسانه أضعافَ ما ينالُ منه بانتقامه[3].

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «جواهر الأدب» (ص ٦٧٠).

(٣) انظر: «التفسير القيِّم» لابن القيِّم (٥٨٥, ٢٩٣)، فهذه الأسباب ـ ما عدا السَّبب التَّاسع ـ أخذتها منه، وقد دخلها هنا تغييرٌ اقتضاه الإيجاز من تقديمٍ وتأخيرٍ، وزيادةٍ وحذفٍ...

غَضُّ البَصَر

غَضُّ البصر: من أهمِّ الصِّفات الَّتي يتحلَّى به المؤمن، فالبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمرُ طرق الحَوَاس إليه، وبحسب ذلك كثر السُّقوط من جهته، ووجب عن جميع المحرَّماتِ، وكُلِّ ما يخْشَى الفتنة من أجله(١).

قال الشَّاعرُ:

كُلُّ الحَوَادثِ مَبْدَؤُها مِنَ النَّظَرِ ... ومُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرةٍ فَتَكَتْ في قلب صاحبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ

وصفاته أنْ يغمضَ المسلمُ بصره عمَّا حُرِّم عليه، ولا ينظر إلاَّ لما أُبيحَ النَّظر إليه، ويدخل فيه ـ أيضًا ـ إغماض الأبصار عن المحارم، فإن اتَّفقَ أنْ وقع البصرُ على مُحَرَّمٍ مِنْ غير قَصْدٍ، فليصرفْ بَصَرَهُ سريعًا.

وغَضُّ البصر من مكارم الأخلاق.

فعن عُبادةَ بن الصَّامتِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اضْمَنُوا لي ستاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أضمَنْ لكُمُ الجنَّةَ: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ، وأَوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ، وأَدُّوا إذا اؤْتُمِنْتُمْ، واحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وغَضُّوا أبصارَكُمْ، وكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»**(٢).

(١) «تفسير القُرْطبيُّ» (٢/ ١٤٨).
(٢) رواه أحمدُ ـ واللَّفظ له ـ (٥/ ٣٢٣). والحاكمُ (٤/ ٣٥٨ - ٣٥٩). والخَرَائطيُّ في «مكارم الأخلاق» (٣١)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٠١٨)، و«الصَّحيحة» (١٤٧٠).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أنَّهُ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن نَظَرِ الفُجَاءَةِ، فأمَرَني أنْ أصرفَ بَصَري»[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّباب، مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ[٢] فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنَّهُ أغضُّ للبَصَرِ، وأحْصَنُ للفَرْجِ، ومَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فعليه بالصَّوم؛ فإنَّه له وِجَاءٌ[٣]»[٤].

فعليك ـ أخي في الله ـ أنْ تغُضَّ بصرك عمَّا حَرَّم الله فإنَّ: «حِفْظ البَصَرِ أشَدُّ مِنْ حِفْظِ اللِّسان»[٥]. كما قال ذلك عبدُ الله بن مسعودٍ ﷺ.

وقال أنسُ بن مالك ﷺ: «إذا مرَّت بك امرأةٌ، فغمِّضْ عَيْنَيْكَ حتَّى تجاوزَك»[٦].

ولابُدَّ من غَضِّ البصر عن غير المحارم، حتَّى ولو كانت المنظور إليها فتاةً صغيرةً.

قال الزُّهْريُّ ـ يرحمه الله ـ في النَّظر إلي التي لم تَحِضْ من النِّساء: «لا يصلحُ النَّظرُ إلى شيءٍ مِنْهُنَّ ممَّن يشتهي النَّظر إليه، وإنْ كانتْ صغيرةً»[٧].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢١٥٩).

(٢) «الباءة»: الزَّواج.

(٣) «وجاء»: جُنَّةٌ ووقاية.

(٤) رواه البخاريُّ (١٩٠٥) و(٥٠٦٥) و(٥٠٦٦)، ومسلمٌ (١٤٠٠).

(٥) «الورع» لابن أبي الدُّنيا (ص٦٢).

(٦) المرجع السَّابق (ص٦٦).

(٧) «فتح الباري» (١١/٩).

وأسباب غَضِّ البصر كثيرة[١]، لكن أعظم سببٍ لغضِّ البصر هو تقوى الله، كما قال الإمامُ ابن رقيق العيد ـ يرحمه الله ـ: «إنَّ التَّقْوَى سببٌ لغضِّ البَصَرِ، وتحصينِ الفَرْجِ»[٢].

قال الشَّاعِرُ:

وغُضَّ عَنِ المحارمِ مِنْكَ طَرْفًا[٣] ... طَمُوحًا، يَفْتِنُ الرَّجُلَ الدَّبِيبَا
وخائنةُ العُيُونِ كَأُسْدِ غَابٍ ... إذا ما أُهْمِلَتْ وَثَبَتْ وُثُوبا
ومَنْ يَغْضُضْ فُضُولَ الطَّرْفِ عَنْهَا ... يجدْ في قلبِهِ رَوْحًا[٤] وطِيبا

(١) انظر: كتابي «فتنة النَّظر»، يَسَّر الله طبعه، فقد تكلَّمْتُ فيه عن غَضِّ البصر بتوسُّعٍ، وكذلك فوائد غَضِّ البصر.
(٢) «فتح الباري» (١١/٩).
(٣) «الطَّرْف»: البصر.
(٤) «رَوْحًا»: راحةً.

الغَيْرَةُ

الغَيْرَةُ: هي ما ركَّبَهُ اللهُ في العبد من قُوَّةٍ روحيَّةٍ، تحمي المحارمَ والشَّرَفَ والعفافَ، وهي ـ كما عرَّفها ابنُ حَجَرٍ ـ مشتقَّةٌ من تغيُّرِ القلب، وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشدُّ ما يكون ذلك بين الزَّوجين[(١)].

وهي ـ مع ذلك ـ خُلُقٌ محمودٌ من أخلاق المؤمنين، تدلُّ على كمال الرُّجولة، وعُلُوِّ الهمَّة، وأصالةِ الأخلاق، وطيبِ الأعراق، بل إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يغارُ، ولا أحدَ من عباده أغيرُ منه.

عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحَدَ أغيرُ مِنَ اللهِ؛ ولذلك حرَّمَ الفَوَاحِشَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ**»[(٢)].

وعن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**المؤمنُ يغارُ للمؤمنِ، واللهُ أشَدُّ غيرًا**»[(٣)].

وعنه ـ أيضًا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَغَارُ، وإنَّ المؤمنَ يَغَارُ، وغَيْرَةُ اللهِ أنْ يأتيَ المؤمنُ ما حَرَّمَ عليه**»[(٤)].

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٢٠)، وانظر: «التَّعريفات» للجرجانيِّ (ص١٦٣)، والتَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف (ص٢٥٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٦٣٤) و(٤٦٣٧) و (٥٢٢٠) و(٧٤٠٣)، ومسلمٌ (٢٧٦٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٧٦١).

وعَنِ المُغيْرَةَ بن شُعْبَةَ قال: قال سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربْتُه بالسَّيفِ غيرَ مُصْفَحٍ[1] عنه». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أتعجبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فوالله لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ منّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغيرُ مِنَ الله»[2].

وكما تكون الغَيْرَةُ في الرِّجال، تكون في النِّساء، فهي غريزةٌ يشترك فيها الرِّجالُ والنِّساء، بل قد تكونُ من النِّساء أشدَّ.

فعن عائشة رضي الله عنها قالتْ: استأْذَنَتْ هَالَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ أختُ خَديجةَ على رسول الله ﷺ، فعَرَفَ اسْتئذانَ خَديجةَ[3]، فارتاح لذلك[4]، فقال: «اللهمَّ، هالَةُ بنتُ خُوَيلدٍ» فَغِرْتُ فقلْتُ: «وما تَذْكرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عجائزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ[5]، خَمْشَاءِ السَّاقَيْنِ، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، فأبْدَلك اللهُ خيراً منها»[6].

وعنها ـ أيضًا ـ قالتْ: كان رسولُ الله ﷺ إذا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نسائه، فطارَتِ القُرْعَةُ على عائشةَ وحَفْصَةَ، فخَرَجَتا معه جميعًا، وكان رسولُ الله ﷺ إذا كان اللَّيلِ سَارَ مع عائشةَ، يتحدَّثُ معها، فقالتْ حَفْصَةُ لعائشةَ: «ألا تَرْكَبِينَ اللَّيلةَ بَعِيري، وأَرْكَبُ بَعِيرَك، فَتَنْظُرِينَ وأَنْظُرُ؟». قالتْ: «بلى». فَركبتْ عائشةُ على بعيرِ حَفْصَةَ، وركبتْ حفصةُ على بعيرِ عائشةَ،

---

(١) «غيرَ مُصْفَحٍ»: أي: ضاربه بحدِّ السَّيف، لا بصَفْحه، وصَفْحُ السَّيف: عرضه وجانبه، فالذي يضرب بالحَدِّ يقصد القتل بخلاف الذي يضرب بعرضِ السَّيف، فإنَّه يقصد التَّأديب.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦) و(٧٤١٦)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (١٤٩٩).

(٣) وذلك لشِبْه صوتها بصوت أختها، فتذكَّر خديجةَ بذلك.

(٤) «فارتاح لذلك»: أي هشَّ لمجيئها، وسرَّ بها لتذكُّره بها خديجةَ وأيَّامَها.

(٥) «حمراء الشِّدْقَين»: تعني أنَّها كبيرةٌ في السِّنِّ جدًا، قد تساقطتْ أسنانها.

(٦) رواه البخاريُّ (٣٨٢١)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٤٣٧).

فجاء رسولُ الله ﷺ إلى جَمَلِ عائشةَ وعليه حفصةُ، فسلَّم ثُمَّ سار معها حتَّى نَزَلُوا، فافتقدَتْهُ عائشةُ فغارتْ، فلمَّا نزلوا جعلتْ تجعلُ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ[(١)]، وتقول: يا رَبِّ، سَلِّطْ عليَّ عَقْرَبًا أو حَيَّةً تَلْدَغُني، رسولُكَ ولا أستطيعُ أنْ أقولَ له شيئًا»[(٢)].

وعنها ـ أيضًا ـ قالتْ: كُنْتُ أغارُ على اللاَّتي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لرسولِ الله ﷺ، وأقول: «أوَتَهبُ المرأةُ نَفْسَهَا؟!» فلمَّا أنزل ومَن عزَّ وجلَّ: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ (سورة الأحزاب: ٥١).

قالتْ: «قلتُ: واللهِ، ما أرى ربَّك إلاَّ يُسَارِعُ لَكَ في هَوَاكَ[(٣)]»[(٤)].

■ *أقسام الغَيْرَة:*

تنقسمُ الغَيْرَةُ إلى قسمين:

١ ـ محمودة: وهي الغَيْرَةُ في الرِّيبَةِ.

٢ ـ مذمومة: وهي الغَيْرَةُ في غير رِيبَةٍ.

فعن أبي هُرَيرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِنَ الغَيْرَةِ ما يحبُّ اللهُ، ومنها ما يَكْرَهُ اللهُ، فأمَّا ما يحبُّ اللهُ فالغَيْرَةُ في الرِّيبَةِ، وأمَّا ما يَكْرَهُ فالغَيْرَةُ في غَيْرِ رِيبَةٍ»[(٥)].

---

(١) «الإذْخِر»: نبت معروف طيِّب الرَّائحة، توجد فيه الهَوَامُّ غالبًا في البريَّة.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢١١)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (٢٤٤٥).

(٣) «يُسَارِعُ لك في هَوَاكَ»: أيْ يُخفِّفُ عنك، ويُوسِّعُ عليك في الأمورِ، ولهذا خيَّركَ.

(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٨٨) و (٥١١٣)، ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ (١٤٦٤).

(٥) رواه ابن مَاجَهْ (١٩٩٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٢٩٠٥).

قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ ـ يرحمه الله ـ:

«فالغيــرةُ المحبوبةُ هي ما وافقت غَـيْرَةَ الله سبحانه وتعـالى، وهذه الغَيْرَة هي أنْ تُنْتهَكَ مَحَارمُ اللهِ، وهي أنْ تُؤْتى الفَوَاحِشُ الباطنةُ والظَّاهرة، لكن غَيْرة العبد الخاصَّةِ هي من أنْ يشركه الغير في أهله، فغيرته من فاحشةِ أهله ليس كَغَيْرَتِهِ من زنى الغير؛ لأنَّ هذا ما يتعلَّقُ به، وذاك لا يتعلَّقُ به إلاَّ من جهة بغُـضه لمبغضة الله، ولهذا كانت الغَيْرَةُ الواجـبة عليه هي من غيرتِهِ على أهله، وأعـظمُ ذلك امرأته، ثُمَّ أقاربه، ومَنْ تَحْتَ طاعتِهِ؛ ولهذا كان له إذا زَنَتْ أنْ يُلاعنَـهَا؛ لما عليه في ذلك من الضَّرر خلاف ما إذا زَنَى غير امرأته.

ولهذا يُحَدُّ قاذف المرأة التي لم يكملْ عقلها ودينهـا، إذا كان زوجها مُحْصَنًا في أحد القولين، وهذا أحد الرَّوايتين عن أحمدَ.

فالغيرة الواجبة ما يتضمَّنه عن المخزي، والغيرة المستحبَّة ما أوجبتْ المستحبَّ من الصِّيانة.

وأمَّا الغيرة في غيـر الرِّيْبة ـ وهي الغيرة في مُبَاحٍ لا رِيْبَةَ فيـه ـ فهي ممَّا لا يحبُّه اللهُ، بل ينهى عنه إذا كـان فيه تَرْكُ مـا أمر اللهُ؛ ولهـذا قال النَّبيُّ ﷺ: **«لا تمنعوا إمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ، وبُيُوتُهنَّ خَيْرٌ لَهنَّ»**[1] [2].

---

(١) رواه مسلم (٤٤٢).

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّةَ (ص١٥٦).

وضِدُّ الغيرةِ الدّياثةُ، وضِدُّ الغَيُورِ الدَّيُّوثُ: وهو الذي يقرُّ السُّوء في أهله، ويسمح لأهله بالنَّظر للرِّجالِ العُرَاةِ في التِّلْفَازِ، وهم يعانقون النِّساءَ، أو يتحدَّثون مَعَهُنَّ، ولا غيرةَ لهم عليهنَّ، فالدَّيُّوثُ منحطُّ القَدْر، دنيْءُ الهمَّةِ، عديمُ الشَّرف، لا يسودُ قومَهُ، بل لا يسود قومه إلاَّ غَيُورٌ على مَحَارمه.

والدَّياثة كبيرةٌ من كبائر الذُّنوبِ.

فعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«ثلاثةٌ قَدْ حَرَّمَ اللهُ عليهمُ الجنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، والعَاقُ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُّ في أهْلِهِ الخُبْثَ»**[1].

(١) رواه أحمدُ في «المسند»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٥٢).

عَدَمُ الانْشِغَالِ بعُيُوبِ النَّاس

العاقل هو الَّذي ينشَغلُ بعُيُوب نفسه عن عيوب غيره، ومَنْ كان هذا حَالَهُ فلابُدَّ أنْ ترتاحَ له النُّفوس، وتأنسُ بقربه القلوب، فهو محبوبٌ أينما حلَّ وارْتَحلَ.

ولا ينشغلُ بعُيُوب النَّاس عن عيب نفسه إلاَّ غيرُ الواثق بنفسه، الذي يحاول أنْ يغطِّي عُـيُوبَهُ بذلك الأسلوب الرَّخيص، وقد سمع أعرابيٌّ رجلاً يقع في النَّاس، فقال: «قَدِ استَدْلَلْتُ على عُيُوبِكَ بكَثْـرَةِ ذِكْرِك لعيوب النَّاسِ؛ لأنَّ الطَّالبَ لها يَطْلُبُهَا بقَدْر ما فيه منها».

والإنسان ـ لنَقْصِه ـ يتوصَّلُ إلى عيب أخيه مع خفائِه، ويَنْسَى عيبَ نفسه مع ظهوره ظهورًا مستحكمًا لا خفاءَ به.

فعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول اللهُ ﷺ: **«يُبْصِرُ أحدُكُمُ القَذَى[(١)] في عَيْنِ أخيه[(٢)]، ويَنْسَى الجِذْعَ[(٣)] في عَيْنِه»[(٤)].**

قال الشَّاعرُ:

قَبيحٌ مِنَ الإنسانِ أنْ يَنْسَى عُيُوبَهُ ... ويَذْكُرَ عَيْبًا في أَخِيهِ قَدِ اخْتَفَى

ولو كانَ ذا عَقْلٍ لَمَا عَابَ غَيْرَهُ ... وفيهِ عُيُوبٌ لو رَآها قَدِ اكْتَفَى

---

(١) «القذى»: ما يقع في العين مِنْ تُرابٍ أو وَسَخٍ.

(٢) أي في الإسلام.

(٣) «الجذع»: واحد جُذُوع النَّخل.

(٤) رواه ابن حِبَّانَ في «صحيحه» (١٨٤٨)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحلية» (٤/ ٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٨٠١٣)، و«الصَّحيحة» (٣٣).

وقال الآخر:

إذا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وأَكْثَرُوا ... عليك، وأَبْدُوا منْكَ ما كان يُسْتَرُ
وقد كان في بَعْضِ الأقاويل قائلٌ ... لَهُ منطقٌ فيه كلامٌ مُحَيَّرُ
إذا ما ذكرْتَ النَّاسَ فاتْرك عُيُوبَهُمْ ... فلا عَيْبَ إلاَّ ما دونَ ما منْكَ يُذْكَرُ
وإنْ عِبْتَ قومًا بالَّذي ليس فِيهِم ... فـذلك عندَ اللهِ والنَّاسِ أَكْبَرُ
وإنْ عِبْتَ قومًا بالَّذي فيك مِثْلُهُ ... فكيف يَعيبُ العُوْرَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ؟!
وكيف يعيبُ النَّاسَ مَنْ عَيْبُ نَفْسِهِ ... أَشَدُّ إذا عَدَّ العُيُوب وأَنْكَرُ؟!
مَتَى تلتمسْ للنَّاسِ عَيْبًا تجدْ لَهُمْ ... عُيُوبًا، ولكنَّ الَّذي فيك أَكْثَرُ
فسالمهم بالكَفِّ عَنْهُمْ؛ فإنَّهُمْ ... بعَيْبِكَ مِنْ عَيْنَيْكَ أَهْدَى وأَبْصَرُ[(١)]

ولابُدَّ للمرء مِن الوَرَعِ والكَفِّ عن عيوب النَّاس، فقد تكون الغَفْلَةُ عن عيوب النَّفس هي السَّبَبَ، كما قال عَونُ بن عبد اللهِ: «لا أَحْسَبُ الرَّجلَ ينظر في عيوب النَّاسِ إلاَّ مِنْ غفلة، قَدْ غفلها عن نفسِهِ»[(٢)].

وقال بكرُ بْنُ عبد اللهِ: «إذا رأيتُمُ الرَّجُلَ مُوَكَّلاً بعيوبِ النَّاس، ناسيًا لعَيْبِهِ - فاعلموا أنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ»[(٣)].

ولقي وَرِعٌ وَرِعًا، فقال له: «يا أخي، إنِّي لأُحِبُّكَ في اللهِ». قال الآخرُ: «لو علمتُ مِنْكَ ما تعلمُ من نفسِكَ، لكان لي فيما أعلم من نفسي شغلٌ عن بُغْضِكَ»[(٤)].

(١) «روضة العقلاء» (ص٢١٠-٢١١).
(٢) «صفة الصَّفوة» (٣/ ١٠١).
(٣) المرجع السَّابق (٣/ ٢٤٩).
(٤) «عيون الأخبار» (٦/ ٣٦٧).

قال الشَّاعرُ:

المَرْءُ إنْ كانَ عاقلاً ورِعًا ▪▪▪ أشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ وَرَعُهْ
كما العليلُ السَّقيمُ أشْغَلَهُ ▪▪▪ عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهْ

ولا ينشغلُ بعيوب النَّاسِ عن عُيُوب نَفْسِهِ إلاَّ مَنْ سفلتْ نفسُهُ، وتعدَّتْ به همَّتُهُ عن نيل مكارم الأخلاق ومعاليها، بل لقدْ عَدَّ الإمامُ السَّخاويُّ ـ يرحمه الله ـ الانشغال بعيوب النَّاسِ مِنْ خَوَارِمِ المُرُوءة.[1]

ومَنْ كَلَّفَ نفسَهُ البَحْثَ عن عيوب النَّاس، بَحَثَ النَّاسُ عن عُيُوبِهِ؛ فالجزاء من جنس العمل.

قال الأعمشُ: سمعتُ إبراهيمَ يقولَ: «إنِّي لأرى الشَّيْءَ أكْرَهُهُ، فما يَمْنَعُني أنْ أتكلَّمَ فيه إلاَّ مَخَافَةُ أنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ»[2].

وقال ابن سِيرِينَ ـ يرحمه الله ـ: «عَيَّرْتُ رجلاً، وقلتُ: يا مُفْلِسُ، فأفلسْتُ بَعْدَ أربعين سنةً»[3].

قال الشَّاعرُ:

لا تَكْشِفَنَّ عَنْ مَسَاوِي النَّاسِ ما سَتَرُوا ▪▪▪ فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا
واذْكُرْ مَحَاسِنَ ما فيهِمْ إذا ذُكِرُوا ▪▪▪ ولا تَعِبْ أحَدًا مِنْهُمْ بما فِيكَا

(١) «فتح المغيث» للسَّخاويِّ (١/ ٢٩١).
(٢) رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٧٧٥).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤٠).

حِفْظُ اللِّسانِ

منح الله سبحانه وتعالى الإنسانَ نعمًا عظيمةً، ومن أعظمها ـ بَعْدَ نعمةِ الهُدَى والإيمان ـ نعمةُ اللِّسان، ومن شُكْران هذه النَّعمة أنْ نستخدمها في طاعة الله، والامتناع عن النُّطق بما لا يسوغ شرعًا ممَّا لا حاجةَ للمتكلِّم به[1].

والإنسان مسئولٌ عمَّا قاله أو تلفَّظَ به، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ**[2] **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ (سورة الإسراء: ٣٦).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**[3]﴾ (سورة ق: ١٨).

فعلى الإنسان أنْ يتحفَّظَ من حركة لسانه، فلا يتكلَّمُ إلاَّ بما هو خيرٌ، وإلاَّ فالسُّكوتُ عنه أفضل من التَّكلُّم به، اللهُمَّ إلاَّ ما تدعو إليه الحاجةُ ممَّا لابُدَّ منه.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ كان يؤمنُ بالله، واليومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خيراً أو ليَصْمُتْ**»[4].

---

(١) «فتح الباري» (١١/٣٠٨).

(٢) «لا تَقْفُ»: لا تتبعْ.

(٣) «رقيبٌ عَتيد»: مَلَكٌ يرقبه حاضرٌ.

(٤) رواه البخاريُّ (٦٠١٨) و(٦١٣٦) و(٦١٣٨) و(٦٣٧٥)، ومسلمٌ (٤٧).

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «وهذا الحديث صريحٌ في أنَّه ينبغي ألاَّ يتكلَّمَ إلاَّ إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظهرتْ مَصْلَحَتُهُ، ومتى شكَّ في ظهور المصلحةِ، فلا يتكلَّم»[(١)].

قال الشَّاعرُ:

الصَّمْتُ زَيْنٌ، والسُّكُوتُ سَلامَةٌ ◘◘◘ فإذا نَطَقْتَ فلا تَكُنْ مِكْثَارًا

فإذا نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِكَ مَرَّةً ◘◘◘ فَلَتَنْدَمَنَّ على الكلامِ مِرَارا[(٢)]

وقال آخرُ:

إنَّ القليلَ مِنَ الكلامِ بأَهْلِهِ ◘◘◘ حَسَنٌ، وإنَّ كَثِيرَهُ مَمْقُوتُ

ما زلَّ ذو صَمْتٍ، وما مِنْ مُكْثِرٍ ◘◘◘ إلاَّ يزلُّ، وما يُعَابُ صَمُوتُ[(٣)]

وقال عبدُ اللهِ بن المبارك:

واغْتَنِمْ ركعتينِ زُلْفَى إلى اللهِ ◘◘◘ إذا كُنْتَ فارغًا مستريحَا

وإذا ما هَمَمْتَ بالمنطقِ الباطلِ ◘◘◘ فاجعلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا

إنَّ بَعْضَ السُّكُوتِ خيرٌ مِنَ النُّطقِ ◘◘◘ وإنْ كُنْتَ بالكلامِ فَصِيحَا

والأحاديث في بيان خطر اللِّسان، وشرِّه على المَرْء ـ ما لم يضبطه ـ كثيرةٌ، منها حديث عُقْبَةَ بن عامرٍ ﷺ قال: «يا رسولَ الله، ما النَّجاةُ؟». قال: «أَمْلِكْ عليكَ لسانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ على خطيئَتِكَ»[(٤)].

---

(١) «رياض الصَّالحين» (ص٤٤٥).

(٢)، (٣) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ١٣٩٢)، و«الصَّحيحة» (٨٩٠).

وعن سُفْيانَ بن عبد الله الثَّقَفيِّ قال: قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، حدِّثْني بأمرٍ أعتصمُ به». قال: «قُلْ: ربِّيَ اللهُ، ثُمَّ استَقِمْ». قلتُ: «يا رسولَ اللهِ، ما أخْوَفُ ما تخافُ عليَّ؟». فأخَذَ بلسانِ نفسِهِ، ثُمَّ قال: «هذا»(١).

ولَمَّا دلَّ مُعَاذًا على خِصَالِ الخير ـ الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحَجِّ، والصَّدقة، وقيام اللَّيل، والجهاد ـ قال له رسول الله ﷺ: «ألا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذلك كُلِّهِ؟». قال: «بَلَى، يا رسولَ اللهِ». فأخَذَ بلسانِهِ، وقال: «كُفَّ عليكَ هذا». قال: «يا نبيَّ اللهِ، وإنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نتكلَّمُ بِهِ؟!». فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ(٢) يا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ ـ أو على مَنَاخِرِهِمْ ـ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»(٣).

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا أصبحَ ابنُ آدمَ، فإنَّ الأعْضَاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسَانَ(٤)، فتقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّما نَحْنُ بِكَ، فإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»(٥).

وحفظ اللِّسان عمَّا لا خيرَ فيه من أعظم أعمال ابن آدمَ.

فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ(٦)، وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ(٧)، أضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(٨).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٠)، وقال: حَسَنٌ صحيحٌ، وابنُ ماجَهْ (٣٩٧٢).
(٢) «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ»: فَقَدَتْكَ.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وابن ماجَهْ (٣٩٧٣)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٥١٣٦).
(٤) «تُكَفِّرُ اللِّسانَ»: تَذِلُّ وتَخْضَعُ له، أو هو كنايةٌ عن تنزيل الأعضاء اللِّسانَ منزلة الكافر بالنِّعم.
(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١/٣٥١).
(٦) «ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ»: هو اللِّسانُ، و«اللَّحيان»: هما العظمان اللَّذان تنبتُ عليهما الأسنانُ.
(٧) «ما بَيْنَ رِجْلَيْهِ»: هو الفَرْجُ.
(٨) رواه البخاريُّ (٦٤٧٤) و(٦٨٠٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إسلام المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ**»(١).

وغالب كلام ابن آدم عليه لا له.

فعن أُمِّ المؤمنين أمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**كلامُ ابنِ آدمَ عليه لا له، إلاَّ أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن المنكرِ، أو ذكرُ اللهِ**»(٢).

فإذا كان الأمرُ كذلك، فحَرِيٌّ بالعاقل أنْ يحفظَ لسانَهُ؛ لأنَّها قَدْ تَزِلُّ على حِينِ غفلة منه.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يتبيَّنُ**(٣) **ما فيها، يَهْوِي بها في النَّارِ أَبْعَدَ ما بَيْنَ المشرقِ والمغربِ**»(٤).

وعنه ـ أيضًا ـ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ العبدَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ من رِضْوَانِ اللهِ، لا يُلْقي لها بالاً، يرفعُهُ اللهُ بها درَجاتٍ، وإنَّ العبدَ لَيَتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقي لها بالاً، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ**»(٥).

قال ابنُ حجرٍ ـ يرحمه الله ـ: «لا يُلْقي لها بالاً: أي: لا يتأَمَّلُها بخاطره، ولا يتفكَّرُ في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثِّرُ شيئًا»(٦).

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن مَاجَهْ (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٩١١).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٤١٢)، وابن مَاجَهْ (٣٩٧٤)، وحسَّنه الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١١/ ٧٣١).
(٣) «يتبيَّن»: يفكِّرُ أنَّها خيرٌ أم لا.
(٤) رواه البخاريُّ (٦٤٧٧)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢٩٨٨).
(٥) رواه البخاريُّ (٦٤٧٨).
(٦) «فتح الباري» (١١/ ٣١١).

ولله درُّ عُمَرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه حين قال: «مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سقطُهُ، ومَنْ كَثُرَ سقطُهُ كَثُرَتْ ذُنوبُهُ، ومَنْ كَثُرَتْ ذنوبُهُ كانتِ النَّارُ أولى بِهِ»[(١)].

قال الشَّاعرُ:

يُصَابُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بلسانِهِ ▫▪▫ وليس يُصَابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ بالقَوْلِ تُذْهِبُ برأسِهِ ▫▪▫ وعَثْرَتُهُ بالرِّجْلِ تَبْرَا على مَهَلِ[(٢)]

وقال آخرُ:

احفظْ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ ▫▪▫ لا يَلْدَغَنَّكَ، إنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ في المقابرِ مِنْ قتيلِ لِسَانِهِ ▫▪▫ كانتْ تَهَابُ لقاءَهُ الشُّجْعَانُ![(٣)]

---

(١) «جامع العلوم والحِكَم» (ص١٦١).

(٢) «شذرات الذَّهب» (٢/١٠٦).

(٣) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).

تَجَنُّبُ آفَاتِ اللِّسانِ

الآفةُ الأولى

الغِيْبَةُ

الغيـبة من أخطر آفـات اللّسان، وهي مرضٌ خطيـرٌ يفرِّقُ بَيْنَ الأحـباب، ومن أحسن تعاريفها: «ذكْرُ العَيْبِ بظَهْرِ الغَيْبِ»(١).

وأحسن من ذلك التَّعريف تعريفُ النَّـبيِّ ﷺ بها بأنَّها: ذكرُك أخاك بما يكرهُهُ مِنْ خَلْفِه.

فعن المُّطلب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«الغِيْبَةُ: أنْ تَذْكُرَ الرَّجُلَ بما فِيهِ مِنْ خَلْفِهِ(٢)»(٣).**

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أتَدْرُونَ ما الغِيْبَةُ؟». قالوا: «اللهُ ورسولُهُ أعْلَمُ». قال: «ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُهُ». قيل: «أفَرأيْتَ(٤) إنْ كان في أخي**

---

(١) «التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف» (ص٢٥٤).

(٢) قال الغزاليُّ في «الإحياء» (٣/ ١٥٢): «مِنْ خَلْفِهِ»: أي في غيبته، بَلَغَهُ ذلك أَمْ لم يَبْلُغْهُ، وسواءً ذكره بنقص في بَدَنِه، أو نَسَبِه، أو خُلُقِه، أو فعلِه، أو قَوْلِه، أو دِيْنِه، وحتَّى في ثَوْبِه، ودَارِه، ودَابَّتِه».

(٣) رواه الخرائطيُّ في «مسـاوئ الأخلاق»، ورواه مالكٌ بمعناه مُرْسَـلاً، وصحَّحه الألبـانيُّ في «صحيح الجامع» (١/ ٤١٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٩٩٢).

(٤) «أفَرَأَيْتَ»: أخْبِرْني.

ما أقولُ؟». قال: «إنْ كان فيه ما تقولُ فقدِ اغْتَبْتَهُ، وإنْ لم يكنْ فيه ما تقولُ فَقَدْ بَهَتَّه»[1] [2].

■ أسبابُ الغِيبَة:

بَوَاعثُ الغِيْبَة كثيرةٌ، منها:

١ ـ شفاءُ المغتابِ غيظَهُ بذكر مساوي مَنْ يغتابُهُ.

٢ ـ مجاملةُ الأَقْران والرِّفاق، ومشاركتهم فيما يخوضون فيه مِنَ الغِيْبَةِ.

٣ ـ ظَنُّ المغتابِ في غيره ظنّاً سيِّئًا مَدْعاةٌ إلى الغِيْبَةِ.

٤ ـ أنْ يُبَرِّئَ المغتابُ نَفْسَهُ مِنْ شَيْءٍ، وينسبه إلى غيره، أو يذكر غيرَهُ بأنَّه مشاركٌ له.

٥ ـ رفعُ النَّفس وتَزْكيتُهَا بتنقيصِ الغَيْرِ.

٦ ـ حَسَدُ مَنْ يُثْني عليه النَّاسُ، ويذكرونه بخيرٍ.

٧ ـ الاستهزاءُ والسُّخْرية، وتحقيرُ الآخرين[3].

■ حُكْمُ الغِيْبَة:

الغِيْبَةُ من كبائر الذُّنوب، وهي مُحَرَّمةٌ بإجماع المسلمين، تظاهرتْ على تحريمها أدلَّة الكتاب، والسُّنَّة، وإجماع الأُمَّة[4].

---

(١) «بهتَّه»: افتريتَ عليه الكَذِبَ.

(٢) رواه مسلمٌ (٢٥٨٩).

(٣) انظر: «الإحياء» (ص١٥٥ - ٥٥٦) بتصرُّفٍ بإفادة «نظرة النَّعيم» (١١/ ٥١٦٣).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٣).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

فالذي يذمُّ أخاه في غيبته كمن ينهشه ويأكل لحمه وهو ميِّتٌ، لا يحسُّ ألمَ النَّهشِ والأكلِ.

قال ابن كثير ـ يرحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «أي كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوه شرعًا؛ فإنَّ عقوبته أشدُّ من هذا، وهذا من التَّنفير عنها، والتَّحذير منه»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لمَّا عُرجَ بي مَرَرْتُ بقومٍ لَهُمْ أظفارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ[2] وُجُوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء يا جبريلُ؟! قال: هؤلاءِ الذين يأكلون لحُومَ النَّاسِ، ويَقَعُونَ في أعراضِهِمْ»[3].

وعن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فإنَّهُ مَنْ تتبَّعَ عَوْرَةَ أخيه المسلم، تتبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ تتبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ ولو في جَوْفِ بَيْتِهِ»[4].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قلتُ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «حَسْبُكَ[5] مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا[6] ـ قال بَعْضُ الرُّواة: تعني قصيرةً ـ فقال: «لَقَدْ قلتِ كلمةً لو مُزِجَ بها البَحْرُ لَمَزَجَتْهُ».

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥٤).

(٢) «يخْمِشُونَ»: يَجرَحُونَ.

(٣) رواه أبو داودَ (٤٨٧٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٢١٣)، و«الصَّحيحة» (٥٣٣).

(٤) رواه أبو داودَ (٤٨٨٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٩٨٤).

(٥) «حَسْبُك»: كافيك.

(٦) استدلَّ العلماءُ بهذا الحديث بأنَّ الغِيْبَةَ تقعُ بغير اللِّسان. قال النَّوويُّ: «وكَذَا سائر ما يُتوصَّلُ به إلى فَهْم المقصود: كأنْ يمشيَ مِشْيَتَهُ فهو غِيْبَةٌ، بل هو أعظمُ من الغِيْبَةِ»، «الزَّواجر» (٢/ ١٧).

قالتْ: وحَكَيْتُ له إنسانًا[(١)]، فقال: «ما أُحِبُّ أنّي حَكَيْتُ إنسانًا وأنَّ لي كذا وكذا»[(٢)].

قال النَّوويُّ - يرحمه الله -: «ومعنى مَزَجَتْهُ: خالطتْهُ مُخالطةً يتغيَّرُ بها طَعْمُهُ، أو رِيحُهُ لشدَّةِ نَتْنِهَا وقُبْحِهَا، وهذا الحديث مِنْ أبلغِ الزَّواجر عن الغِيْبَةِ»[(٣)].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرَامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ[(٤)]»[(٥)].

وعن ابن عبَّاسٍ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يومَ النَّحْرِ، فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، أيُّ يومٍ هذا؟». قالوا: «يومٌ حَرَامٌ». قال: «فأيُّ بَلَدٍ هذا؟». قالوا: «بَلَدٌ حَرَامٌ». قال: «فأيُّ شَهْرٍ هذا؟». قالوا: «شَهْرٌ حَرَامٌ». قال: «فإنَّ دماءَكُمْ، وأموالَكُمْ، وأعراضَكُمْ عليكم حَرَامٌ كحُرْمةِ يومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا». فأعادها مرارًا، ثُمَّ رفع رأسَهُ، فقال: «اللهُمَّ، هل بلَّغْتُ؟، اللهُمَّ، هل بَلَّغْتُ؟».

قال ابن عبَّاسٍ ﷺ: «فوالذي نفسي بيدِهِ، إنَّها لَوَصيَّتُهُ إلى أُمَّتِهِ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائِبَ، لا تَرْجِعُوا بعدي كفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُم رقابَ بعضٍ»[(٦)].

---

(١) «حكَيْتُ له إنسانًا»: أي حكَيْتُ له حركةَ إنسانٍ يكرهها، بمعنى فعلتُ مثلَ فعله.

(٢) رواه أبو داودَ (٤٨٧٥)، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٢)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥١٤٠ و٥٥١٥).

(٣) «رياض الصَّالحين» (ص٤٤٨).

(٤) «العِرْض»: بالكسر: الحَسَبُ.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٥٦٤).

(٦) رواه البخاريُّ (١٧٣٩).

وبعدَ أنْ عرفتَ - أخي في الله - خطورةَ الغِيْبَةِ، وأنَّ مَنْ نَقَعُ فيه يرتع في حسناتنا.

قال الحَسَنُ البصري: «واللهِ، لَلْغِيْبَةُ أَسْرَعُ في دِيْنِ الرَّجلِ مِنْ الأكلةِ في الجَسَدِ»[١].

وقيل له: إنَّ فلانًا اغتابك، فبعث إليه رُطبًا على طبقٍ، وقال: قد بَلَغَنى أنَّك أهديْتَ إليَّ من حَسَناتِكَ، فأردْتُ أنْ أكافِئَكَ عليها، فاعذرني فإنِّي لا أَقْدِرُ أنْ أُكافِئَكَ على التَّمام»[٢].

وكتب أشهب بن عبد العزيز إلى رجل كان يقعُ فيه: «أمَّا بَعْدُ، فإنَّه لم يمنعْني أنْ أكتبَ إليك أنْ تتزايدَ ممَّا أنت فيه إلاَّ كراهيةُ أنْ أُعِيْنَكَ على معصية اللهِ، واعلم أنِّي أرتعُ في حسناتِكَ كما ترعى الشَّاةُ الخضرَ، والسَّلام»[٣].

وقال رجلٌ للفُضيل بن عياض: إنَّ فُلانًا يغتابُني. قال: «قَدْ جَلَبَ لك الخيرَ حَاسِيًا»[٤].

وقال عبدُ الرَّحمن بن مَهْديٍّ: «لولا أنِّي أَكْرَهُ أنْ يُعْصَى اللهُ، تَمَنَّيْتُ ألاَّ يبقى في هذا العَصْرِ أحَدٌ إلاَّ وقع فيَّ واغتابني؛ فأيُّ شيْءٍ أهنأ مِن حَسَنةٍ يجدُها الرَّجلُ في صحيفتِهِ يومَ القيامةِ، لم يعملْهَا، ولم يعملْ بها»[٥].

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٥٢).
(٢) المرجع السَّابق (٣/ ١٦٤).
(٣) «ترتيب المدارك» (١/ ٤٥٩).
(٤) «حلية الأولياء» (٤/ ١٠).
(٥) «صفوة الصَّفوة» (٤/ ٥).

قال الشاعر:

يُشَارِكُكَ المغتابُ في حَسَنَاتِهِ ... ويُعْطيكَ أجْرَيْ صَوْمِهِ وصَلاَتِهِ

ويحملُ وِزْرًا عَنْكَ ضَنَّ بحملِهِ ... عَنِ النُّجُبِ[1] مِنْ أبنائِهِ وبَنَاتِهِ

فلا تَعْجَبُوا مِنْ جاهلٍ ضَرَّ نَفْسَهُ ... بإمعانِهِ، فينفعُ بَعْضَ عُدَاتِهِ[2]

ويحملُ مِنْ أوزارِهِ وذُنُوبِهِ ... ويَهْلِكُ في تَخْلِيصِهِ ونَجَاتِهِ[3]

■ ما موقفُ مَنْ سَمعَ الغِيْبَةَ؟:

على مَنْ سمع الغِيبَةَ أنْ يردَّها، وينصحَ قائلها، فإنْ لم يقبلِ المغتابُ منه النَّصيحةَ، وجب عليه أنْ يُفارقَ ذلك المجلس، فإنْ فعل ذلك، فقدْ أدَّى ما عليه مِنْ حقِّ أخيه، وإنْ خَذَلَهُ خَذَلَهُ الله في موطنٍ يحبُّ فيه نُصْرَتَهُ.

فعن جابر بن عبد الله، وأبي طَلْحَةَ بن سَهْلٍ رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ امرئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مسلماً في موضعٍ يُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ، ويُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ. إلا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطنٍ يحبُّ فيه نُصْرَتَهُ، وما مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مسلماً في مَوْضعٍ يُنْتَقَصُ فيه مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فيه مِنْ حُرْمَتِهِ. إلاَّ نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطنٍ يُحبُّ نُصْرَتَهُ»**[4].

وعن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيه، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يومَ القيامة»**[5].

(١) «النُّجُب»: الكرام، جمع نجيب.
(٢) «عُدَاته»: أعدائه.
(٣) «إرشاد العباد» (ص١٠٤).
(٤) رواه أبو داودَ ـ واللَّفظ له ـ (٤٨٨٤)، وأحمدُ (٤/ ٣٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٦٩٠).
(٥) رواه التِّرمذيُّ (١٩٣١)، وأحمدُ (٦/ ٤٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢٦٢).

وعن أسماءَ بنتِ يزيدَ الأنصاريَّةِ ﵂ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرضِ أخيه بالغيْبة، كان حقاً على الله أنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّار»[(١)].

وعن عِتْبَانَ بن مالكٍ الأنصاريِّ ﵁ في حديثه الطَّويل المشهور قال: قام النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، فقالوا: أَيْنَ مالكُ بن الدُّخَيْشِنِ - أو ابْنُ الدُّخْشُنِ - ؟. فقال بَعْضُهم: ذلك مُنَافقٌ لا يُحبُّ اللهَ ورسولَهُ!. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تَقُلْ ذلك؛ ألا تَرَاهُ قَدْ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، يريدُ بذلك وَجْهَ الله؟!». قال: «اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال: فإنَّا نَرَى وَجْهَهُ ونصيحتَهُ إلى المنافقين». فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ على النَّار مَنْ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، يَبْتَغي بذلك وَجْهَ الله»[(٢)].

وعن كَعْبِ بن مالكٍ ﵁ في حديثِهِ الطَّويل في قِصَّة توبته قال: قال النَّبيُّ ﷺ وهو جالسٌ في القوْمِ بتَبُوكَ: «ما فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مالكٍ؟». قال رجلٌ مِنْ بَني سَلِمَةَ: «يا رسولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ[(٣)]». فقال له مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﵁: «بِئْسَ ما قلتَ!، والله - يا رسولَ الله - ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيراً». فسَكَتَ رسولُ الله ﷺ»[(٤)(٥)].

---

(١) رواه أحمدُ (٦/ ٤٦١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢٤٠).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٢٥)، (١١٨٦)و (٥٤٠١)، و(٦٩٣٨)، ومسلمٌ (٣٣).
(٣) «عِطْفَيْه»: جانبيه. والعبارة كنايةٌ عَنِ الخُيَلاَءِ والعُجْبِ والكِبْرِ.
(٤) رواه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ - واللَّفظ له - (٢٧٦٩).
(٥) قال النَّوويُّ - يرحمه الله -: «ينبغي لِمَنْ سَمعَ غِيبَةَ مسلمٍ أنْ يَرُدَّها، ويَزْجُرَ قائلَها، فإنْ لم يَزْجُرْهُ بالكلام زَجَرَهُ بيدِهِ، فإنْ لم يستطع باليد، ولا باللِّسان، فارق ذلك المجلسَ، فإنْ سمع غِيبَةَ شَيْخِه، أو غيره مِمَّنْ له عليه حقٌّ، أو من أهلِ الفَضْلِ والصَّلاح - كان الاعتناءُ بما ذكرناه أكثرَ». «الأذكار» (ص٢٩٤).

قال أبو الحسن بن الحارث الهاشميُّ:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ الكلا ▪▪▪ م كَصَوْنِ اللِّسانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ

فإنَّكَ عِنْدَ استماعِ القبيـ ▪▪▪ ـحِ شَريكٌ لقائِلِهِ فانْتَبِهْ[(١)]

▪ ما يُباحُ مِنَ الغِيْبَةِ؟:

قال النَّوويُّ - يرحمه الله -: «اعلمْ أنَّ الغِيْبَةَ تُبَاحُ لغرضٍ صحيحٍ شرعيٍّ، لا يمكنُ الوصولُ إليه إلاَّ بها، وهي سِتَّةُ أسبابٍ:

الأوَّل - التَّظلُّمُ: فيجوز للمظلوم أنْ يتظلَّمَ إلى السُّلطان، والقاضي، وغيرهما ممَّنْ له ولايةٌ، أو قُدْرَةٌ على إنصافه مِنْ ظالمه، فيقولُ: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثَّاني - الاستعانة على تغيير المنكر: وردِّ العاصي إلى الصَّواب، فيقول لمن يرجو قُدْرَتَهُ على إزالةِ المنكر فلانٌ يعملُ كذا، فازجرْهُ عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصورُهُ التَّوصُّل إلى إزالةِ المُنْكَرِ، فإنْ لم يَقْصِدْ ذلك كان حَرَامًا.

الثَّالثُ - الاستفتاء: فيقول للمُفْتي: ظَلَمَني أبي - أو أخي، أو زوجي، أو فُلانٌ - بكذا، فهل له ذلك؟، وما طريقي في الخَلاَصِ منه، وتحصيلِ حقِّي، ودَفْعِ الظُّلْمِ؟، ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجةِ، ولكنَّ الأحوطَ والأفضلَ أنْ يقولَ: ما تقولُ في رَجُلٍ - أو شَخْصٍ، أو زَوجٍ - كان من أمره كذا؟؛ فإنَّه يحصل به الغَرَضُ مِنْ غَيْرِ تعيينٍ، ومع ذلك فالتَّعيين جائزٌ.

الرَّابع - تحذير المسلمين من الشَّرِّ ونصيحتهم: وذلك من وُجُوهٍ:

---

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٤).

منها: جَرْحُ المَجْـرُوحين من الرُّواة والشُّهَود، وذلك جائزٌ بإجـماعِ المسلمين، بل واجبٌ للحاجةِ.

ومنها: المُشاورة في مُصاهَرَةِ إنسانٍ، أو مشاركـته، أو إيداعِه، أو مُعَامَلتِه، أو غير ذلك، أو مُجَاورتِه، ويجب على المُـشَاوَرِ ألاَّ يُخفي حالَهُ، بل يذكَر المسـاويَ التي فيه بنيَّةِ النَّصيحةِ.

ومنها: إذا رأى مُتَفَقِّهًا يتردَّدُ إلى مُـبْتَدع، أو فاسقٍ، يأخذ عَنْهُ العِلْمَ، وخاف أنْ يَتضرَّرَ المُتَفَـقِّهُ بذلك، فعليه نصيحتُـهُ ببيانِ حالِه بشَرْطِ أنْ يقصـدَ النَّصيحةَ، وهذا ممَّا يُغْلَطُ فيه، وقَدْ يحملُ المتكلِّمَ بذلكَ الحَسَـدُ، ويُلَبِّسُ الشَّيطانُ عليه ذلك، ويُخَيِّلُ إليه أنَّهُ نَصيحةٌ، فَلْيُتَفَطَّنْ لذلك.

ومنها: أنْ يكونَ له ولايةٌ لا يقوم بهـا على وَجْهِهَـا: إمَّا بألاَّ يكون صالحًـا لها، وإمَّا بأن يكون فـاسقًا، أو مُغَفَّـلاً، ونحو ذلك، فيجب ذكـرُ ذلك لِمَنْ له عليه ولايةٌ عامَّةٌ؛ لـيُزيلَهُ ويُوَلِّيَ مَنْ يُصْلِحُ، أو يَعْلَمَ ذلك منه ليعـامِلَهُ بمقتضى حالِهِ، ولا يـغترَّ به، وأنْ يَسْعَى في أنْ يَحُثَّهُ على الاستقامة، أو يستبدلَ بِهِ.

الخامس ـ أنْ يكونَ مُجَاهِراً بِفِسْقِهِ، أو بدْعَتِهِ: كالمجاهر بشرب الخَـمْر، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ[1]، وجِبَايَةِ الأمـوال ظُلْمًا، وتولِّي الأمور الباطلة، فيـجوز ذكرُهُ بما يُجَاهرُ به، ويَحْـرُمُ ذكـرُهُ بغيـره من العيـوب، إلاَّ أنْ يـكـون لجـوازه سببٌ آخـرُ ممَّـا ذكرناه.

---

(١) «المَكْس»: ما يُؤْخذ من أموال النَّاس على هيئة ضَرِيْبةٍ.

السَّادس ـ التَّعريف: فإذا كان الإنسانُ معروفًا بلقبٍ: كالأَعْمَشِ، والأعرجِ، والأصمِّ، والأعمى، والأَحْوَلِ، وغيرهم ـ جاز تعريفُهم بذلك، ويَحْرُمُ إطلاقُهُ على جهَةِ التَّنقيص، ولو أمكن تعريفُهُ بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذكرها العلماءُ، وأكثرها مُجْمَعٌ عليه، ودلائلها من الأحاديث الصَّحيحة مشهورةٌ»[(١)]. ثُمَّ ساق ـ يرحمه الله ـ تلك الأدلةَ.

■ قلتُ: هذا هو الضَّابط لمن توافر فيه العلم والقصد، وقد جمعها النَّاظمُ بقوله:

القَدْحُ ليس بغِيْبَةٍ في ستَّةٍ: ... مُتَظَلِّمٍ، ومُعَرِّفٍ، ومُحَذِّرٍ
ومُجاهرٍ، ومستفتٍ، ومَنْ ... طَلَبَ الإعانة في إزالة مُنْكَرِ[(٢)]

---

(١) «رياض الصَّالحين» (ص٤٥ - ٥١).

(٢) «العقيدة الطَّحاويَّة» (ص٣٤).

الآفة الثَّانية

النَّمِيْمَة

النَّميمة من أخطر آفات اللِّسان، وتطلق في الغالب على قول إنسان في إنسان، مثل أن يقولَ: قال فيك فُلانٌ كذا وكذا، وليستْ مخصوصةً بهذا، بل حدُّها كشف ما يُكْره كشفه، سواءً كان من الأقوال أو الأعمال، حتَّى لو رآه يَدْفِنُ مالاً لنفسه فذكره فهو نمَّام(١).

وعدَّها بعضُهم من أنواع السِّحْر؛ لأنَّها تُشاركُ السِّحْرَ في التَّفريق بين النَّاس، وتغيير قلوب المتحابِّين، وتلقيح الشُّرور(٢).

قال يحيى بن أكثم: «النَّمامُ شرٌّ مِنَ السَّاحر، ويعملُ النَّمام في ساعةٍ ما لا يعملُ السَّاحرُ في شَهْرٍ»(٣).

ويُقال: «عملُ النَّمامِ أضرُّ من علم الشَّيطان؛ لأنَّ عملَ الشَّيطان بالخيال والوَسْوَسة، وعملَ النَّمَّامِ بالمواجهة والمعاينة»(٤).

وإليك ـ أخي في الله ـ قِصَّةً تحكي شراً من شرور النَّميمة الكبرى، وأثراً من آثارها السَّيِّئة.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٧٤).

(٢) انظر: «فتح المجيد» (ص٣٢٥).

(٣)، (٤)، «تنبيه الغافلين» (ص٨٩).

روي عن حمَّاد بن سَلَمَةَ أنَّه قال: باع رجلٌ غُلامًا، فقال للمشتري: ليس فيه عَيْبٌ إلاَّ أنَّه نمَّامٌ، فاستخفَّه المشتري، فاشتراه على ذلك العيب، فمكث الغُلامُ عندَه أيَّامًا، ثُمَّ قال لزوجة مولاه: إنَّ زوجَكِ لا يُحبُّك، وهو يريد أنْ يتسرى عليكِ، أَفَتريدين أنْ يُعْطَفَ عليكِ[١]؟، قالتْ: نعم، قال لها: خذي الموسى، واحلقي شعراتٍ من باطن لحيته إذا نام، ثُمَّ جاء إلى الزَّوج، وقال: إنَّ امرأتَك تَخَادَنَتْ[٢]، وهي قاتلتُكَ، أتريد أنْ يتبيَّنَ لك ذلك؟ قال: نَعَمْ، قال: فتَنَاوَمْ لها، فتناوم الرَّجلُ، فجاءتِ امرأتُهُ بموسى لتحلق الشَّعرات، فظنَّ الزَّوجُ أنَّها تريدُ قتلَهُ، فأخذ منها الموسى فقتلها، فجاء أولياؤها فقتلوه، فجاء أولياء الرَّجل، ووقع القتالُ بَيْنَ الطَّرفين[٢].

قال الشَّاعرُ:

فَمِنْ أَجْلِ وَاشٍ[٣] كَاشِحٍ[٤] بنَميمةٍ ... مشى بَيْنَنَا صَدَّقْتَهُ لَمْ تكذبِ
وقَطَعْتَ حَبْلَ الوَصْلِ عنَّا، ومَنْ يُطِعْ ... بذي وُدِّهِ قَوْلَ المُحَرِّشِ[٥] يُعتبِ

■ **الباعث على النَّميمة:**

يَبْعَثُ على النَّميمة أمورٌ، منها:

١ - إرادة السُّوء بالحكي عَنْهُ.

---

(١) «العطفُ»: عملٌ سحريٌّ، يقصد منه ترغيب الإنسان فيما لا يهواه بطرقٍ شيطانيَّةٍ.

(٢) «تخادنت»: اتَّخذت خليلاً.

(٣) «واش»: الذي يُزَيِّنُ الحديث ليَسْعَى بَيْنَ النَّاس بالإفساد.

(٤) «كاشح»: مُضْمِر العداوة.

(٥) «المُحَرِّش»: السَّاعي بين النَّاس بالإفساد لتغيير قُلوبهم وتقاطعهم.

٢ ـ الحثُّ للمحكى عنه «وهذا في ظاهر الأمر، وإلاَّ فإنَّ مَنْ يُحبُّ إنساناً على الحقيقة فإنَّه لا يبلغه ما يسوءه».

٣ ـ الفَرَح بالخوض في الباطل[1].

قال الشَّاعرُ:

تَنَحَّ عَنِ النَّميمةِ واجْتَنِبْهَا ... فإنَّ النَّمَّ يُحبِطُ كُلَّ أَجْرِ

يُشيرُ أخو النَّميمةِ كُلَّ شرٍّ ... ويَكْشِفُ للخلائِقِ كُلَّ سِرِّ

ويقتلُ نفسَهُ وسِوَاهُ ظُلْمًا ... وليس النَّمُّ مِنْ أفعالِ حُرِّ[2]

▪ حُكمُ النَّميمةِ:

النَّميمة من كبائر الذُّنوب، فهي محرَّمةٌ بإجماع المسلمين، وقد تظاهرتْ على تحريمها الدَّلائلُ الشَّرعيَّةُ من الكتاب والسُّنَّة[3].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (سورة القلم: ١١).

ثُمَّ قال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ (سورة القلم: ١٣).

قال عبد الله بن المبارك: «الزَّنيم: ولد الزِّنى الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى كُلِّ مَنْ لم يكتم الحديث، ومشى بالنَّميمة، دَلَّ على أنَّه ولد زنى استنباطًا من الآية الكريمة»[4].

---

(١) انظر: «الزَّواجر» (ص٣٩٦).

(٢) «موارد الظَّمآن» (٣/ ٣٨٥).

(٣) انظر: «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٢٨٩)، و«الكبائر» للذَّهبيِّ (ص١٦٠)، و«الزَّواجر» لابن حجرٍ (ص٣٩٥).

(٤) «مكاشفة القلوب» (ص٤٥٣).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيْلٌ[١] لِّكُلِّ هُمَزَةٍ[٢] لُّمَزَةٍ[٣] ﴾ (سورة الهمزة: ١).

وقال أكثر المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (سورة المسد: ٤).

إنَّ الحَطَبَ أردا به النَّميمة، وإنَّما سُمِّيَت النَّميمة حطبًا؛ لأنَّها سَبَبٌ للعداوة والقتال، فصار بمنزلة إيقاد الحَطَبِ[٤].

وعن حُذَيفةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا يدخلُ الجنَّةَ نَمَّامٌ»**[٥].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: **«مَرَّ النَّبيُّ ﷺ على قَبْرَيْنِ، فقال: «إنَّهما لَيُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ». ثُمَّ قال: «بلَى، أمَّا أحدُهما فكان يَسْعَى بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخَرُ فكان لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»**[٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **إنَّ محمَّدًا ﷺ قال: «ألاَ أُنَبِّئُكُمْ ما العَضْهُ؟**[٧]، **هي النَّميمةُ القَالَةُ**[٨] **بَيْنَ النَّاسِ»**[٩].

---

(١) «وَيْلٌ»: أيْ: وعيدٌ ووبالٌ.
(٢) «الهمَّاز»: هو الذي يعيبُ النَّاسَ، ويطعنُ عليهم بالفعل والإشارة.
(٣) «اللَّماز»: هو الذي يعيبُ النَّاسَ بقوله.
(٤) «تنبيه الغافلين» (ص٨٩).
(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٥٦)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (١٠٥).
ـ وهنا فائدةٌ مهمَّةٌ حول هذا الحديث: قال ابن حجرٍ ـ يرحمه الله ـ: «أي: في أوَّل وَهْلَة كما في نظائره»، انظر: «الفتح» (١٠/ ٤٧٣). قلنا: هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، فإنَّهم لاَ يكفِّرون أحدًا من أهل القبلة بشيءٍ من المعاصي ما لم يَسْتَحِلَّهُ، إلاَّ ما خصَّه الدَّليلُ.
(٦) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢١٦) و (٢١٨) و(١٣٦١) و(١٣٧٨) و(٦٠٥٢) و (٦٠٥٥)، ومسلمٌ (٢٩٢).
(٧) «العَضْهُ»: بزنة الوَجْه، مَصْدَر عَضَهَهُ عَضهًا: أي: رَمَاهُ بالعَضْه. ورُوِيَ «العِضَةُ»: بزنة العِدَة، وهي الكذب والبُهْتَان.
(٨) «القالة»: كَثْرَةُ القول، أو إيقاع الخُصومة بَيْنَ النَّاسِ.
(٩) رواه مسلمٌ (٢٦٠٦).

وعن أبي مالكٍ الأشْعَريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبِرُكُمْ بشرارِكُمْ؟». قالوا: «بلى». قال: «المشَّاءُونَ بالنَّميمة، المفرِّقون بَيْنَ الأحبَّة، الباغون للبراء العَنَت».

قال قتادةُ - يرحمه الله -: «ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ مِنَ الغِيبَةِ، وثلثٌ من النَّميمةِ، وثلثٌ من البولِ»[1].

أخي، النَّمام ينبغي أنْ يُبْغضَ، ولا يوثق بقوله، ولا بصداقته؛ لأنَّهُ لا يخافُ ربَّه جلَّ وعلاَ، فـدَيْدَنُهُ إيقاعُ العـداوة والبغضـاء، وإحلال التَّدابر والـتَّفرُّق مكان المحـبَّة والاجتماع.

قال الشَّاعر:

تمشَّيْتَ فينا بالنَّميمةِ، وإنَّما ▪▪▪ تُفَرِّقُ بَيْنَ الأصْفياءِ النَّمائمُ
رمازلتَ مَنْسُوبًا إلى كُلِّ آفَةٍ ▪▪▪ ومـا زال منسوبًا إليك الملائمُ
لأنَّك لَمْ تَنْدَمْ لشرٍّ فَعَلْتَهُ ▪▪▪ ومـا تأتي مِنْ خَيْرٍ فإنَّك نادمُ[2]

سَعَى رجلٌ بزيادِ الأعْجَمِ إلى سُلَيمانَ بن عبدِ الملكِ، فجمع بَيْنَهُما للموافقة، فأقبل زيادٌ على الرَّجلِ، وقال:

فأنْتَ امْرُؤٌ ائْتَمَنْتُكَ خاليًا ▪▪▪ فَخُنْتَ، وإمَّا قُلْتَ قولاً بلا عِلْمِ
فأنت مِنَ الأمْرِ الذي كان بَيْنَنَا ▪▪▪ لمنزلةٌ بَيْنَ الخيانةِ والإثْمِ[3]

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٤٣).
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٧٧).
(٣) «الإحياء» (٣/ ١٥٢).

ومَنْ نَمَّ لك اليومَ، نَمَّ عليك غداً.

قال الحَسَنُ البِصْرِيُّ ـ يرحمه الله ـ: «مَنْ نَمَّ إليك نَمَّ عليك»[١].

قال الشَّاعرُ:

لا تَقْبلَنَّ نَمِيمَةً بُلِّغْتَهَا ▫▪▫ وتَحَفَّظَنَّ مِنَ الَّذي أنْبَاكَهَا[١]

إنَّ الَّذي أهدى إليك نميمةً ▫▪▫ سَيَنُمُّ عَنْكَ بِمِثْلِهَا قَدْ حَاكَهَا[٢]

وقال آخرُ:

مَنْ نَمَّ في النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ ▫▪▫ على الصَّديقِ، ولمْ تُؤْمَنْ أفَاعِيْهِ

كالسَّيْلِ باللَّيلِ لا يَدْري بِهِ أحَدٌ ▫▪▫ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، ولا مِنْ أَيْنَ يأتِيْهِ؟

فالوَيْلُ للعَهْدِ منه، كيف يَنْقضُهُ؟! ▫▪▫ والوَيْلُ للوُدِّ منه، كيف يَفْنِيْهِ؟![٣]

قال بعضُهم: «لو صَحَّ ما نَقَلَهُ النَّمامُ إليك، لكان هو المُجْتَرِئُ بالشَّتْمِ عليك، المنقول عَنْهُ أولى بحِلْمَكَ؛ لأنَّه لم يُقَابِلْكَ بشَتْمِكَ»[٤].

قال الشَّاعرُ:

دَعْ عَنْكَ ذِكْرَ فُلانةٍ وفُلانِ ▫▪▫ واجْنُبْ لما يُلْهي عَنِ الرَّحْمنِ

واعْلَمْ بأنَّ الموتَ يأتي بَغْتَةً ▫▪▫ وجميعُ ما فَوْقَ البَسِيطَةِ فانِ

فإلى مَتَى تَلْهُو وقلبُكَ غافلٌ ▫▪▫ عَنْ ذِكْرِ يومِ الحَشْرِ والميزانِ؟![٥]

---

(١) المرجع السَّابق (٣/ ١٦٦).

(٢) «أنباكها»: أخبرك بها.

(٣) «موارد الظَّمآن» (٣/ ٣٨٦).

(٤) «الإحياء» (٣/ ١٦٧).

(٥) «شذرات الذَّهب» (٥/ ٢٨١).

كيف نتعاملُ مع النَّمَّام؟:

قال الإمام النَّووِيُّ ـ يرحمه الله ـ: «وكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إليه نميمةٌ، وقيل له: فلانٌ يقول فيك كذا ـ عليه ستَّة أمور:

الأوَّل ـ ألاَّ يُصَدِّقَهُ؛ لأنَّ النَّمَّامَ فاسقٌ.

الثَّاني ـ أنْ يَنْهَاه عَنْ ذلك وينصحَهُ، ويُقَبِّح له فعلَهُ.

الثَّالث ـ أنْ يُبْغِضَهُ في الله تعالى؛ فإنَّه بغيضٌ عندَ اللهِ تعالى، ويجب بغضُ مَنْ أبغضه اللهُ تعالى.

الرَّابع ـ ألاَّ يَظُنَّ بأخيه الغائب السُّوءَ.

الخامس ـ ألاَّ يحملَهُ ما حُكِيَ له على التَّجَسُّس، والبحث عن ذلك.

السَّادس ـ ألاَّ يَرْضَى لنفسِهِ ما نهى النَّمَّامَ عنه، فلا يحكي نميمةً عنه، فيقول: فلانٌ حكَى كذا، فيصير به نمَّامًا، ويكون آتيًا ما نَفَى عنه»(١).

وقد ضرَب لنا السَّلَفُ أروعَ الأمثلة في تعاملهم مع النَّمَّام، وإليك بعضًا منها:

روي أنَّ سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعندَه الزُّهْرِيُّ، فجاءه رجلٌ، فقال له سليمانُ: بلغني أنَّكَ وَقَعْتَ فيَّ، وقلتَ كذا وكذا، فقال الرَّجلُ: ما فعلتُ ولا قلتُ. فقال سليمانُ: إنَّ الذي أخبرني صادقٌ. فقال له الزُّهْرِيُّ: لا يكون النَّمَّامُ صادقًا. فقال سليمانُ: صدقتَ، ثُمَّ قال للرَّجل: اذهبْ بسلامٍ(٢).

---

(١) شرح النَّووي على مسلم» (٢/ ١١٣)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٧٣) نقلاً عن أبي حامد الغزاليِّ.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٦٦)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص١٧٤).

ورُوِيَ عن عُمَرَ بن عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ أنَّه دخل عليه رجلٌ، فَذَكَرَ له عن رجلٍ شيئًا، فقال له عُمَرَ: إنْ شِئْتَ نظرْنا في أمرك، فإنْ كُنْتَ كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إن جاءكُمْ فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا﴾ (سورة الحجرات:٦). وإن كُنْتَ صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿همَّازٍ مَّشَّاء بنميم﴾ (سورة القلم:١١). وإنْ شئْتَ عفَوْنا عَنْكَ؟. فقال: العَفْو ـ يا أمير المؤمنين ـ لا أعودُ إليْه أبدًا(١).

وروي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّ رجلاً سَعَى إليه برجلٍ، فقال له: يا هذا، نحن نسأل عمَّا قلتَ، فإنْ كُنْتَ صادقًا مقَتْنَاك، وإنْ كنتَ كاذبًا عاقَبْنَاك، وإنْ شئتَ أنْ نقيلَكَ أقَلْنَاكَ؟. فقال: أقِلني يا أميرَ المؤمنين(٢).

وقال رجلٌ لعبد الله بن عُمَرَ ـ وكان أميرًا ـ: بلغني أنَّ فُلانًا أعْلَمَ الأميرَ أنِّي ذكرتُهُ بسُوءٍ. قال: قد كان ذلك. قال: فأخبرْني بما قال لك؛ حتَّى أُظهرَ كذبَهُ عندَكَ؟. قال: ما أحبُّ أنْ أشتمَ نفسي بلساني، وحسبي أنِّي لمْ أصدِّقْهُ فيما قال، ولا أقطع عنك الوِصَال(٣).

وقال رجلٌ لعَمْرِو بن عُبَيْدٍ: إنَّ الأسواريَّ ما يزال يذكرُكَ في قَصَصِه بشرٍّ. فقال له عَمْرٌو: يا هذا، ما رعيتَ حقَّ مُجَالسةِ الرَّجل حيثُ نقلتَ إلينا حديثَهُ، ولا أدَّيت حقِّي حِينَ أعلمتني عن أخي ما أكرَهُ، ولكنْ أعلمْهُ أنَّ الموتَ يَعُمُّنا، والقبرَ يَضُمُّنا، والقيامةَ تَجْمَعُنَا، والله تعالى يَحْكُمُ بيْنَنا، وهو خيرُ الحاكمين(٤).

---

(١)، (٢)، (٣)، «الإحياء» (٣/١٦٦).

(٤) المرجع السَّابق (٣/١٦٧).

الآفة الثَّالثة

الكَذِبُ

الكذب: هو الإخبار عن الشَّيء بخلاف الواقع، وليس الإخبار مقصوراً على القول، بل قد يكون بالفعل: كالإشارة باليد، أو هزِّ الرَّأس، وقد يكون بالسُّكوت[1].

وهو صفةٌ ذميمةٌ، وعملٌ مرذولٌ، فهو من خصال النِّفاق، ومن شُعَب الكفر، بل إنَّ الكفر نوعٌ من أنواعه، فالكذب جنسٌ، والكفرُ نوعٌ تحته[2].

والكذب محرَّم بإجماع الأمَّة.

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «قد تظاهرت نصوص الكتاب والسُّنَّة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، وإجماع الأمَّة منعقدٌ على تحريمه مع النُّصوص المتظاهرة»[3].

قال النبيُّ ﷺ محذِّراً من الكذب: **«وإيَّاكم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّار، ومازال الرَّجلُ يكذبُ، ويتحرَّى الكذب، حتَّى يُكْتَب عندَ الله كذَّاباً»**[4].

---

(١) انظر: «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٢).

(٢) انظر: «الأخلاق والسِّير» لابن حزمٍ (ص٦٠).

(٣) انظر: «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٣٢٤).

(٤) تقدَّم تخريجه، واللَّفظ هنا لمسلم.

وعن معاوية بن حيدة قال سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «وَيلٌ للذي يُحَدِّثُ بالحديث ليُضْحِكَ به القومَ فيكذب، وَيلٌ لَهُ، وَيلٌ لَهُ»[(١)].

وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(٢)].

وعن سَمُرَةَ بن جُنْدب ﷺ في حـديث رؤيا النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لكنِّي رأيت اللَّيلةَ رَجُلَينِ، أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ، فإذا رجلٌ جالسٌ، ورجلٌ قائمٌ بيدِهِ كَلُّوبٌ[(٣)] من حديدٍ، يُدْخِلُهُ في شِدْقِهُ، حتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يُفْعَلُ بشِدْقِهِ الآخرِ مِثْلَ ذلك، ويلتئمُ شِدْقُهُ هذا، فيعودُ فيصنعُ مِثْلَهُ، قلتُ: ما هذا؟!، قالا: انطلقْ ...»، وفي آخر الحديث قال ﷺ للرَّجلين: «طَوَّفْتُماني اللَّيلةَ، فأخبراني عمَّا رأيتُ. قالا: نَعَمْ، أمَّا الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فكذَّابٌ، يُحَدِّثُ بالكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عنه، حتَّى يَبْلُغَ الآفاقَ[(٤)]، فيُصْنَعُ به ما رأيتَ إلى يومِ القيامةِ»[(٥)].

والكذَّاب منزوع الثِّقة، كما قيل:

إذا عُرِفَ الإنسانُ بالكذب لم يَزَلْ ▫▪▫ لَدَى النَّاسِ كذَّاباً، ولو كان صادقا
فإنْ قال لم تَصغِ لَهُ جُلَساؤُهُ ▫▪▫ ولم يسمعوا منه، ولو كان ناطقا[(٦)]

---

(١) رواه أبو داودَ (٤٩٩٠)، والتِّرمذي (٢٣١٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/٧١٣٦).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٣) و (٢٦٨٢) و (٢٧٤٩) و(٦٠٩٥)، ومسلمٌ (٥٩).
(٣) «الكَلُّوب»: واحد الكَلاَليب، وهو حديدةٌ يُعَلَّقُ عليها اللَّحمُ، ويُرْسَلُ في التَّنُّور.
(٤) «الآفاق»: جمع أُفُقٍ، وهو النَّاحية.
(٥) رواه البخاريُّ (١٣٨٦) و (٦٠٩٦) و(٧٠٤٧).
(٦) «جواهر الأدب» (ص٧١٣).

والكذَّاب مهين النَّفس، ليس له مروءة، ولا يسود ولا خيرَ فيه، كما قيل:

لا يكذبُ المرءُ إلاَّ مِنْ مهانتِهِ ... أو فِعْلِهِ السُّوءَ، أو مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ

لَبعضُ جيفةِ كَلْبٍ خيرُ رائحةٍ ... مِنْ كَذْبَةِ المرْءِ في جِدٍّ وفي لَعِبِ[(١)]

وقال آخرُ:

ومـا شيءٌ إذا فكَّرتَ فِيْهِ ... بأذهبَ للمروءةِ والجمالِ

مِنَ الكذبِ الذي لا خيرَ فِيْهِ ... وأبعد بالبهاءِ مَنَ الرِّجالِ[(٢)]

قال الماورديُّ ـ يرحمه الله ـ:

«والكذبُ جِماعُ كُلِّ شرٍّ، وأصلُ كُلِّ ذمٍّ، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنَّه يُنْتِج النَّميمة، والنَّميمة تُنتج البغضاء، والبغضاء تَئُول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحةٌ؛ ولذلك قيل: مَنْ قلَّ صدقُه، قَلَّ صديقُه»[(٣)].

قال الشَّاعرُ:

نَعَمْ نَعَمْ إنَّما النَّمَّامُ ذُو ضَرَرٍ ... لكنَّما الكاذبُ الجاني أشدُّ ضَرَرْ

أخو النَّميمةِ إنْ يسمعْ يَنِمَّ، ومَنْ ... يكذبْ يَقُلْ ما يَشَا قولاً بغيرِ أَثَرْ

لذلك لي حيلةٌ فيمَنْ ينِمّ، وما ... لي حيلةٌ في كَذُوبٍ مِلْءُ فِيْهِ شَرَرْ[(٤)]

---

(١) المرجع السَّابق (ص٧١٢).
(٢) «روضة العقلاء» (ص٥٣).
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٢).
(٤) «جواهر الأدب» (ص٧١٢).

ما يجوز من الكذب:

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ:

«فكُلُّ مقصودٍ يمكنُ تحصيله بغير الكذب يَحْرُمُ الكذبُ فيه، وإن لم يمكن تحصيلُهُ إلاَّ بالكذب جاز الكذبُ، ثُمَّ إنْ كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا، كان الكذبُ مباحًا، وإنْ كان واجبًا كان الكذب واجبًا، فإذا اختفى مسلمٌ من ظالمٍ يُريدُ قتله، أو أَخْذَ مالِهِ، وسُئِلَ إنسانٌ عنه ـ وَجَبَ الكذبُ بإخفائه، وكذا لو كان عنده وديعةٌ، وأراد ظالمٌ أَخْذَها، وَجَبَ الكذبُ بإخفائها، والأحوط في هذا كُلِّه أنْ يُوَرِيَ، ومعنى التَّورية: أنْ يَقْصِدَ بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنِّسبة إليه، وإنْ كان كاذبًا في ظاهر اللَّفظ، وبالنسبة إلى ما يَفْهَمُهُ المخاطبُ، ولو ترك التَّوْرِيَة، وأطلق عبارة الكذب، فليس بحرامٍ في هذا الحال.

واستدلَّ العلماءُ بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أمِّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها أنَّها سمعَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«ليس الكذَّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي[(١)] خيرًا، أو يقولُ خيرًا»**[(٢)].

زاد مسلمٌ في رواية: قالتْ أمُّ كُلْثومٍ: **ولم أسمَعْهُ يُرَخِّصُ في شيءٍ ممَّا يقولُ النَّاس إلاَّ في ثلاثٍ، تعني: الحَرْبَ، والإصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وحديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وحديثَ المرأةِ زوجَها»**[(٣)].

---

(١) «فينْمي خيراً»: أي: يبلغ خبراً فيه خيرٌ.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٩٢)، ومسلمٌ (٢٦٠٥).

(٣) انظر: «رياض الصَّالحين» (ص٤٦٠).

فالكذب على طريق التَّورية والتَّعريض جائزٌ للضَّرورة والحاجة، كما سئل رسول الله ﷺ وقد تطرَّف برداءٍ، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجلٌ: ممَّنْ أنت؟. قال: «من ماءٍ»، فورَّى عن الإخبار بنفسه بأمرٍ يُحْتَمَلُ، فظنَّ السَّائلُ أنَّه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنَّما أراد رسول الله ﷺ أنَّه من الماء الذي يخلق منه الإنسان، فبلغ ما أحبَّ من إخفاء نفسه وصدق في خبره[(١)].

وكالذي حُكِيَ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه: أنَّه كان يسير خَلْفَ رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فتلقَّاه العرب، وهم يعرفون أبا بكرٍ، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فيقولون: يا أبا بكرٍ، مَنْ هذا؟، فيقول: **«هذا يهديني السَّبيل»**، فيظنُّون أنَّه يعني هداية الطريق، وهو إنَّما يريد هداية سبيل الخير، فيصدق في قوله، ويورِّي عن مُرَادِه[(٢)].

وكان إبراهيم النَّخعيُّ إذا طلبه مَنْ يكره أن يخرج إليه وهو في الدَّار، قال للجارية: «قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي له: ليس ها هنا؛ كي لا يكون كذابًا»[(٣)].

وكان الشَّعبيُّ إذا طلب في المنزل وهو يكرهه، خطَّ دائرةً، وقال للجارية: «ضعي الأصبع فيها، وقولي: ليس ها هنا»[(٤)].

---

(١)، (٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٥).
(٣)، (٤) «الإحياء» (٣/ ١٤٩).

وقد بوَّب البخاريُّ في «صحيحه» بابًا: المعاريضُ مَنْدُوحةٌ عن الكذب، وممَّا أورد تحته حديث أنسٍ ﷺ قال: «مات ابنٌ لأبي طَلْحَةَ، فقال: كيف الغُلامُ؟. قالتْ أمُّ سُلَيْمٍ: هَدَأتْ نَفْسُهُ، وأرجو أنْ يكون قد استراح. وظنَّ أنَّها صادقةٌ».

وقال عُمَرُ بن الخطَّاب ﷺ: «إنَّ في المعاريضِ ما يكفي أنْ يعفَّ الرَّجل عن الكذب»[1].

وهذا كُلُّه في موضع الحاجة، فأمَّا في غير موضع الحاجة فلا؛ لأنَّ هذا تفهيم الكذب، وإنْ لم يكن اللَّفظ كذبًا فهو مكروهٌ على الجملة[2].

وأخيرًا قال الشَّاعر:

إذا المَرْءُ أخْطَأهُ ثلاثُ ▫▪▫ فَبِعْهُ ولو بكفٍّ منْ رَمَادِ
سَلاَمَةُ صَدْرِهِ، والصِّدْقُ مِنْهُ ▫▪▫ وكِتْمانُ السَّرائرِ في الفُؤَادِ[3]

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٥).
(٢) «الإحياء» (٣/١٤٩).
(٣) «روضة العقلاء» (٥٣).

الآفَةُ الرَّابعة

اللَّعْنُ

اللَّعْنُ: هو الطَّرْدُ والإبعاد عن رَحمة الله، ومن صفات المؤمن ألاَّ يكون لَعَّانًا، ولا طعَّانًا، ولا فاحشًا، ولا بذيئًا، إنَّما ذلك من صفات وأخلاق الفُسَّاق ناقصي الإيمان[(١)].

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ليس المؤمن بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفاحشِ، والبَذِيِّ»**[(٢)].

وعن ثابت بن الضَّحَّاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لَعْنُ المؤمن كقتله»**[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يَنْبَغي لصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا»**[(٤)].

وعن سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تَلاَعَنُوا بلَعْنَةِ اللهِ، ولا بِغَضَبِهِ، ولا بالنَّارِ»**[(٥)].

---

(١) «آفات اللِّسان» للقحطانيِّ (ص ١٤٠).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (١٩٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٥٣٨١)، و«الصَّحيحة» (٣٢٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٤٧) و (٦١٠٥) و (٦٦٥٢)، ومسلمٌ (١١٠).

(٤) رواه مسلمٌ (٢٥٩٧).

(٥) رواه أبو داودَ (٤٩٠٦)، والتِّرمذيُّ (١٩٧٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٤٤٣)، و«الصَّحيحة» (٨٩٠).

وعن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يكون اللعَّانون شفعاءَ، ولا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيامةِ**»[(١)].

وقد جاء الحديث الصَّحيح أنَّه مَنْ لَعَنَ شيئًا ليس له بأهلٍ رَجَعَتْ عليه اللَّعْنَةُ، حتَّى لو كان الملعونُ الرِّياح المُسَخَّرة.

فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: **أنَّ رجلاً نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رداءَهُ على عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ فَلَعَنَها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تَلْعَنْهَا؛ فإنَّها مأمورةٌ، وإنَّه مَنْ لَعَنَ شيئًا ليس له بأهلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عليه»**[(٢)].

واللَّعْنُ منهيٌّ عنه حتَّى للحيوان.

فعن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قال: **بَيْنَما رسول الله ﷺ في بَعْضِ أسفارِه، وامرأةٌ من الأنصارِ على ناقةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْها، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ، فقال: «خُذُوا ما عليها ودَعُوها؛ فإنَّها ملعونةٌ». قال عِمْرَانُ: «فكأنِّي أراها الآنَ تَمْشي في النَّاسِ، ما يَعْرِضُ لها أحدٌ»**[(٣)].

وعن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه قال: **بَيْنَما جاريةٌ على ناقةٍ، عليها بعضُ متاعِ القوم، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبيِّ ﷺ، وتضايقَ بهمُ الجَبَلُ، فقالتْ: «حَلْ[(٤)] اللَّهُمَّ الْعَنْها!». قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تُصَاحِبْنا ناقةٌ عليها لَعْنَةٌ»**. وفي روايةٍ: **«لا تُصَاحِبْنا راحِلَةٌ عليها لَعْنَةٌ مِنَ الله»**[(٥)].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٩٨).

(٢) رواه أبو داودَ (٤٩٠٨)، والتِّرمذيُّ (١٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/٧٤٤٧)، و«الصَّحيحة» (٥٢٧).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٥٩٥).

(٤) «حَلْ»: كلمةُ زَجْرٍ للإبلِ واستحثاثٌ.

(٥) رواه مسلمٌ (٢٥٩٦).

الآفَةُ الخامسةُ

السُّخْرِيَة

السُّخـرية لا تصدر إلاَّ من إنسـانٍ ممتلئٍ بمسـاوئ الأخلاق، مُتَّـصفٍ بكُلِّ خُلُقٍ ذميمٍ، أمَّـا الرَّجل المتخلِّق بجـميل الأخلاق، وكـرائم الخِصَال فـهو بمنأىً عن ذلك، وكيف يَسْـخَرُ من الآخرين وهـو يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ نَهَى عن السُّخْـرية بالمؤمنين، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ[(١)]﴾ (سورة الحجرات: ١١).

قال ابنُ كثير ـ يرحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «يَنْهَى تعالى عن السُّخرية بالنَّاس، وهو احتـقارهم والاستـهزاء بهم، كمـا ثبت في الصَّحـيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**الكِبْرُ: بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[(٢)]، والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حَرَامٌ؛ فإنَّه قَدْ يكونُ المُحْتَقَرُ أعظمَ قَدْرًا عندَ الله تعالى، وأحبَّ إليه من السَّاخرِ منه المُحْتَقِرِ له»[(٣)].

وبَوَّب البخاريُّ في «صحيـحه» باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾. إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(١) جاء تخصيصُ النِّساء في الآية بالذِّكْر تحذيرًا من سُخرية بعضهنَّ من بَعْضٍ؛ لأنَّ السُّخْرِيَةَ شائعةٌ فيهنَّ أكثر من الرِّجال.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٥).

■ **وأَوْرَدَ تحت هذا الباب حديثين:**

أحدهما ـ حديث عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله عنه قال: «**نَهَى النَّبيُّ ﷺ أنْ يَضْحَكَ الرَّجلُ مِمَّا يخرجُ مِنَ الأَنْفُسِ**»[(١)].

والثَّاني ـ حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال النَّبيُّ ﷺ بِمِنَىً: «**فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم دماءكم، وأموالَكم، وأعراضَكم كحُرْمَةِ يومِكم هذا، في شَهْرِكمْ هذا، في بَلَدِكمْ هذا**»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾: أي عَسَى أن يكونَ المسخور منه خيراً من السَّاخر كما هو الحال والواقع، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقولُ: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (سورة الحجرات١٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟**». قال: «**أتقاهُمْ لله**»[(٣)].

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه أنَّه قال: **مَرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ، فقال لرجلٍ عنده جالسٍ: «ما رأيُك في هذا؟». فقال: «رَجُلٌ من أشراف النَّاسِ، هذا ـ والله ـ حريٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ». قال: فَسَكَتَ رسولُ الله ﷺ، ثُمَّ مرَّ رجلٌ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ما رأيُك في هذا؟». فقال: «يا رسولَ الله، هذا رجلٌ مِنْ فُقَراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ ألاَّ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ ألاَّ يُشَفَّعَ، وإنْ قال ألاَّ يُسْمَعَ لقولِهِ». فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا خيرٌ مِنْ مِلْءِ الأرضِ مِثْلَ هذا»**[(٤)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٤٢)، وفي روايةٍ: ثُمَّ وعظهم في الضَّرطة، فقال: «**لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُهُمْ مِمَّا يخرجُ منه**».
(٢) رواه البخاريُّ (١٧٤٢) و(٤٤٠٣) و(٦٠٤٣) و(٦٧٨٥).
(٣) رواه البخاريُّ (٣٣٥٣) و(٣٣٧٤) و(٣٣٨٣) و(٣٤٩٠) و(٤٦٨٩) ومسلمٌ (٢٣٧٨).
(٤) رواه البخاريُّ (٥٠٩١) و(٦٤٤٧). والحديث محمولٌ على أنَّ هذا الفقير خيرٌ في دينه من هذا الرَّجل الذي هو من أشراف النَّاس. انظر: «الفتح» (١٣/٥٨).

الآفَـةُ السَّادسة

البَذَاءة والتَّفَحُّش في القول

الرَّجل المتخلِّق بالأخلاق العالية يُنَزِّهُ لسانه من الفحش، ويُطَهِّرها من البذاءة، ودَنِيءُ الأخلاق تفلت الألفاظ البذيئة منه غيرَ عابئٍ بمواقعها وآثارها.

والتَّفحُّش في الكلام يأتي على معانٍ، فقد يأتي بمعنى السَّبِّ والشَّتْمِ، وقول الخَنَا، كما في حديث عبد الله بن عَمْرٍو ﵄ قال: **«لم يكن النَّبيُّ ﷺ فاحشًا، ولا مُتَفَحِّشًا، وكان يقول: «إنَّ مِنْ خِيَارِكم أَحْسَنَكُم أخلاقًا»»**[1].

وقد يأتي بمعنى التَّعدِّي في القول والجواب، كما في حديث عائشة ﵂ قالت: **أتى النَّبيَّ ﷺ أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: «السَّامُ[2] عليك يا أبا القاسم!». قال: «وعليكم». قالتْ عائشةُ: قلتُ: «بَلْ عليكُمُ السَّامُ والذَّامُ[3]!». فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشةُ، لا تكوني فاحشةً». فقالت: «ما سَمِعْتَ ما قالوا؟!». فقال: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا؟، قلتُ: وعليكم»**[4].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «السَّام»: الموت.

(٣) «الذَّام»: العيب.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٩٣٥) و(٦٠٢٤) و(٦٠٣٠) و(٦٢٥٦) و(٦٣٩٥) و(٦٤٠١) و(٦٩٢٧)، ومسلمٌ ـ واللَّفظ له ـ (٢١٦٥).

وعن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«المُسْتَبَّانِ ما قَالاَ، فعلى البادئِ، ما لم يَعْتَدِ المظلومُ»**[1].

ومعنى الحديث: أنَّ المتشاتمين الذين يسبُّ كُلٌّ منهما الآخرَ يكون إِثْمُهُما على الذي ابتدأ بالشَّتم، ما لم يعتدِ المظلومِ بأنْ سبَّه أكثر وأفحش منه، أمَّا إذا اعتدى كان إثم ما اعتدى عليه، والباقي على البادئ والحاصل إذا سَبَّ كُلٌّ واحدٍ الآخرَ فإِثْمُ ما قالا على الذي بدأ بالسَّبِّ، وهذا إذا لم يعتدِ ويتجاوز المظلوم الحَدَّ، والله أعلمُ[2].

والتَّفحُّش في القول منهيٌّ عنه حتَّى للحيوان.

فمن زيدِ بن خالدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الدِّيْكَ؛ فإنَّه يُوقِظُ للصَّلاةِ»**[3].

قال الشَّاعرُ:

احفظْ لسَانَكَ إنْ لقِيْتَ مشاتمًا ▫▪▫ لا تَجْرِيَنَّ مَعَ اللَّئيمِ إذا جَرَى

مَنْ يشتري عرضَ اللَّئيمِ بعرضِهِ ▫▪▫ يحوي النَّدامةَ حين يعرضُ ما اشترى[4]

وعلى المرء ألاَّ يستسهل الألفاظ القبيحة؛ حتَّى لا يكون أهلاً لمقت الله إيَّاه، واستخفاف النَّاس بشخصه، والألفاظ القبيحة كثرة[5].

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٥٨٧).

(٢) انظر: «عون المعبود» (١٣/ ٢٣٧).

(٣) رواه أبو داودَ (٥١٠١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٧٣١٤).

(٤) «روضة العقلاء» (ص٢١١).

(٥) انظر: «معجم المناهي اللَّفظية» للعلاَّمة بكر بنِ عبد الله أبو زيدٍ فهو كتابٌ يطابق اسمه مسمَّاه.

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «ومن الألفاظ المذمومة المستعملة في العادة قول الشَّخص لمن يخاصمه: يا حمار، يا تيس، يا كلب، ونحو ذلك، فهذا قبيحٌ من وهين: أحدهما أنَّه كذبٌ، والآخر أنَّه إيذاءٌ»[1].

قال الشَّاعرُ:

أحبُّ مكارمَ الأخلاقِ جُهْدي ... وأكرَهُ أنْ أَعيبَ، وأنْ أُعابا

وأصفحُ عَنْ سِبابِ النَّاسِ حِلْمًا ... وشرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوى السِّبابا

ومَنْ هابَ الرِّجالَ تهيَّبُوهُ ... ومَنْ حَقَرَ الرِّجالَ فلنْ يُهَابا[2]

وشريف النَّفس لا يجاري أصحاب الخلاعة والبذاءة، ويحافظُ على مروءته صيانةً لنفسه، فقد قيل: «احتمال السَّفيه خيرٌ من التَّحلِّي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خيرٌ من مشاكلته»[3].

وقال ابن المقفَّع: «واعلمْ أنَّك ستُبتَلَى من أقوامٍ بسَفَهٍ سيُطْلع منك حقدًا، فإنْ عارضته، أو كافأته بالسَّفه، فكأنَّك رضيت ما أتي به، فأحببت أنْ تحتذى على مثاله، فإنْ كان ذلك عندك مذمومًا، فحقّقْ ذمَّك إيَّاه بترك معارضته، فأمَّا أنْ تذمَّه وتمتثله[4] فليس في ذلك سدادٌ»[5].

---

(١) «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٣١٤).

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٥٢).

(٣) المرجع السَّابق (ص٢٥٣).

(٤) «تمتثله»: تحتذيه وتسلك طريقه.

(٥) «الأدب الصَّغير والأدب الكبير» (ص١٣٢).

قال الشَّاعرُ:

فاتركْ مجاراةَ السَّفيةِ؛ فإنَّها ... نَدَمٌ وغِبٌّ[1] بعدَ ذلك وَخِيمُ
فإذا جريتَ مَعَ السَّفيهِ كما جَرَى ... فكلاكما في جَرْيِهِ مَذْمُومُ[2]

وقال آخرُ:

لا تُرْجِعَنَّ إلى السَّفيهِ خِطَابَهُ ... إلاَّ جوابَ تحيَّةٍ حيَّاكها
فمتى تُحَرِّكْهُ تُحَرِّكْ جِيفَةً ... تزدادُ نَتْنًا إنْ أَرَدْتَ حَرَاكها[3]

---

(١) «الغِبُّ»: العاقبة.

(٢) «جواهر الأدب» (ص٦٦٣).

(٣) «الحلم» لابن أبي الدُّنيا (ص٣٢).

الآفَةُ السَّابعةُ

شَهَادَةُ الزُّور

شهادة الزَّور دليلٌ على ضعة النَّفس، وحقارة الشَّأن، وسقوط الهمَّة، وإمارة القحَّة، وسفه العقل، وخبث الطَّويَّة، وسبب من أسباب قطع وشائج المحبَّة، ونقض عُرَا الأخوَّة، وإيقاع العداوة والبغضاء، وإحلال التَّدابر والتَّفرُّق مكانَ المحبَّة والاجتماع.

أَبَعْدَ الصَّفاءِ ومَحْضِ الإخاءِ ⁂ يقيمُ الجَفَاء بنا يخطبُ؟!
وقدْ كان مَشْرَبُنا صافيًا ⁂ زمانًا، فهَلْ تَكدَّرَ المَشْرَبُ؟!

والأصل في الزُّور تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، فهو كُلُّ باطلٍ، سواءً كان ذلك شِركًا، أو غِنَاءً، أو كذبًا، أو غيره، وكُلُّ ما لزمه اسم الزُّور؛ لأنَّ الله عَمَّ في وصفه عباد الرَّحمن أنَّهم لا يشهدون الزُّور، فلا ينبغي أنْ يخصَّ من ذلك شيئًا إلاَّ بحجَةٍ[1].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٢).

---

(١) «جامع البيان» (١٩/ ٣١) بتصرُّف.

قال العلاَّمة ابن سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ في تفسيرها: «أي لا يَحْضُرون الزُّور: أي القول والفعل المحرَّم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرَّمة، أو الأفعال المحرَّمة: كالخَوْضِ في آيات الله، والجدالِ الباطلِ، والغيبة، والنَّميمة، والسَّبِّ، والقَذْفِ، والاستهزاء، والغناء المحرَّم، وشرب الخمر، وفُرُش الحرير، والصُّور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزُّور داخلةٌ في قول الزُّور، فمن بابٍ أولى وأحرى ألاَّ يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزُّور داخلةٌ في قول الزُّور، تدخل في هذه الآية بالأولوية»[1].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (سورة الحج: ٣٠).

قال ابن سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ أي: «جميع الأقوال المحرَّمات؛ فإنَّها من قول الزُّور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادةُ الزُّور»[2].

وشهادة الزُّور من أكبر الكبائر، فعن أبي بكرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألاَ أُنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ؟». قلنا: «بلَى، يا رسول الله». قال: «الإشراكُ بالله، وعُقُوقُ الوالدين». وكان مُتَّكئًا، فجلس فقال: «ألاَ وقولُ الزُّور، وشَهَادَةُ الزُّور، ألا وقولُ الزُّور، وشَهَادَةُ الزُّور» فما زال يقولها حتَّى قلنا: لا يسكت»**[3].

---

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص٥٨٧).

(٢) المرجع السَّابق (ص٥٣٨).

(٣) تقدَّم تخريجه، واللَّفظ هنا للبخاريِّ.

أضرار شهادة الزُّور:

لشهادة الزور أضرار كثيرة، فمنها:

١ ـ تضليل الحاكم عن الحقِّ، والسَّبب في الحكم بالباطل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ أنْ يكونَ ألحَنَ**[1] **بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فأقضيَ على نَحْوِ ما أسمعُ**»[2].

٢ ـ الظُّلم لمن شَهِدَ له؛ لأنَّه ساق إليه ما ليس بحقٍّ بسبب شهادة الزُّور، فوجبت له النَّار، ولذلك قال ﷺ: «**إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ ألحَنُ بحُجَّتِهِ مِنْ بعضٍ، فمن قَضَيْتُ له بحقِّ أخيه شيئًا، فإنَّما أقطعُ له قطعةً مِنَ النَّار؛ فلا يأخُذْها**»[3].

٣ ـ الظُّلم لِمَنْ شهد عليه، فيتعرَّض الشَّاهد لدعوة المشهود عليه بغير الحقِّ ظلمًا، ودعوة المظلوم مستجابةٌ، كما قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ لا تُرَدُّ دعوتُهُمْ** ... ـ وذكر منهم ـ **دعوة المظلوم، يرفعُها اللهُ فوقَ الغَمامِ، وتُفْتَحُ لها أبوابُ السَّماءِ، ويقول الرَّبُّ: وعِزَّتي وجلالي، لأنصرنَّكِ ولو بَعْدَ حينٍ**»[4].

---

(١) «الحَنَ»: أعلم.

(٢) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢٤٥٨) و(٢٦٨٠)، (٦٩٦٧) و(٧١٦٩) و(٧١٨١) و(٧١٨٥)، ومسلمٌ (١٧١٣) عن أمِّ سَلَمَةَ.

(٣) التَّخريج السَّابق.

(٤) رواه أبو داودَ (٥/٥٧٨)، وانظر: «جامع الأصول» (٤/١٤٥).

ودعوة المظلوم كما وصفها أحد الشعراء فقال. وأحسن:

وساريةٍ لم تَسرْ في الأرض تبتغي ▫▪▫ محلاً، ولمْ يقطعْ بها البِيْدَ[1] قاطعُ

سَرَتْ حيثُ لم تُحْدَ[2] الرُّكابُ[3]، ولم تُنَخْ[4] ▫▪▫ لوِرْدٍ، ولم يقصُرْ لها القيدَ مانعُ

تمرُّ وراءَ الليلِ والليلُ ضاربٌ ▫▪▫ بجُثْمانِهِ فيه سَميرٌ[5] وهاجعُ[6]

وقال آخر:

لا تظلمَنَّ إنْ كنتَ مُقتدِرًا ▫▪▫ فالظُّلْمُ يأتيكَ آخرُهُ بالنَّدَم

تنامُ عَيْناكَ والمظلومُ مُنْتَبِهٌ ▫▪▫ يدعو عليك، وعَيْنُ اللهِ لم تَنَم

٤ ـ قد يطلب منه اليمين على صحَّة شهادته، فيتعرَّض لغضب الله ومقته، قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ[7] حقَّ امرئٍ مسلم بيَمِيْنِهِ، فقد أوجب اللهُ له النَّارَ، وحَرَّمَ عليه الجنَّةَ». فقال له رجلٌ: «وإنْ كان شيئًا يسيرًا، يا رسولَ اللهِ؟». قال: «وإنْ كان قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ[8]»[9].

٥ ـ تخليص المجرمين مِنْ عقوبةِ الجريمة.

٦ ـ تزكية المشهود له، وهو ليس أهلاً لذلك[10].

---

(١) «البِيْد»: جمع: بَيْدَاءَ، وهي الصَّحراء الواسعة، لا ماء فيها ولا نبات.
(٢) «الحَدْوُ والحُدَاء»: الغناء للإبل لسوقها وحثِّها على السَّير.
(٣) «الرِّكاب»: الإبل التي يُسَار عليها.
(٤) «أناخ الجمل»: أبركَهُ.
(٥) «سمير»: ساهر.
(٦) «هاجع»: نائم.
(٧) «اقتطع»: أخَذَ.
(٨) «الأَرَاك»: شَجَرٌ معروفٌ يُستَاكُ بأعواده.
(٩) رواه مسلمٌ (١٣٧) عن أبي أُمامةَ.
(١٠) انظر: «مجلَّة البحوث»، بحثٌ قدَّمه الشيخ عبد الله القصير بتصرُّف.

الآفَـةُ الثَّامنةُ

إفشَـاءُ الأسْـرارِ

إفشاء الأسرار ضَرْبٌ من ضُرُوبِ الخيانة، وقلَّ أنْ تجد رجلاً وفيّاً يفشي أسراره، وأسرار الآخرين.

والسِّرُّ: هو ما يقع بَيْنَكَ وبَيْنَ صاحبك، فـلا يحلُّ لك أنْ تبيِّنَهُ لأحدٍ، سواءً قال لك: لا تخبـر به أحداً، أو التفت في حـال حديثِهِ خـشيةَ أن يكون أحـدٌ يسمع، أو علمتَ أنَّه لا يحبُّ أنْ يَّطلعَ عليه أحدٌ غيرم، أو أخبرك بأمورٍ يستحي من ذكرها.

فـعن جابـر بن عبـد الله رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: **«إذا حَـدَّثَ الرَّجلُ بالحديثِ، ثُمَّ الْتَفَتَ، فهي أمانةٌ»**[1].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ مِنْ أشرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ منزلةً يومَ القِيامةِ الرَّجلُ يُفضي إلى امرأتِهِ[2]، وتُفْضي إليه، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّها[3]»**[4].

---

(١) رواه أبود داودَ (٤٨٦٨)، والتِّـرمذيُّ (١٩٥٩)، وأحمـدَ (٣/ ٣٢٤)، وحسَّنه الألبـانيُّ في «صحـيح الجامع» (١/ ٤٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٠٩٠).

(٢) «يُفْضي إلى امرأتِهِ»: من الإفضاء، وهو مباشرة البشرة، وهو هنا كناية عن الجِمَاع.

(٣) «ثم ينشرُ سرَّها»: أي يذكر تفاصيل ما يقع حال الجماع، وقبله من مقدِّماتِ الجماع، وهو من الكبائر.

(٤) رواه مسلمٌ (١٤٣٧).

وعن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه حين تأيَّمَتْ[(١)] بنتُهُ حَفْصَةُ، قال: «لقيتُ عثمانَ بنَ عفانَ رضي الله عنه فعرضتُ عليه حَفْصَةَ، فقلتُ: إنْ شئتَ أنكحتُكَ حفصةَ بنتَ عُمَرَ؟. قال: سأنظر في أمري. فلبثتُ لياليَ ثُمَّ لَقِيَنِي، فقال: قَدْ بَدَا لي ألاَّ أتزوَّجَ يومي هذا. فَلَقِيتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه، فقلتُ: إنْ شئتَ أنكحتك حفصةَ بنتَ عُمَرَ؟ فصمتَ أبو بكرٍ رضي الله عنه، فلم يرجعْ إليَّ شيئًا!. فكنتُ عليه أوجَدَ[(٢)] منِّي على عثمانَ، فلَبِثْتُ لياليَ، ثُمَّ خطبها رسولُ الله ﷺ، فأنكحتُها إيَّاه، فَلَقِيَني أبو بكرٍ فقال: لعلَّك وَجَدْتَ عليَّ حينَ عرضْتَ عليَّ حفصة، فلم أَرْجِعْ إليك شيئًا؟. فقلتُ: نَعَمْ. قال: إنَّه لم يمنعْني أنْ أرجعَ إليك فيما عَرَضْتَ عليَّ إلاَّ أنِّي كنتُ علمتُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذَكَرَها، فلم أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رسولِ الله ﷺ، ولو تركها النَّبيُّ ﷺ لَقَبِلْتُها»[(٣)].

وعن ثابتٍ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أَتَى عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا ألعبُ مَعَ الغِلْمانِ، فسلَّم علينا، فَبَعَثَني إلى حاجةٍ، فأبْطَأْتُ على أُمِّي، فلمَّا جِئْتُ قالت: ما حَبَسَكَ؟. قلتُ: بعثني رسولُ الله ﷺ لحاجةٍ. قالتْ: ما حاجتُهُ؟. قلتُ: إنَّها سِرٌّ. قالتْ: لا تُحَدِّثَنَّ بسرِّ رسولِ الله ﷺ أحداً. قال أنسٌ: والله، لو حدَّثْتُ به أحداً لحدَّثْتُكَ يا ثابتُ»[(٤)].

جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِينِ الرَّسُولِ فَمَا ... أَحْلَى مَآثِرَهُمْ في سَالِفِ الحِقَبِ[(٥)]
لولا لطائفُ صُنْعِ اللهِ مَا نَبَتَتْ ... تِلْكَ المكارمُ في لَحْمٍ، ولا عَصَبِ

---

(١) «تأيَّمَتْ»: أي صارت بلا زواج.
(٢) «أوجد»: أشدّ غضبًا.
(٣) رواه البخاريُّ (٤٠٠٥) و(٥١٢٢) و(٥١٢٩) و(٥١٤٥).
(٤) رواه مسلمٌ (٢٤٨٢)، وأخرجه البخاريُّ (١١/٦٩) بلفظ: «أسرَّ إليَّ النَّبيُّ ﷺ سراً، فما أخبرتُ به أحداً بعدَهُ، ولقدْ سألتني أمُّ سُلَيم فما أخبرتُها به».
(٥) «الحِقَب»: جمع حِقْبَة، وهي مدَّةٌ مبهمةٌ طويلةٌ من الزَّمن.

والحازم يستعين على إنجاح أعماله بالكتْمان.

قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكِتْمان؛ فإنَّ كُلَّ ذي نعمةٍ محسود»[(١)].

قال ابن حبَّان ـ يرحمه الله ـ: «والحازم يجعل سرَّه في وعاءٍ، ويكتمه عن كُلِّ مُستودعٍ، فإن اضطرَّه الأمر وغلبه، أودعه العاقل النَّاصح له؛ لأنَّ السِّرَّ أمانةٌ، وإفشاؤه خيانةٌ، والقلب له وعاؤه، فمن الأوعية ما يضيق بما يُودَعُ، ومنها ما يتَّسعُ لما استُودِعَ»[(٢)].

قال الشَّاعرُ:

عليك بكَتْمِ السِّرِّ في كُلِّ حالةٍ ▫▪▫ فقدْ جاء في الأخبار مِنْ أَلْفِ حُجَّهْ

إذا دخل اثنانِ الحديثَ فسِرُّهُ ▫▪▫ يَشيعُ، وصَمْتُ المَرْءِ أعظمُ حِكْمَهْ[(٣)]

وكرام النَّاس يقضون هذا الحقَّ، فتتسَّع صدورهم لأسرارهم، وأسرار الآخرين، كما قيل: «قلوبُ الأحرارِ قُبورُ الأسرارِ».

وكما قال الشَّاعرُ:

لا يكتمُ السِّرَّ إلاَّ مَنْ له شَرَفٌ ▫▪▫ والسِّرُّ عِنْدَ كِرام النَّاس مَكْتُومُ

السِّرُّ عندي في بيتٍ لهُ غلقٌ ▫▪▫ ضلَّتْ مفاتيحهُ، والبابُ مَخْتُومُ[(٤)]

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «روضة العقلاء» (ص١٨٩).

(٣) «جواهر الأدب» (ص٧١٨).

(٤) «روضة العقلاء» (ص١٩١).

ومَنْ أطلع النَّاسَ على أسراره وأسرار غيره، هان عليهم وأذاعوه، ولا يفعلُ ذلك إلاَّ حقير النَّفس، والحازم يتفطَّن حتَّى للطُّرق الخافية التي يُسْتَخْرَجُ بها ما عنده، وهَيْهَاتَ أنْ يظفرَ أحدُهم بأربِهِ.

قال العلاَّمة عبد الرَّحمن بن سَعْديٍّ ـ يرحمه الله ـ: «كُنْ حافظًا للسِّرِّ، معروفًا عندَ النَّاسِ بحفظِهِ؛ فإنَّهم إذا عرفوا منك هذا الحال أَفْضُوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طَوَيتَ عنهم سرَّ غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصًا إذا كان لك اتصالٌ بكُلِّ أحد من المتعادين، فإنَّ الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدَّد من كُلٍّ من الطَّرفين، فإيَّاك إيَّاك أنْ يظفر أحدٌ منهم بشيءٍ من ذلك تصريحًا أو تعريضًا، واعلمْ أنَّ للنَّاسِ في استخراج ما عندَ الإنسانِ طُرُقًا دقيقةً، ومسالِكَ خفيَّةً، فاجعل كُلَّ احتمال ـ وإنْ بَعُدَ ـ على بالك، ولا تُؤْتَ مِنْ جهةٍ من جهاتك؛ فإنَّ هذا من الحَزْم، واجزمْ بأنَّك لا تندم على الكتمان، وإنَّما الضُرُرُ والنَّدمُ في العجلة والتَّسرُّع، والوثوق بالنَّاس ثقةً تحملك على ما يضرُّ»[1].

قال مسكين الدَّارميُّ:

أؤاخي رجالاً لستُ مُطْلِعَ بَعْضِهِمْ ◦▪◦ على سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أنِّي جِماعُهَا

يظلُّون شَتَّى في البلادِ، وسِرُّهُمْ ◦▪◦ إلى صَخْرَةٍ أعيا الرِّجالَ انْصِدَاعُهَا

ومن النَّاسِ مَنْ يثق بكُلِّ أحد، فيفضي إليهم بأسراره، فإذا انتشر الخبر وذاع ـ وكُلُّ سِرٍّ جاوز الاثنين شاع ـ لامَ مَنْ أذاعه وأفشاه.

(١) «الرِّياض النَّاضرة» لابن سَعْديٍّ (ص ٢١٠).

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ما وَضَعْتُ سرِّي عندَ أحدٍ، فَلُمْتُهُ على أنْ يفشيَهُ؛ كيف ألومُهُ وقَدْ ضِقْتُ به؟!»[1].

وقال الشَّافعيُّ ـ يرحمه الله ـ:

إذا المَرْءُ أفشى سِرَّهُ بلسانِهِ ... ولامَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فهو أحْمَقُ

إذا ضاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ[2]

وقد يكون للمرء صديقٌ هو مستودع أسراره، فتدعوه الحاجةُ لكتم السِّرِّ عنه خوفًا أنْ ينتقلَ السِّرُّ إلى صديقٍ آخر، وفي هذا المعنى يقول الشَّاعرُ:

إذا ما كَتَمْتُ السِّرَّ عمَّنْ أَوَدُّهُ ... تَوَهَّمَ أنَّ الوُدَّ غيرُ حقيقي

ولم أُخْفِ عَنْهُ السِّرَّ مِنْ ظِنَّةٍ بِهِ ... ولكنَّني أَخْشَى صديقَ صديقي[3]

والرَّجل الكريم المتخلِّق بمحاسن الأخلاق وجميل العادات يحفظ أسرار إخوانه، حتَّى ولو تصرم حبل المودَّة بينهما، كما قيل:

ليس الكريمُ الذي إذا زال صاحبُهُ ... بثَّ الذي كان من أَسْرَارِهِ علما

بَلِ الكريمُ الذي تبقى مَوَدَّتُهُ ... ويحفظُ السِّرَّ، إنْ صافَى وإنْ صرما[4]

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٨٨).

(٢) «ديوان الشَّافعيِّ» بتحقيق الزّغبيِّ (ص٦٤).

(٣) «رسائل الإصلاح» (٢/ ١٧).

(٤) «عين الأدب والسِّياسة» (ص: ٧).

الآفَةُ التَّاسعة

المَدْحُ المَذْمُومُ

المَدْحُ: نقيض الهِجَاء، وهو حُسْنُ الثَّناء، **وقيل**: هو الوصفُ الجميلُ، وعَدُّ المآثر[(١)].

وقيل: هو وصف المحاسن بكلامٍ جميلٍ[(٢)].

والمذموم منه: هو ما انعدمت فيه ضوابط المدح المباح، فانعدم فيه الصِّدق، أو صاحَبَهُ النِّفاق، أو اتُّخذَ مهنةً للتَّكسُّب، وزاد الممدوح بَطَرًا، وتكبُّرًا، وظلمًا، ورثاءً.

وهذا النَّوع هو الذي عناه الرَّسولُ ﷺ في حديث أبي موسى الأشعريِّ ؓ قال: سمع النَّبيُّ ﷺ **رجلاً يُثْني على رجلٍ، ويُطْرِيهِ في مَدْحه، فقال: «أَهْلَكْتُمْ ـ أو قَطَعْتُمْ ـ ظَهْرَ الرَّجُلِ!»**[(٣)].

وعن أبي بكْرَةَ ؓ قال: **أَثْنَى رجلٌ على رجلٍ عندَ النَّبيِّ ﷺ، فقال: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبِكَ!»** مراراً ثُمَّ قال: **«مَنْ كان منكم مادحًا أخاه ـ لا محالة ـ فليقلْ: أَحْسِبُ فلانًا، والله حَسِيبُهُ، ولا أُزكِّي على الله أحدًا، أَحْسِبُهُ كذَا وكذَا، إنْ كان يعلمُ ذلك منه»**[(٤)].

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٥٨٩ - ٥٩٠)، و«تاج العروس» (٧/ ١١١).

(٢) «معجم مقاييس اللُّغة» لابن فارسٍ (ص٣٠٨٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٦٦٣) و(٦٠٦٠)، ومسلمٌ (٣٠٠١).

(٤) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ (٢٦٦٢) و(٦١٦٢)، ومسلمٌ (٣٠٠٠).

قال ابن بطَّال ـ يرحمه الله ـ: «حاصل النَّهي عَمَّن أفرط في مَدْح آخرَ بما ليس فيه، ولم يأمنْ على الممدوح العُجْبَ لظنَّه أنَّه بتلك المنزلة، فربَّما ضيَّع العملَ، والازدياد من الخير اتِّكالاً على ما وُصفَ به، ولذلك تأوَّل العلماءُ في الحديث: «احْثُوا في وُجُوهِ المَدَّاحِيْنَ التُرَابَ»[١]. أنَّ المراد مَنْ يَمْدَحُ النَّاسَ في وجوههم بالباطل»[٢].

قال الشَّاعرُ:

يا جاهلاً غرَّهُ إفراطُ مادِحِهِ ▫▪▫ لا يَغْلِبَنَّ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمَكَ بِكْ

أَثْنَى وقالَ بلا علمٍ أَحَاطَ بِهِ ▫▪▫ وأنتَ أعلمُ بالمحصولِ مِنْ رَيْبِكْ

ومن خلال ما سبق عرفنا أنَّ المذمومَ من المَدْح هو الذي يعود بالفتنة على الممدوح، أو فيه مُجازة أو إفراطٌ، أمَّا إذا لم يكنع كذلك، بَلْ كان الممدوح لا يزدادُ به إلاَّ كمالاً، أو ينشطُ على فِعْلِ الخير، والازدياد منه، أو الدَّوام عليه ـ فهذا محمودٌ مندوبٌ إليه، فعندما قصَّتْ حَفْصَةُ رُؤْيا أخيها عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما على النَّبيِّ ﷺ قال: **«نِعْمَ الرَّجلُ عبدُ اللهِ، لو كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ». قال سالمٌ: «فكان عبدُ اللهِ ـ بَعْدَ ذلك ـ لا ينامُ من اللَّيلِ إلاَّ قليلاً»**[٣].

فهذا المدح من النَّبيِّ ﷺ كانتْ ثمرته عظيمةً للمدوح، حيث أخذ على نفسه عَهْدًا بقيام اللَّيل، حتَّى إنَّه كان لا ينامُ اللَّيلَ إلاَّ قليلاً.

---

(١) رواه مسلمٌ (٣٠٠٢) عن المِقْدَاد.
(٢) «فتح الباري» (١٠/٤٧٧).
(٣) رواه البخاريُّ (١١٢٢) و(١١٥٧) و(٣٧٣٩) و(٣٧٤١) و(٧٠١٦) و(٧٠٢٩) و(٧٠٣١)، ومسلمٌ (٢٤٧٨)، (٢٤٧٩).

قال النَّوويُّ ـ يرحمه الله ـ: «قد جاءتْ أحاديثُ كثيرةٌ في الصَّحيحين بالمدح في الوجه، وقال العلماء: وطريق الجمع بينها أنَّ النَّهي محمولٌ على المجازفة في المدح، والزِّيادة في الأوصاف، أو على مَنْ يخاف على فتنته من إعجابٍ ونحوه، إذا سمع المَدح.

وأمَّا مَنْ لا يخاف عليه لكمال تَقْواه، ورسوخ عقله، ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه، إذا لم يكن فيه مجازفةٌ، بل إذا كان يحصل بذلك مصلحةٌ: كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدَّوام عليه، والاقتداء به ـ كان مستحبًا، والله أعلمُ»[1].

فعلى المادح ألاَّ يَمْدَحَ أيَّ شخصٍ بأكثر ممَّا فيه، فقد قال أَحَدُ السَّلَف: «لا تمدحْ أحدًا بأكثرَ ممَّا فيه؛ فيكونَ ما زِدْتَهُ نقصًا لك».

وعلى الممدوح أنْ يراقبَ نفسه من العُجْب، ومن مداخل الشَّيطان، وليدعُ بهذا الدُّعاء: «**اللهمَّ، اغفرْ لي ما لا يعلمون، ولا تُؤاخِذْني بما يقولون، واجْعَلْني خيرًا ممَّا يَظُنُّون**»[2].

---

(١) «شرح النَّووي على مسلمٍ (١٨/١٢٦).

(٢) «فتح الباري» (١٠/٤٧٨) نقلاً عن البيهقيِّ في «الشُّعب» (٤/٢٢٨) منسوبة لأبي بكرٍ الصِّدِّيق، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٥).

الخاتمة

وختامًا فإنَّ الكمالَ عزيزٌ، وبلوغه بعيدُ المنال، معجزُ الدَّرك، فمن وجد خَلَلاً أو نقصًا، فنحن نناشـده الله في إصلاحه، وأداء حقِّ النَّصيحة فيـه، وغَفَرَ اللهُ لِمَنْ تجاوز عن الزَّلاَّت والهنات، التمس لي العُذْرَ في النَّقص والتَّقصير.

إنْ تجـدْ عَـيْـبًـا فَـسُـدَّ الخَلَل ▫▪▫ جَلَّ مَنْ لا عَـيْـبَ فـيـه وعَـلاَ!

وأجدني مضطراً لأنْ أقـولَ ما قال مِنْ قبلي: «هذا جُهْـدُ المُقِلِّ، وحِيْلَةُ المُفْلِس، حذَّر فيه من الدَّاء، وإنْ كان من أهله، ووصف فيه الدَّواء، وإنْ لم يصبرْ على تناوله لظُلْمِهِ وجَـهْلِهِ، وهو يرجو أكرمَ الأكرمين، وأرحمَ الرَّاحـمين أنْ يغفرَ له غَيَّـه لنفسهِ بنصيحته لعبادِهِ، والله المستعانُ».

فإن كنت ـ أخي القارئ ـ مِمَّن خَصَّهُمُ اللهُ بحـفظ الجميل، فأقلُّ الجميل في حقِّ كاتب هذه السُّطُور «حفظه اللهُ بطاعته!»، أو «رحمه اللهُ، وغَفَرَ له ولوالدَيْه!».

وأستودعك ـ أخي ـ بهذا الدُّعاء:

بَقِـيْتَ مَـدَى الدَّهْرِ، وَعِلْمُكَ رَاسِخٌ ▫▪▫ وخَـيْـرُكَ مَـمْـدُودٌ، وَلَيْلُكَ عَـامِـرُ

يَوَدُّ سَنَاكَ البَـدْرُ، والبَـدْرُ زَاهِرٌ ▫▪▫ ويَقْـفُـو نَدَاكَ البَحْرُ، والبَحْرُ غَامِرُ

وهُنِّئْتَ أيَّامًـا تَوَالَى نَشَـاطُهَـا ▫▪▫ كما تَتَـوَالَى في العُقُـودِ الجَوَاهِرُ

وآخرُ دعوانا أنِ الحَمْدُ لله ربِّ العالمين

مراجع البحث

مراجع البحث

١ ـ «النهاية» ـ لابن الأثير.

٢ ـ «الإصابة» ـ لابن حجر.

٣ ـ «الأخلاق والسير» ـ لابن حزم.

٤ ـ «إحياء علوم الدين» ـ للغزالي.

٥ ـ «إيثار الحق على الخلق» ـ لابن الوزير.

٦ ـ «الأدب الصغير والأدب الكبير» ـ لابن المقفع.

٧ ـ «أدب الدنيا والدين» ـ للماوردي.

٨ ـ «القاموس المحيط» ـ الفيروز أبادي.

٩ ـ «التعريفات» ـ للجرجاني.

١٠ ـ «الفوائد» ـ لابن القيم.

١١ ـ «الشوقيات» ـ لأحمد شوقي.

١٢ ـ «الداء والدواء» ـ لابن القيم.

١٣ ـ «الآداب الشرعية» ـ لابن مفلح.

١٤ ـ «الرياض الناضرة» ـ لابن سعدي.

١٥ ـ «المدخل» ـ لابن الحاج.

١٦ ـ «الاستقامة» ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٧ ـ «الحلم» ـ لابن أبي الدنيا.

١٨ ـ «المروءة وخوارمها» ـ لمشهور بن حسن.

١٩ ـ «التعريفات» للجرجاني.

٢٠ ـ «التوقيف على مهمات التعاريف» ـ للمناوي.

٢١ ـ «الزواجر» ـ لابن حجر الهيثمي.

٢٢ ـ «العقيدة الطحاوية» ـ الطحاوي.

٢٣ ـ «أبجد العلوم» ـ صديق حسن خان.

٢٤ ـ «السلسلة الصحيحة» ـ للألباني.

٢٥ ـ «بهجة المجالس» ـ لابن عبد الله.

٢٦ ـ «**بر الوالدين**» ـ للحناوي .

٢٧ ـ «**تهذيب سيرة ابن هشام**» .

٢٨ ـ «**تهذيب مدارج السالكين**» .

٢٩ ـ «**تفسير ابن كثير**» .

٣٠ ـ «**تفسير ابن سعدي**» .

٣١ ـ «**تفسير الطبري**» .

٣٢ ـ «**تفسير القرطبي**» .

٣٣ ـ «**تاج العروس**» ـ للزبيدي .

٣٤ ـ «**تهذيب الأخلاق**» ـ للجاحظ .

٣٥ ـ «**جامع العلوم والحكم**» ـ لابن رجب .

٣٦ ـ «**ديوان أبي فراس**» .

٣٧ ـ «**ديوان أبي الطيب**» .

٣٨ ـ «**ديوان المثاني**» ـ لعبد الوهاب عزام .

٣٩ ـ «**ديوان المروءة**» ـ لأحمد بركات .

٤٠ ـ «**رسائل الإصلاح**» ـ محمد الخضر حسين .

٤١ ـ «**رياض الصالحين**» .

٤٢ ـ «**زاد المعاد**» ـ لابن القيم .

٤٣ ـ «**سنن أبي داود**» .

٤٤ ـ «**سنن الترمذي**» .

٤٥ ـ «**سنن ابن ماجه**» .

٤٦ ـ «**سنن النسائي**» .

٤٧ ـ «**سير أعلام النبلاء**» ـ للذهبي .

٤٨ ـ «**شفاء العليل**» ـ لابن القيم .

٤٩ ـ «**شرح حماسة**» ـ أبي تمام .

٥٠ ـ «**شذرات الذهب**» ـ لابن العماد .

٥١ ـ «**صحيح البخاري**» .

٥٢ ـ «**صحيح مسلم**» .

٥٣ ـ «**صحيح الجامع**» ـ للألباني .

٥٤ ـ «صحيح الترغيب والترهيب» ـ للألباني .
٥٥ ـ «صحيح ابن حبان» ـ للألباني .
٥٦ ـ «صحيح الأدب المفرد» ـ للألباني .
٥٧ ـ «عين الأدب والسياسة» ـ لعلي بن هزيل .
٥٨ ـ «عيون الأخبار» ـ لابن قتيبة .
٥٩ ـ «عدة الصابرين» ـ لابن القيم .
٦٠ ـ «فتح الباري» ـ لابن حجر .
٦١ ـ «فتح المجيد» ـ لعبد الرحمن بن حسين .
٦٢ ـ «فتح الأخلاق» ـ لأبي عيد الله مصطفى العدوي .
٦٣ ـ «فتح المغيث» ـ للسخاوي .
٦٤ ـ «كشف الأستار» ـ للبزار .
٦٥ ـ «مسند أحمد» .
٦٦ ـ «مدارج السالكين» ـ لابن القيم .
٦٧ ـ «مفتاح دار السعادة» .
٦٨ ـ «مجمع الزوائد» ـ للهيثمي .
٦٩ ـ «مكارم الأخلاق» ـ لابن تيمية .
٧٠ ـ «مكارم الأخلاق» ـ لابن أبي الدنيا .
٧١ ـ «مكارم الأخلاق» ـ للخرائطي .
٧٢ ـ «مكارم الأخلاق» ـ لابن عثيمين .
٧٣ ـ «مكارم الأخلاق» ـ لسليم الهلالي .
٧٤ ـ «معجم المناهي اللفظية» ـ لبكر أبو زيد .
٧٥ ـ «معجم مقاييس اللغة» ـ لابن فارس .
٧٦ ـ «مختصر منهج القاصدين» ـ لابن قدامة .
٧٧ ـ «نونينة ابن القيم» .
٧٨ ـ «نظر النعيم» ـ مجموعة علماء .
٧٩ ـ «نفح الطيب» ـ للمقري .

الفهرس

الفهرس

الموضوع	صفحة

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

اليسر والعسر

في حياة المؤمن على ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة

تأليف الدكتور

محمود أحمد سعيد الأطرش

دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن الكريم

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلي
فيصل - ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الرخص الشرعية

أحكامها وضوابطها

« بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الفقه المقارن »

تأليف

أسامة محمد محمد الصلابي

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
تليفون وفاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٢٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

فتاوى العلماء للنساء

لسماحة الشيخين

عبد العزيز بن باز
رحمه الله

محمد صالح بن العثيمين
رحمه الله

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
تليفون وفاكس: ٥٤١١٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩